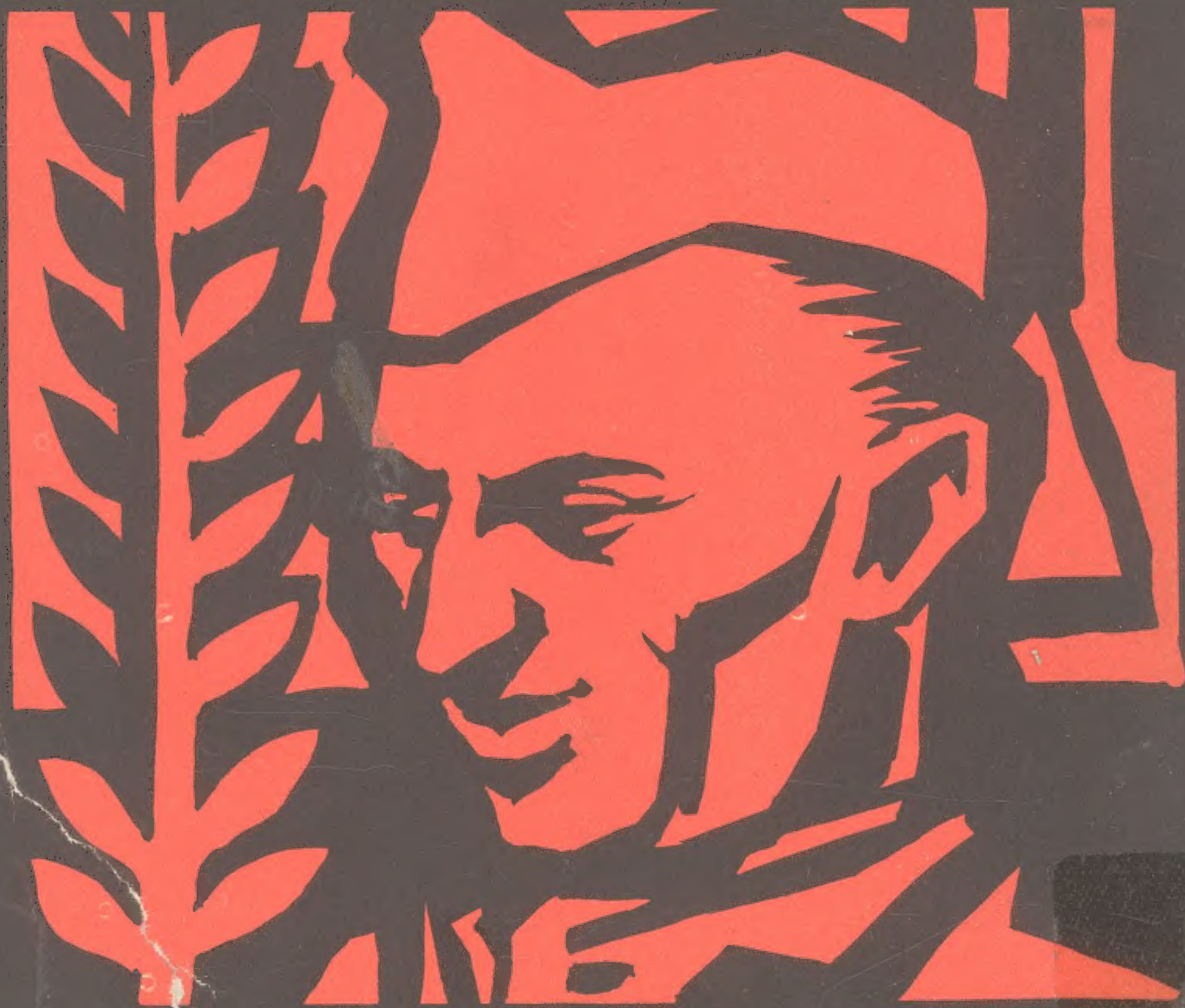




مكتبة الثقافة الشعبية

١



تأليف

هوالهلال نهر

ترجمة

الدكتور عبد العزيز عتيق

لحاث من تاريخ العالم

مختارات

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة /عبد الرزاق باشا السنهوري
القاهرة

مكتبة الثقافة الشعبية - ١

لحائ من تايخ العالم

مختارات



تأليف

جواهرلال نهرو

ترجمة

الدكتور عبد العزيز عيسى



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر

مكتبة الثقافة الشعبية

يسر دار المعارف أن تقدم للقارئ العربى هذه المجموعة الحديثة من نتاج الفكر وقد أطلقت عليها اسم « مكتبة الثقافة الشعبية » .

وقد يتساءل القارئ عما قصدنا اليه من هذه التسمية ، وهل كلمة « الشعبية » صفة للفظ الثقافة أو هى صفة للفظ المكتبة ؟ انها صفة للفظتين ، وسنحاول فى هذه العجالة أن نعرف ما هى الثقافة الشعبية وما هى المكتبة التى تتوخى نشر تلك الثقافة .

وضع الكتاب كلمة « الثقافة » ترجمة لكلمة culture الأجنبية واستوحوها على الأرجح من تثقيف الرمح ، أى اصلاحه وتقويمه ، وتجاوزوا بذلك أن يقصدوا بها العلوم والمعارف .

ولو أننا نظرنا فى الأصل اللاتينى المشتقة منه الكلمة الأجنبية وهو "Cultus" لرأينا أن بين معانيها المختلفة معنى الحضارة ، ومعنى معرفة الحضارات وهى الثقافة . فمن الخير أن نميز بين هذين المعنيين .

ان المقصود بكلمة الثقافة فى هذه المجموعة هو المعنى الثانى ، فالثقافة الشعبية اذن تعنى المعارف التى يجب أن يقف عليها الشعب فى مختلف الثقافات ، وتعنى كذلك الصلة التى توثق تلك المعارف بالحضارات ، فنرى لزاما علينا ، والحالة هذه ، أن نفسر ما عنيينا بلفظة « الحضارة » ولفظة « الشعب » .

تتصل الحضارة اتصالاً وثيقاً بمجموعة من الناس تؤلف أمة من الأمم ، وتؤلف كذلك مجموعة العادات المكتسبة ، والمبادئ التي انبثقت على ممر العصور ، فكان من ذلك صورة لروح الأمة ولطرق معاشها ولما حى تفكيرها وشعورها ، وهذا ما يجعل هذه المجموعة تنطرق الى النظريات الفلسفية والعلم والآداب والفن والديانات والعادات والأحوال الاجتماعية والرياضية البدنية ، والى كل ما يحيط بحياتنا اليومية .

وليست كلمة الشعب فى هذا المقام بمقصورة على طبقة معينة من الأمة تميزها عن باقى الطبقات ، فهى لا تميز الطبقة الأمية من الطبقة المتعلمة ، ولا الطبقة الفقيرة من الطبقة الغنية ، كما أنها لا تميز كذلك أصحاب الحرف اليدوية من أصحاب المهن الحرة ، فكلمة الشعب إنما هى مجموع الناس الذين تتألف منهم الأمة ، سواء فى ذلك الفقير والغنى والمتعلم وغير المتعلم . .

ومن هذا يتضح تمام الوضوح المعنى المقصود من كلمة « مكتبة الثقافة الشعبية » فهى مجموعة تخاطب جميع الناس وتعرض لمختلف الموضوعات .

واذا نحن قلنا أنها تخاطب جميع الناس فمعنى ذلك أنها يجب أن تكون فى متناول جميع الأذهان ولا تشق بسعرها على أحد .

فهذان المطلبان هما اللذان استوحيناها فى وضع برنامج هذه المجموعة وطريقة تنفيذه .

ومخاطبة جميع الأذهان معناها أن يفهمك جميع الناس وان تلبى رغبات كل منهم وعلى هذا فنحن نخاطب بهذه المجموعة السواد الأعظم

الذى يرغب فى تنمية ثقافته ومعارفه دون أن يتعمق فى دراسات طويلة ونخاطب بها الطالب الواقف على عتبة العلم والباحث عن معارف تفتح له السبيل الى المؤلفات المتخصصة الصعبة التى يجب أن يتطرق اليها ونخاطب بها كذلك المتعلم المثقف الذى سوف يجد فى هذه المجموعة وثائق أصيلة لأقلام كفية عن الحضارات الأجنبية .

ولعل كلمة وثائق أصدق الكلمات وصفا لهذه المجموعة على أننا لا نتوخمى بها أن تكون مكانا لدراسات معجمية موسوعية ولا أن نعالج فيها معالجة مدرسية كلا من التطور والحالة الراهنة للحضارات الانسانية فهدفنا انما الالمام بكل شئ ولهذا :

(١) ففى سبيل معرفة تلك الحضارات سنتجه الى أقلام انغمست بها ومجت خلاصتها وكانت فى رياضها ، فالصين مثلا سنعرفها عن طريق مؤلفين صينيين واسبانيا كذلك سنعرفها عن طريق الأقلام الأسبانية وهكذا دواليك . . . وسوف تتألف هذه المجموعة فى غالبيتها العظمى من كتب مترجمة وفى هذا دليل على أننا لن نؤثر ناحية معينة من نواحي التفكير ، وفيه أيضا تفسير لما قد يجده القارئ فيها من آراء ونظريات ومبادئ متعارضة وهدفنا من كل ذلك هو نشر الثقافة ، فالعلم لا وطن له كما يقولون .

(٢) لن نقتصر ما أمكن فى هذه المجموعة على نشر الكتب المبسطة فسوف نؤثر عليها مؤلفات كبار الكتاب أو مؤلفات رجال كان لشخصياتهم أثرها الفعال فى أوطانهم وفى مختلف الميادين بحيث أصبحوا خير من يمثل حضارات بلادهم فتطور الفكر السياسى فى الهند مثلا منذ مستهل القرن العشرين سوف تستقى من مؤلف يكون قد دبحه غاندى أو نهرو .

كذلك توخينا أن تكون هذه المجموعة فى متناول جميع الناس من

الناحية المالية وهذا ما حدانا الى أن نختار لها الاخراج الذى يلائم ذلك الهدف مظهرا وعدد صفحات .

فاضطررنا الى أن تكون باكورة المجموعة كتباً صغيرة ، وكنا كلما عرض لنا كتاب نفيس مفيد من الكتب الضخمة وقفنا حياله عاجزين ولما كنا قد أخذنا على عاتقنا أن نقوم بعمل علمى صرف لا يشوه آراء المؤلف وأفكاره اذا هي لخصت أو ضغطت ، رأينا فى مثل هذه الحال أن نكتفى من الكتاب الضخم ببعض فصول كاملة منه نترجمها ترجمة حرفية .

ولنا عظيم الأمل فى أن اقبال القراء على هذه المجموعة سيمكننا فى القريب العاجل من أن ننشر فيها الكتب المهمة مهما كان حجمها .

هذا ولما كانت الغاية القصوى من هذه المجموعة هي نشر الثقافة فلن نتردد كذلك فى أن ننشر فيها كتباً سبق أن ظهرت فى المكتبة العربية فى طباعات غالية الثمن .

والله ولى التوفيق .

دار المعارف بمصر

مقدمة المترجم

كتاب « لمحات من تاريخ العالم » ألفه باللغة الانجليزية زعيم الهند الكبير جواهر لال نهرو حينما كان سجيناً بسبب كفاحه من أجل حرية وطنه واستقلاله .

والكتاب فى صورة رسائل وجهها نهرو الى ابنته « أنديرا » ، ويبلغ عدد هذه الرسائل ١٩٦ رسالة ، وصفحاتها نحو ألف صفحة . وقد استغرق تأليفه نحو ثلاث سنوات : من أكتوبر ١٩٣٠ ، الى أغسطس ١٩٣٣ .

والفضل فى ظهور هذه الرسائل يرجع الى شقيقته « فيجايا لاکشمى بانديت » ، فهى التى رتبته وأعدتها للطبع عام ١٩٣٤ تحت اسم « لمحات من تاريخ العالم » .

وليست قيمة هذا الكتاب النفيس فى مضمونه أو المادة التاريخية التى يجدها القارئ بين دفتيه عن الأمم فى أدوارها التاريخية . فمن السهل أن يرجع القارئ الى مراجع تاريخ أى أمة كانت ، ويستخرج منها هذه الحقائق التاريخية أو أكثر منها .

إنما قيمته عندى فى الجهد الذى بذله المؤلف فى تحرى تاريخ الأمم من أوثق المصادر التى تهيأت له فى السجن ، ثم فى إبراز هذا التاريخ فى صورة موجزة شاملة لا يكاد ينقصها لون من الألوان المكملة للصورة .

وعلى سبيل المثال لقد خص نهرو مصر فى كتابه هذا بثلاث رسائل هى :

- ١ - احتلال بريطانيا لمصر .
- ٢ - مصر تكافح من أجل حريتها .
- ٣ - معنى الاستقلال تحت الحكم البريطانى .

فالقارىء المصرى لهذه الرسائل الثلاث يدرك مدى احاطة نهرو بتاريخ مصر ، ومدى فهمه وتتبعه لهذا التاريخ ، كأنما هو مصرى عاصر أحداث مصر ، وشارك فيها ، وسجلها تسجيلا أميناً دقيقاً .

فاذا أخذنا ماكتبه نهرو عن مصر مقياسا لكل ما كتبه عن سائر الأمم الاخرى عرفنا قيمة هذه اللوحات من حيث هى تاريخ .

ولهذه اللوحات التاريخية قيمة أخرى ترجع الى طريقة المعالجة التى استخدمها المؤلف . فعرض تاريخ الأمم فى صورة رسائل شخصية من شأنه أن يثبت فى الحقائق التاريخية روحا وحياة ، ويحيل التاريخ الى قصص شائقة فى صورة رسائل ، أو الى رسائل شائقة فى صورة قصص . ولا أعرف مؤرخا سبق نهرو الى مثل هذا النسق المبتكر فى عرض التاريخ وأحيائه .

وهناك قيمة ثالثة لهذا الكتاب تتجلى فى آراء نهرو وتعليقاته الخاصة على الأحداث التاريخية ، والتى لا تكاد تخلو رسالة منها . فهذه الآراء الصادرة عن شخصية انسانية عالمية كشخصية نهرو جديرة بأن يقف القارىء أمامها ويتدبر مراميها .

ومما يزيد من قيمة هذه الآراء المبعثرة فى ثنايا الرسائل انها لاتزال آراء سديدة صائبة ، على الرغم من مرور نحو ربع قرن على كتابتها ، وعلى الرغم مما طرأ خلال هذه الفترة من تقلبات وتطورات عالمية .

وهذا يدل بلا شك على ذكاء نهرو وتجربته ، وسعة أفقه ومدى علمه ، وعمق فكره ووضوحه ، وقوة منطقته ، وحسن فهمه للأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بمقدماتها ونتائجها .

وعلى الاجمال ان آراء نهرو فى اللوحات وموقفه الخاص من أحداث التاريخ وتقلبات الدول والحضارات ليدل ، فيما يدل ، على واقعية الرجل وانسانيته ، وصدق فراسته وأحكامه ، وعلى أنه مؤرخ سابق لعصره .

ويحدثنا كريشنا مينون فى مقدمته لهذا الكتاب عن نهرو فيقول :
« ان بانديت نهرو من الشخصيات النادرة فى الحياة العامة التى تجمع
بين النشاط الشديد الدائب ، وبين الالهام ، واستقلال الحكم » .
ويحدثنا عن كتابة نهرو فيقول : « تغلب على كتابة نهرو التجربة
والمعرفة ، والعمق والالمام الشامل » .

ثم يحدثنا أخيرا عن كتابه هذا فيقول : « ليس كتاب « لمحات من
تاريخ العالم » مجرد سرد لحوادث التاريخ . وانما هو أيضا انعكاس
لشخصية المؤلف ، وذكاؤه النادر ، وعقله اللامح ، مما يجعل التاريخ
عملا فذا فى ذاته . ويمتاز بالبساطة ووضوح الطريق ، ومعالجته خالية
من السطحية . وهو يظهر مؤلفه كمؤرخ كبير عرض لنا التاريخ
وفسره تفسيراً صحيحاً فى صدق وبعد نظر » .

وبعد ، فالكتاب الذى أقدمه اليوم للقراء هو مختارات من كتاب
« لمحات من تاريخ العالم » . وأود أن أنبه الى أن بالكتاب رسائل
كثيرة عن مصر والعالم العربى ، وهذه لم أحاول ترجمتها ، لأن
مضمونها التاريخى معروف لكل قارئ عربى .

وانما ركزت اختياري على رسائل خاصة لما تفتحه من آفاق ،
وتلقيه من أضواء على جوانب هامة من التاريخ جدير بالقارئ العربى
أن يراها ويتبينها . ويلم بأراء نهرو فيها .

وقد وضعت أمام عنوان كل رسالة رقمها فى الأصل الانجليزى
تسهيلاً لمن شاء أن يرجع الى الرسالة فى الأصل . كذلك يجد القارئ
فى آخر الكتاب خمس خرائط متصلة ببعض الرسائل المختارة هنا ،
ووردت فى الأصل الانجليزى .

وعسى أن يجد القارئ فى هذه الرسائل المختارة من المتعة الروحية
والعقلية مثل ما وجدت أنا فى قراءتها وفى ترجمتها .

مقدمة المؤلف

لا أعرف متى وأين تنشر هذه الرسائل ، بل لا أعرف مطلقا ان كان سيقدر لها أن تنشر . فالهند اليوم قطر غريب ، ومن الصعب أن يتنبأ المرء . ولكنى أنتهز هذه الفرصة السانحة فأكتب هذه الأسطر قبل أن تستبد بي الحوادث .

وبالتسبب لهذه الرسائل التاريخية أرانى بحاجة الى ايضاح واعتذار . وربما وجد القارئ الايضاح والاعتذار فى ثنايا الرسائل ، وبخاصة الرسالة الأخيرة .

فقلما كان لدى فى البدء خطة بشأن هذه الرسائل ، وما كان يدور بخاطرى أنها ستكبر وتتضخم الى هذا الحد .

فمنذ ست سنوات تقريبا . عندما كانت ابنتى فى العاشرة من عمرها ، كتبت لها عددا من الرسائل تضمنت وصفا موجزا بسيطا عن العالم القديم .

وقد نشرت هذه الرسائل فى كتاب مستقل ، واستقبلها القراء استقبالا كريما . ثم قامت بنفسى فكرة الاستمرار فى كتابة هذه الرسائل .

ولكن حياتى الحافلة بالنشاط السياسى ، ظلت تحول دون ظهور هذه الفكرة الى حيز الوجود ، حتى هيا إلى السجن الفرصة فانتهزتها .

وحياة السجن لها مزاياها • فهي تمد السجن بوقت الفراغ ،
وبدرجة من العزلة والانقطاع عن العالم الخارجى •

ولكن للسجن عيوبه الواضحة أيضا • • فليس فيه مكتبات ،
ولا يستطيع أن يجد فيه السجن الذى يريد أن يتوفر على عمل علمى
ما يشاء من كتب المراجع العلمية •

لقد وصلت الى بعض الكتب فى السجن ، ولكن هذه ما كان يمكن
الاحتفاظ بها طويلا •

ومنذ اثنتى عشرة سنة بدأ يزج بى فى السجن مع كثيرين غيرى من
المواطنين والمواطنات • وما كنت أخرج من السجن الا لأعود اليه •

وقد اعتدت خلال هذه السنوات أن أدون ملاحظات عن الكتب
التي كنت أقرأها • وعلى مر الأيام والسنين كثرت كراسات
ملاحظاتي ، وهذه أسعفتنى عندما شرعت فى الكتابة •

ولم أقتصر طبعاً فيما كتبت على كراسات ملاحظاتي ، وإنما
استعنت بكتب أخرى كثيرة مثل كتاب « مجمل التاريخ » للكاتب
ه • ج • ويلز •

ولكن الحاجة الى كتب المراجع القيمة كانت حقيقة واقعة ، ولهذا
فكثيراً ما كان عرضى للتاريخ غامضاً ، كما كان تعرضى لبعض فترات
تاريخية خاصة تعرضاً سريعاً خاطفاً •

وهذه الرسائل هى رسائل شخصية ، تشيع فيها اشارات خاصة
عنيت بها ابنتى فقط • ولست أدري ماذا أفعل مع هذه الاشارات ،
ومحاولة حذفها بدون جهد كبير ليس أمراً سهلاً ؟

ان حياة السكون وعدم العمل والحركة الجثمانية من شأنها أن تؤدى بالمرء الى التمعن فى أطواء النفس والعقل ، والى مشاعر وأحاسيس متغيرة ، وهذه المشاعر والأحاسيس المتغيرة واضحة فى ثنايا هذه الرسائل . وفى الوقت نفسه ان طريقة المعالجة التى استخدمتها ليست هى الطريقة الموضوعية الجديرة بالمؤرخ .

ولست أزعم أنى مؤرخ ، فهذه الرسائل يشيع فيها مزيج من الكتابة التى لا تصلح لغير الشباب ، ومن مناقشة لأفكار الكبار أحيانا ، ومن تكرار فى كثير من المواضع ، ومن نبذ غير عميقة انتظم بعضها الى بعض بخيط رفيع . وعلى الاجمال ان ما فى الرسائل من قصور وأخطاء أكثر من أن يحصى .

لقد استعرت حقائق وأفكارى التاريخية من كتب غريبة ، ولهذا فمن المحتمل أن يكون قد تسرب بعض ما فى هذه الكتب من أخطاء الى الرسائل .

وكان فى نيتى أن يتولى تنقيح هذه الرسائل عنى مؤرخ فدير ، ولكنى لم أتمكن من تحقيق ذلك خلال الفترات القصيرة التى كنت فيها خارج السجن

وكثيرا ما عبرت عن آرائى فى هذه الرسائل بطريقة أقرب الى الهجوم ، ومع ذلك فأنا لا أزال أتمسك بهذه الآراء . ولكن نظرتى للتاريخ قد تغيرت تدريجيا حتى أثناء كتابة هذه الرسائل .

واذا قدر لى اليوم أن أعيد كتابة هذه الأفكار فانى قد أكتبها كتابة مختلفة ، أو مع تأكيد مختلف . ولكنى لا أستطيع أن أمزق ما كتبت ، وأعيد كتابته من جديد .

٤ — آسيا وأوروبا



٨ يناير سنة ١٩٣١

كل شيء يتغير تغيرا مستمرا • وهل التاريخ فى حقيقته الا سجل للتغير ؟ ولو كانت التغيرات التى حدثت فى الماضى قليلة جدا ، لكان ما دون من التاريخ لا يعدو نورا ضئيلا •

والتاريخ الذى نتعلمه عادة فى المدارس والجامعات ليس بالقدر الكافى • وأنا لا أعرف كثيرا جدا عما تعلمه الآخرون ، أما عن نفسى فأعرف أنى تعلمت قليلا فى المدرسة •

لقد تعلمت قليلا ••• قليلا جدا من تاريخ الهند وتاريخ انجلترا • وحتى تاريخ الهند الذى تعلمته كان الى حد كبير مغلوطا ومشوها ومكتوبا بأقلام رجال نظروا الى وطننا نظرة احتقار وازدراء •

هذا مبلغ علمى بتاريخ وطننا ، أما عن تاريخ الأمم الأخرى فليس لدى عنه صورة واضحة • ولم يتح لى أن أقرأ بعض التاريخ الحقيقى الا بعد أن غادرت الجامعة • ولحسن الحظ ان دخولى السجن المرة بعد المرة قد أعطانى فرصة للاستزادة من المعرفة •

لقد كتبت اليك فى بعض رسائل السابقة عن حضارة الهند

القديمة ، عن الدرافيدين ومجىء الآريين • وإذا كنت لم أكتب اليك كثيرا عن العصور التي سبقت عصر الدرافيدين فذلك لأبني لا أعرف الكثير عن هذه العصور • ولكن سيشوقك أن تعرفي أن آثار حضارة قديمة في الهند قد اكتشفت خلال السنوات القليلة الماضية •

هذه الآثار قد اكتشفت في شمالي غرب الهند بالقرب من مكان يسمى « موهين جودارو » • لقد نقب علماء الآثار عن هذه الآثار التي يرجع تاريخها الى خمسة آلاف سنة ، وقد عثروا أثناء تنقيبهم على موميات أشبه بموميات مصر القديمة • تخيلي ! كل هذا كان منذ آلاف السنين وقبل مجىء الآريين الى الهند بزمان طويل • لابد أن أوروبا كانت وقتذاك غابات وكهوبا •

ولكن أوروبا اليوم قوية ، وأهلها يعتبرون أنفسهم أكثر شعوب الأرض مدنية وثقافة • وهم ينظرون الى آسيا وأهلها نظرة احتقار • وهم اذ يأتون اليها فانما ليخطفوا كل ما يستطيعون الاستيلاء عليه من الشعوب الآسيوية ، فما أعجب ما تغيرت الأيام والأحوال !

والآن دعينا ننظر نظرة فاحصة الى أوروبا وآسيا • ولتحقق ذلك افتحي أى أطلس وانظري الى قارة أوروبا الصغيرة الملتحمة بالقارة الآسيوية الكبيرة ، وكأنها امتداد قليل لها •

وإذا طالعت التاريخ فسوف تجدين أن آسيا كانت سائدة متغلبة خلال عصور طويلة ، وأن أهلها رحلوا الى أوروبا أفواجا اثر أفواج وقهروها • فالآريون ، والسيثيون ، وقبائل الهون ، والعرب ، والمغول ، والأتراك ، رحلوا كلهم من أماكن مختلفة في آسيا وانتشروا في آسيا وأوروبا • ويبدو أن آسيا كانت تنسل هؤلاء الناس وتلد لهم في كثرة هائلة كأرجال الجراد • وفي الحقيقة ظلت أوروبا طويلا

كمستعمرة لآسيا ، وكثيرون من أبناء أوروبا الحديثة يرجعون فى أصلهم الى أولئك الغزاة الآسيويين .

وآسيا تمتد على الخريطة كعملاق ضخيم كبير . وأوروبا تبدو بجانبها ضئيلة . ولكن هذا لا يعنى ، بطبيعة الحال ، أن أهمية آسيا ترجع الى حجمها ، أو أن أوروبا أقل أهمية وشأنا منها . فالحجم هو آخر مقياس تقاس به عظمة أى رجل أو أى قطر .

ونحن نعرف جيدا أن أوروبا اليوم عظيمة وان كانت أصغر القارات . كذلك نعرف أن كثيرا من أقطارها تمتعت بفترات مشرقة من التاريخ، وأنجبت علماء استطاعوا بفضل اكتشافاتهم واختراعاتهم أن يخطوا بالحضارة الانسانية خطوات فساحا ، وأن ييسروا الحياة ويسهلوها لملايين البشر . ولم تنجب هذه الاقطار علماء فقط وانما أنجبت أيضا كتابا ومفكرين وفنانين وموسيقين وقادة . ولهذا يكون من حماقة الا نعترف بعظمة أوروبا .

ومن حماقة أيضا أن ننسى عظمة آسيا . ولاحتمال أن نخدع قليلا بتألق أوروبا وننسى الماضى ، دعينا نذكر أن آسيا أنجبت قادة الفكر الذين أثروا فى العالم أكثر من أى شخص وأى شىء فى أى مكان آخر . هؤلاء القادة هم المؤسسون الكبار للاديان الرئيسية . فالهندوكية التى تعتبر أقدم الديانات الكبرى الموجودة حتى اليوم ولدت فى الهند . ومثلها أيضا البوذية التى هى صنو الهندوكية والتى تنتشر فى الصين واليابان وبورما والتبت وسيلان . واليهودية والمسيحية ديانتان آسيويتان مهدهما فلسطين على شاطئى آسيا الغربى . والزارادشتية ديانة الفرس بدأت فى ايران . ومحمد نبي الاسلام — كما تعرفين — ولد بمكة فى شبه جزيرة العرب . وانك لتستطيعين أن تملئى صفحات بأسماء كبار مفكرى آسيا من أمثال

كريشنا وبوذا ، وزارادشت والمسيح عيسى ومحمد ، وكنفشيوس ولوتسى فيلسوفى الصين الكبيرين • وتستطيعين أيضا أن تملئى صفحات بأسماء القادة والزعماء والقواد• وأستطيع أن أريك بوسائل شتى مقدار عظمة وحيوية قارتنا القديمة فى العصور الغابرة •

فما أشد ما تغيرت العصور وتقلبت الأحوال ! ولكنها تتغير ثانية حتى أمام أعيننا • فالتاريخ يعمل عادة ببطء خلال الأجيال والعصور وان كانت هناك فترات اندفاعات وانفجارات •

ومهما يكن من أمر فالتاريخ اليوم يتحرك بسرعة فى آسيا، والقارة القديمة قد بدأت تستيقظ بعد نعاسها الطويل • ان أعين العالم تتطلع اليها الآن لأن كل شخص يعزف أن آسيا سوف تلعب دورا كبيرا فى المستقبل •

٨ — امبراطوريات فى غرب آسيا

١٣ يناير سنة ١٩٣١

لقد أسعدنى أن أراكم جميعا أمس • ولكنى صدمت عند ما رأيت
جداك هزيلا مريضا • ورجائى أن تعنى به عناية تامة حتى
يستعيد صحته وقوته مرة أخرى •

وأمس لم أستطع أثناء زيارتكم أن أتحدث اليك ، وماذا يستطيع
انسان أن يفعل فى زيارة قصيرة كهذه ؟

على أنى سأحاول أن أعوض كل الزيارات والأحاديث التى نتمناها
ولم تتحقق بكتابة هذه الرسائل اليك • ولكن هيهات أن تكون هذه
الرسائل عوضا أو بديلا عن اجتماعاتنا وأحاديثنا ، فالتصنع أو
خداع النفس لا يستمر طويلا ، وإن كان نافعا أحيانا !

والآن دعينا نعود الى القدماء • لقد وقفنا فى أحاديثنا منذ عهد
قريب عند قدماء الاغريق • فماذا كانت حقيقة الاقطار الأخرى التى
تعاصر الاغريق القدماء ؟

لسنا فى حاجة الى أن نشق على أنفسنا كثيرا بالحديث عن أقطار
أوروبا الأخرى • فنحن لا نعرف أو ، على الأقل ، أنا لا أعرف شيئا
إذا بال عن هذه الاقطار •

فمن المحتمل أن مناخ أوربا الشمالية قد تغير ، وأن أحوالا جديدة قد تولدت عن هذا التغير . ولعلك تذكرين أن مناخ أوربا الشمالية وآسيا الشمالية كان باردا جدا في العصر الجليدي الذي امتدت فيه أنهار الجليد الضخمة الى أوربا الوسطى . ومن المحتمل أن الانسان لم يوجد في ذاك العصر ، ولو افترضنا وجوده فيه فلا بد أنه كان أقرب الى الحيوان منه الى الانسان .

وقد تسألين في عجب كيف نستطيع الآن أن نقول انه كان هناك أنهار من الجليد في تلك الأيام . لا يمكن بطبيعة الحال أن يكون هناك سجل بذلك في الكتب ، اذ لم يكن في العصر الجليدي كتب ولا مؤلفو كتب . ولكنى أرجو أنك لم تنسى بعد كتاب الطبيعة . فللطبيعة طريقته الخاصة في كتابة تاريخها على صخورها وأحجارها . ومن الممكن لكل طالب أن يقرأ تاريخها حيث دونته ، فهو أشبه بترجمة الانسان لحياة نفسه . ولأنهار الجليد طريقة تترك بها علامات خاصة تدل على وجودها . وقلما تخطئين هذه العلامات بعد تبينها لأول مرة .

فاذا أردت دراسة هذه العلامات فما عليك الا أن تذهبي الى أحد أنهارنا الجليدية في جبال الهملايا أو جبال الألب أو أى جبال أخرى . لقد رأيت بنفسك أنهار الجليد حول « مون بلان » في جبال الألب ، ولكن من المحتمل أن أحدا لم يلفت نظرك وقتذاك الى هذه العلامات الخاصة .

وهناك عدد كبير من أنهار الجليد هذه في كشمير وفي أجزاء أخرى من جبال الهملايا ، وأقربها اليينا نهر بندارى الجليدي الذي على مسيرة أسبوع من المورا . لقد زرت هذا المكان مرة وأنا في سن أصغر من سنك الآن ، ولا تزال صورته حتى اليوم عالقة بذهني .

وبدل الحديث عن التاريخ والماضي أرى التيار قد جرفني للحديث:

عن أنهار الجليد وبندارى ، ومبعث ذلك هو الاسترسال فى لعبة خداع النفس ! فأنا أريد - اذا أمكن - أن أتحدث اليك كما لو كنت هنا معى . فاذا أمكن هذا كان علينا حقا أن نقوم من وقت الى آخر برحلات قصيرة الى أنهار الجليد وما أشبهها .

ان الحديث قد تطرق بنا الى أنهار الجليد بسبب اشارتى الى العصر الجليدى . ومن الممكن القول بأن هذه الأنهار قد امتدت الى أوروبا الوسطى وانجلترا ، لأننا ما زلنا نستطيع أن نجد فى هذه الأقطار العلامات الخاصة التى تتسم بها أنهار الجليد .

وهذه العلامات توجد على الصخور القديمة ، وهذا من شأنه أن يجعلنا نظن بأن المناخ لا بد أنه كان وقتئذ باردا جدا فى أوروبا الوسطى وأوروبا الشمالية . ثم صار المناخ فيما بعد أدفأ ، وتبعنا لذلك تقلصت وانكشفت أنهار الجليد تدريجيا .

ويحدثنا الجيولوجيون أو علماء تاريخ طبقات الأرض أن موجة البرد هذه تلتها موجة دفء أدفأ مما هى عليه الآن فى أوروبا ، ونتيجة لهذا الدفء نمت غابات كثيفة فى أوروبا .

وقد وصل الآريون فى جولانهم وارتحالهم الى أوروبا الوسطى أيضا ، ولما كانوا لم يخلقوا هناك شيئا يستحق الذكر فى هذه الفترة فاننا نستطيع مؤقتا أن نغفلهم ونسقطهم من حسابنا . وربما نظر المتمدنون من الاغريق وأبناء البحر الأبيض المتوسط الى سكان أوروبا الوسطى وأوروبا الشمالية على أنهم برابرة . ولكن هؤلاء « البرابرة » كانوا يحيون فى غاباتهم وقراهم حياة أقرب الى الحرب منها الى السلم ، ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يعدون أنفسهم لليوم الذى ينقضون فيه ببطء على حكومات شعوب الجنوب الأكثر تمدنا .

وقد حدث هذا بعد ذاك بوقت طويل ، ومن ثم فلسنا فى حاجة الى
تعجل الحوادث •

واذا جاز أننا نعرف قليلا عن أوروبا الشمالية فإننا لا نعرف شيئا
مطلقا عن قارات وأصقاع كبيرة • فأمريكا يرجع فضل اكتشافها الى
كولومبوس ، ولكن ذلك لا يعنى أنه لم يعيش فيها قوم متمدون قبل
أن يذهب كولومبوس اليها • ومهما يكن من أمر فإننا لا نعرف أى
شئ عن أمريكا فى تلك العصور القديمة التى نتحدث عنها ، كما
لا نعرف أى شئ أيضا عن قارة أفريقية ، هذا اذا استثنينا شاطئها
المطل على البحر الأبيض المتوسط ، واذا استثنينا مصر ومن المحتمل
أن حضارة مصر القديمة العريقة كانت آنئذ فى طريقها الى الزوال ،
ولكن على الرغم من ذلك فإنها كانت فى هذه الفترة من الزمن أمة
متقدمة جدا •

والآن دعينا ننتقل الى قارة آسيا ونرى حالتها فى الفترة التى
نتحدث عنها • وفى آسيا — كما تعرفين — كان هناك ثلاثة مراكز
للحضارة القديمة ، هى الهند ، والصين ، وما بين النهرين •

أما عن حضارة ما بين النهرين — دجلة والفرات — وفارس وآسيا
الصغرى فى هذه العصور القديمة فتتمثل فى امبراطوريات متعاقبة،
فامبراطورية تزول وتفسح الطريق لأخرى جديدة تقوم على انقاضها،
فهناك كانت الامبراطورية الآشورية ، والامبراطورية الميديّة ،
والامبراطورية البابلية ، وأخيرا الامبراطورية الفارسية •

ولسنا فى حاجة الى أن نفصل كيف حاربت هذه الامبراطوريات
بعضها بعضا ، أو كيف عاشت جنبا الى جنب فى سلام لمدة ما ، أو
كيف قضى بعضها على البعض الآخر •

ولاشك أنك تلاحظين الفرق بين دول المدن الاغريقية وامبراطوريات
غرب آسيا • ويبدو أنه كان هناك منذ العصور الأولى رغبة قوية في
تكوين دولة كبرى أو امبراطورية في هذه الاقطار • وقد تعزى هذه
الرغبة الى ما كانوا عليه من حضارة قديمة أو الى أسباب أخرى •

وهناك اسم واحد قد يهملك ، ذلك هو اسم « كروسوس »
— قارون — الذى لابد أنك سمعت به • فصاحب هذا الاسم يضرب به
المثل في اللغة الانجليزية على كثرة الغنى وسعة الثراء • وربما تكونين
قد قرأت قصصا عن كروسوس هذا تبين مدى غناه وابائه في موضع
الاباء وتواضعه في موضع التواضع •

لقد كان كروسوس ملك « ليديا » على شاطئ آسيا الغربى حيث
آسيا الصغرى الآن • ولا بد أن حركة التجارة في بلاده كانت
نشيطه رائجة لتأخماتها لشاطئ البحر الأبيض •

وفي عصر هذا الملك كانت الامبراطورية الفارسية في عهد
« قورش » آخذة في النمو والقوة • وقد نشبت الحرب بين كروسوس
وقورش وهزم قورش كروسوس • وقد روى لنا هيرودوت المؤرخ
الاغريقى قصة هذه الهزيمة وكيف أن الحكمة والعقل لم يتخليا عن
كروسوس الأبى في أوقات محنته وبؤسه •

وقد كون « قورش » امبراطورية كبيرة من المحتمل أنها امتدت الى
الهند شرقا ، ولكن أحد خلفائه « دارا » كون امبراطورية أكبر ضمت
مصر وبعض آسيا الصغرى وجزءا صغيرا من الهند بالقرب من نهر
السند • ويقال ان كمية كبيرة من تبر الذهب كانت ترسل اليه
كجزية من هذه المقاطعة الهندية التابعة له • ولا بد أنه كان يوجد
في ذاك العصر كميات من تبر الذهب على مقربة من نهر السند • أما

اليوم فلا يوجد شيء منه هناك ، واستحال معظم الأرض التي كان يستخرج منها هذا المعدن الى صحراء ، وهذا أمر يدل على احتمال تغير المناخ .

ولما كنت ستقرئين التاريخ وتفكرين فى أحوال الماضى وتقارنينها بأحوال الحاضر فان ما سيسترعى اهتمامك أكثر من غيره هو التغير الذى حدث فى آسيا الوسطى ، فمن هذا المكان نسلت قبائل لا تعد ولا تحصى ، ارتحل منها من ارتحلوا وانتشروا فى قارات بعيدة . وفى هذا المكان نشأت فى الماضى مدن كبيرة قوية غنية . مدن يمكن مقارنتها من حيث تعداد سكانها بعواصم أوروبا الكبرى اليوم ، وكانت من حيث مساحتها أكبر من مدن مثل كلكتا وبومباى فى وقتنا الحاضر .

وكانت هذه المدن تتمتع بالحدائق وبالخضرة تطيف بها من كل مكان ، وكان مناخها طيبا معتدلا . فلا هو بالحر جدا ولا البارد جدا .

هكذا كانت آسيا الوسطى فى تلك العصور . أما اليوم ولمئات من السنين خلت فهى أرض قاحلة عقيم تكاد تكون صحراء ، وبعض مدنها الكبيرة التى ازدهرت فى الماضى لا تزال قائمة مثل مدينة سمرقند ومدينة بخارى مما يحيى مجرد ذكر اسمائها فى أذهاننا أيضا زائرا من الذكريات . ولكن ما بقى منها الى اليوم لا يعدو أشباح المدن التى كانت حينها حية نابضة بكل مظاهر الحياة .

وبعد فمرة أخرى أشعر بأننى أتعجل حوادث التاريخ . فنحن فى هذه المرحلة نستقرئ صحائف التاريخ القديم حيث لم تكن سمرقند ولا بخارى قد ظهرتنا الى عالم الوجود ، فتاريخ عصرهما لم يكن حين دراستنا له بعد . ان نقاب المستقبل قد حجبته وأخفاه ، ولا يزال أمامنا أشواط فى دراسة تاريخ حضارة آسيا الوسطى من حيث عظمتها وانحلالها وزوالها .

١٧ — فاتح عظيم ولكنه شاب مغرور

٢٤ يناير سنة ١٩٣١

فى رسالتى الأخيرة ، وفى بعض الرسائل السابقة ، أشرت بعض
إشارات الى الاسكندر الأكبر . وأظن أنى قلت فى احدى هذه الاشارات
انه اغريقى .

ذلك القول لا يدنو تماما من الصواب ، لأن الاسكندر فى الحقيقة
مقدونى الأصل ، أى أنه ينتسب الى بلاد مقدونيا التى تقع فى شمال
اليونان .

والمقدونيون يشبهون الاغريق من أوجه كثيرة ، ويمكنك أن تسميهم
أبناء عمومتهم أو خثولتهم .

وكان فيليب أبو الاسكندر ملك مقدونيا ، ملكا قديرا ، استطاع
أن يجعل من مملكته الصغيرة مملكة قوية ، وأن ينشئ جيشا ذا كفاية .

والاسكندر يسمى بـ « الأكبر » وله شهرة عالية جدا فى التاريخ
ولكن الفضل فى معظم ما نجح فيه من فتوحات وانتصارات ، انما يرجع
الى مجهود أبيه فيليب من قبله .

وعظمة الاسكندر ، أو عدم عظمته ، هى فى الحقيقة أمر مشكوك فيه .

واذا قسسته بمقياسى للبطولة فهو بالتأكيد ليس بطلا من أبطالى .
ولكنه استطاع فى زمن قصير أن يطبع اسمه على قارتين ، كما أنه فى
التاريخ يعتبر أول الفاتحين للعالم ، ولا يزال يذكر بعيدا فى قلب
آسيا الوسطى باسم « اسكندر » . ومهما يكن من أمره فقد نجح
التاريخ فى أن يلقى على اسمه لآلاء وبريقا . وقد سميت عشرات المدن
باسمه ، وكثير منها لا يزال موجودا الى اليوم ، وأكبرها مدينة
الاسكندرية فى مصر .

وعندما تولى الاسكندر الملك كان يبلغ من العمر عشرين سنة .
وكشباب يملؤه الطموح الى تحقيق العظمة ، كان تواقا الى أن يزحف
بالجيش القوى الذى أنشأه له والده الى الفرس عدو بلاده القديم .

أما الاغريق فلم يحبوا فيليب ، ولا ابنه الاسكندر ، ولكنهم كانوا
يخشون قوتهم ، ومن ثم فقد اعترفوا بكليهما واحدا بعد الآخر قائدا
عاما لكل القوات الاغريقية التى كانت تعد لغزو الفرس . وهكذا أظهروا
الولاء والطاعة للقوة الجديدة التى كانت فى طريقها الى الظهور .

وقد ثارت ضد الاسكندر مدينة اغريقية واحدة هى مدينة « طيبة »
ولكنه ضربها ضربة قاضية بفضاعة وقسوة شنيعتين . لقد خرب هذه
المدينة العظيمة ، وهدم مبانيها ، وقتل كثيرا من رجالها ونسائها
وأطفالها ، وباع آلافا من أهلها عبيدا . وبهذا العمل البربرى أدخل
الرعب والفرع على قلوب الاغريق . ولكن هذا وأمثاله من أعمال
البربرية التى تخللت حياته لا تنال اعجابنا ، وانما تثير فينا التقزز
والاشمئزاز .

لقد هزم الاسكندر دارا الثالث ملك الفرس وخليفة « أردشير »
Xerxes ، ثم فتح مصر التى كانت وقتئذ تحت حكم الفرس . ثم

زحف الاسكندر ثانية نحو الفرس وهزم دارا الثالث الذى كان يسمى بـ « ملك الملوك » وهدم قصره انتقاما لحرق أردشير لمدينة أثينا .

وهناك فى اللغة الفارسية كتاب قديم فى تاريخ ملوك الفرس اسمه « الشهنامة » كتبه منذ ألف سنة الفردوسى الشاعر الفارسى . وهذا الكتاب يصف فى صور خلاصة جدا المعارك الحربية التى نشبت بين الاسكندر ودارا . فهو يحدثنا أن دارا ، عندما هزم ، طلب المساعدة من الهند ، وذلك بأن « أرسل رجلا على جمل فى سرعة الريح » الى « فور » أو « بوروس » الذى كان ملكا على شمال غرب الهند ، ولكن بوروس لم يستطع مساعدته مطلقا ، لأنه هو نفسه كان متوقفا غزو الاسكندر له من وقت الى آخر . ومما يهم أننا نجد فى شهنامة الفردوسى اشارات عديدة الى أن ملوك الفرس ونبلاءها كانوا يستعملون الخناجر والسيوف الهندية . وهذا يدل على أن الهند كانت حتى فى عصر الاسكندر تصنع من الفولاذ سسيوفا ممتازة يرحب بها فى البلاد الأجنبية .

ومن بلاد الفرس ، أخذ الاسكندر يجول ويتنقل بجيشه مارا بـ « هرات » Herat وكابل وسمرقند حتى بلغ وديان نهر السند العليا ، حيث قابل أول حاكم هندي قاومه . ويطلق مؤرخو الاغريق فى لغتهم اليونانية على هذا الحاكم الهندي اسم « بوروس » Porus ولا بد أن اسمه الحقيقى كان شبيها بهذا الاسم ولكننا لانعرفه .

ويقال ان بوروس قاتل قتالا باسلا مستميتا لدرجة أنه لم يكن من السهل على الاسكندر أن يتغلب عليه . ويقال ان بوروس كان بطلا شهما مديد القامة جدا ، وان الاسكندر أعجب غاية الاعجاب بشجاعته وشهامته ، حتى لقد تركه بعد أن هزمه حاكما على مملكته . ولكنه أصبح ، بعد أن كان الملك بوروس ، حاكما من حكام الاغريق .

لقد دخل الاسكندر الهند عن طريق ممر خيبر فى شمال غرب الهند ، فمدينة تاكسيلا Taxila ، شمالى «روالبندى» Rawalpindi . ويمكنك أن ترى آثار هذه المدينة القديمة وأطلالها الباقية حتى اليوم .

ويبدو أن الاسكندر قد فكر ، بعد أن هزم الملك بوروس ، فى التقدم الى الجنوب نحو نهر الكنج Ganges ولكنه لم يفعل ذلك وعاد عن طريق وادى نهر السند .

وانه لأمر ذو بال أن نفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو أن الاسكندر تابع زحفه وتقدمه الى قلب الهندستان . أكان يمكن أن يستمر منتصرا ؟ أم كانت الجيوش الهندية تغلبت عليه ؟ ان ملكا على الحدود مثل بوروس قد سبب له عند اصطدامه به متاعب جمة ، ولهذا فقد كان من الممكن للممالك الكبرى فى الهند الوسطى أن تصمد بما لديها من قوة غزو الاسكندر وتقف تقدمه وزحفه .

ولكن مهما يكن من أمر رغبة الاسكندر أو عدم رغبته فى متابعة الزحف ، فان جنوده قد قرروا نيابة عنه فيما بينهم ما يجب أن يكون . لقد أتعبتهم وأنهكتهم سنوات طوال من الحرب والقتال والانتقال من مكان الى مكان . وربما أثر فيهم ما شاهدوه من صفات القتال العالية لدى الجنود الهنود فلم يرغبوا فى أن يجازفوا بالاشتباك معهم خشية الهزيمة .

ومهما يكن السبب فان الجيش أصر على العودة ولم يملك الاسكندر ازاء هذا الاصرار الا أن يوافقهم ويرضخ لمشيئتهم . ولم تكن رحلة العودة رحلة سهلة ، بل على العكس كانت كارثة قاسى فيها الجيش ما قاسى من قلة الزاد والماء . ولم يمهل القدر الاسكندر طويلا بعد ذلك فمات عام ٣٢٣ قبل الميلاد فى بابل Babylon على نهز الفرات .

وهكذا لم يقدر له ثانية أن يرى مقدونيا وطنه بعد أن خرج منها الى
الحرب الفارسية •

وقد مات الاسكندر في الثالثة والثلاثين من عمره ، فماذا فعل هذا
الرجل « العظيم » خلال حكمه القصير ؟ لقد كسب بعض المعارك الحربية
العجيبة ، وكان بلا شك قائدا محنكا ، ولكنه كان في الوقت ذاته
مغرورا معجبا بنفسه ، وأحيانا كان قاسي القلب عنيفا • وقد بلغ به
غرور النفس أنه كاد أن يعتبر نفسه الها ! وفي نوبات الغضب أو
نزوات الخبال العابرة قتل بعض خيرة أصدقائه ودمر مدنا كبيرة بمن
فيها وما فيها • انه لم يخلف وراءه في امبراطوريته أثرا باقيا حتى
الطرق التي بناها • لقد تلاحا ثم خبا كسهاب في السماء ، ولم يترك
بعده شيئا من نفسه الا ذكرى •

وبعد موته نشب الصراع والتنافس بين أعضاء أسرته وقاتلوا بعضهم
بعضا ، وتمزقت امبراطوريته الشاسعة الاطراف اربا اربا •

والاسكندر يسمى فاتح العالم ، ويقال انه جلس ذات مرة وبكى
لأنه لم تكن هناك أقطار أخرى باقية ليفتحها ! ولكن الهندسالا بعض
شمالها الغربي - كانت لا تزال أمامه لم يقهرها ولم يفتحها ، والصين
كانت وقتئذ دولة كبيرة فلم يتجه اليها الاسكندر أو يقترب منها •

وبموته تقاسم قواده امبراطوريته، فوَقعت مصر من نصيب بطليموس
الذي أقام فيها حكومة قوية وأسس فيها دولة البطالسة ، وفي عهد هذه
الحكومة التي اتخذت من الاسكندرية عاصمة لها كانت مصر قوية ،
وأصبحت الاسكندرية مدينة كبيرة تتمتع بمركز شهير في العلم
والفلسفة والثقافة •

أما الفرس وما بين النهرين (دجلة والفرات) وجزء من آسيا الصغرى فكانت من نصيب قائد آخر يسمى « سيلوكس » Seleucus . وكان من نصيبه أيضا الجزء الذي فتحه الاسكندر من شمال غرب الهند . ولكنه لم يستطع أن يستبقى أى جزء من الهند، وطردت الحامية الاغريقية من هناك عقب وفاة الاسكندر .

لقد كان مجيء الاسكندر الى الهند فى عام ٣٢٦ قبل الميلاد ، ولم يكن مجيئه هذا الا غارة لم تترك أى أثر فى الهند . ويظن البعض أن هذه الغارة قد ساعدت على ابتداء اختلاط الهنود بالاغريق . ولكن الاتصال فى واقع الأمر ، بين الشرق والغرب كان موجودا حتى قبل عصر الاسكندر . وكانت الهند على اتصال دائم بفرس وباليونان أيضا . ولا بد أن هذا الاتصال قد زاد بطبيعة الحال بسبب زيارة الاسكندر ، ولا بد أن الثقافتين الهندية والاغريقية قد امتزجتا الى حد ما .

ان غارة الاسكندر ووفاته مهدتا فى الهند الى ظهور امبراطورية كبيرة هى الامبراطورية الموريانية the Mauryan Empire . وهذه الامبراطورية كانت أحد العصور الهامة الكبرى فى تاريخ الهند ، ولهذا يجب أن نخصصها بشئ من الوقت نتحدث فيه عنها .

٢٧ - رومة ضد قرطاجنة

٥ ابريل سنة ١٩٣٢

سنرحل الآن من الشرق الأقصى الى الغرب ، ونتتبع نمو رومة التى يقال انها تأسست فى القرن الثامن قبل الميلاد . ومن المحتمل أن الرومان الأوائل ينتمون الى الجنس الآرى . وقد اتخذ هؤلاء بعض مساكن لهم على التلال السبعة على مقربة من نهر التيبر the Tiber وقد نمت هذه المساكن ببطء على مر الأيام حتى صارت مدينة . ودولة المدينة هذه ظلت تنمو وتتسع فى ايطاليا حتى بلغت الطرف أو الرأس الجنوبى عند مسينا تجاه جزيرة صقلية .

ولعلك تذكرين دول المدن الاغريقية : فالأغريق كانوا ، حيثما ذهبوا ، يحملون معهم فكرة دولة مدينتهم ، وكانت المستعمرات الاغريقية ودول المدن الاغريقية مبعثرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

ولكننا الآن فى رومة نعالج شيئاً مختلفاً عن هذا كل الاختلاف . فمن المحتمل أن رومة لم تكن مخالفة لدولة المدينة الاغريقية ، ولكن سرعان ما امتدت نتيجة هزيمتها للقبائل المجاورة ، وهكذا اتسعت حدود رقعة الدولة الرومانية وشملت أكبر جزء من ايطاليا . ومنساجة كبيرة كهذه لا يمكن أن تكون دولة مدينة . لقد كانت محكومة من

رومة ، ورومة نفسها كان بها نوع غريب من الحكم • فلم يكن هناك امبراطور أو ملك ، ولم يكن هناك نظام الجمهورية الحديث • ولكن الحكومة فيها كانت لونا من الجمهورية تسبطر عليها الأشراف الغنية من أرباب الأراضى •

وكان المفروض أن المجلس التشريعى هو الذى يحكم ، وكان أعضاء هذا المجلس يعينون بواسطة شخصين منتخبين يطلق عليهما « القاضيان » • ولعهد طويل لم يكن أحد غير الأشراف والأغنياء يستطيع أن يصبح عضوا فى المجلس التشريعى • وكان الشعب الرومانى منقسما الى طبقتين : طبقة البطارقة ، أو الأشراف الاغنياء ، وهم عادة أرباب الأراضى ، وطبقة السوقة ، أو عامة المواطنين •

وقد ظل تاريخ الدولة ، أو الجمهورية الرومانية ، لعدة قرون تاريخ صراع بين هاتين الطبقتين • فمقاليد السلطة والحكم كانت فى أيدي البطارقة أو الأشراف ، وقد ضموها الى السلطة والحكم الغنى والمال ، وطبقة السوقة أو العامة كانت أقل من الكلاب شأنا ، وكانت محرومة من السلطة والمال معا •

وظلت طبقة العامة تكافح وتقاتل من أجل القوة حتى ظفرت فى النهاية ، وإن كان فى بطن ، ببعض فتات السلطة • وجدير بالملاحظة أن طبقة العامة فى هذا الكفاح الطويل حاولت بنجاح نوعا من عدم التعاون • ذلك أنهم خرجوا من رومة فى حشد كبير ، واستقروا فى مدينة جديدة • وهذه المقاطعة بدورها ملأت أفئدة طبقة الأشراف فزعا وهلعا ، لعلمهم بأنهم لا يستطيعون أن ينجحوا بدون طبقة العامة ، ولهذا عملوا على ارضائهم بمنحهم بعض الامتيازات الطفيفة • وشيئا فشيئا أصبح من الممكن لأى فرد من طبقة العامة أن يثبوا المراكز العالية وأن يترقى حتى يصير عضوا فى المجلس التشريعى •

وقد يظن من حديثنا عن ضروب الصراع بين طبقة الأشراف وطبقة العامة أنه لا أحد غيرهما يستحق الذكر . والواقع غير ذلك ، فبجانب هاتين الجماعتين كان فى الدولة الرومانية عدد عديد من العبيد حرموا كافة أنواع الحقوق ، فلم يكونوا مواطنين ، ولم يكن لهم حق فى الانتخاب ، وكانوا ملكا شخصا خاصا لسيدهم كالكلاب والبقر . وكان يمكن بيعهم وعقابهم وفق مشيئة السيد ، كما كان يمكن عتقهم أو تحريرهم بشروط خاصة . وقد كون من نالوا حريتهم منهم طبقة تدعى طبقة العتقاء أو الأحرار .

وفى العالم القديم كان هناك دائما اقبال شديد وطلب متزايد على العبيد فى الغرب . ومن أجل ذلك نشأت أسواق هائلة للعبيد ، وخرجت الحملات لتأسر الرجال والنساء وحتى الأطفال من أقطار نائية لتبيعهم عبيدا .

وان مجد اليونان القديم ، ورومة ، ومصر القديمة ليقوم فى أساسه على نظام العبودية .

وبعد ، فهل كان نظام العبودية هذا سائدا وقتئذ فى الهند ؟ من المحتمل جدا أنه لم يكن سائدا فيها أو فى الصين . وهذا لايعنى أنه لم يكن فى الهند القديمة أو الصين عبودية ، فالواقع أنه كان فيهما من يستخدمون غالبا فى الأعمال المنزلية ، وهؤلاء كانوا يعتبرون عبيدا . فالهند والصين لايبدا أنه كان لديهما عمال عبيد يشتغلون زمرا وجماعات بالزراعة أو غيرها . وهكذا نجا هذان القطران من أشد ألوان العبودية اذلالا وعارا .

مما تقدم آنفا نرى أن رومة قد كبرت واتسعت ، وأن طبقة الأشراف قد أفادت من ذلك وأصبحت أغنى وأكثر يسرا ورخاء . أما طبقة العامة

فظلت في نفس الوقت فقيرة يعاملها الأشراف معاملة قاسية ، ليجعلوها أقل اعتزازا بنفسها ، وأكثر خضوعا لهم . وكلتا الطبقتين : الأشراف والعامة ، اجتمعتا على سوء معاملة العبيد البؤساء والنزول بآدميتهم .

وإذا كانت رومة قد كبرت واتسعت فعلى أى نمط كانت تحكم ؟ لقد كانت ، كما ذكرت من قبل ، تحكم بمجلس الأشراف ، وكان أعضاء هذا المجلس يعينون بواسطة قاضيين منتخبين . فمن كان ينتخب هذين القاضيين ؟ لقد كان ينتخبهما المواطنون ممن كان لهم حق الانتخاب .

وتفصيل ذلك أن رومة عندما كانت صغيرة كدولة مدينة كان كل المواطنين يعيشون فيها ، أو على مقربة منها ، ولهذا لم يكن صعبا جدا عليهم أن يجتمعوا وينتخبوا . وما نسميه الآن بالحكومة النيابية أو الدستورية لم تكن قد ظهرت أو انتشرت وقتئذ ، وبالتالي لم تكن تمارس .

والآن تعرفين أن كل منطقة أو دائرة تنتخب ممثلها الى مجلس الأمة أو البرلمان ، أو المجلس التشريعي ، وهكذا بطريقة ما يمثل كل الشعب في جمع صغير .

ويبدو أن هذا النوع من التمثيل الانتخابي لم يخطر ببال قدماء الرومان ، ولهذا استمروا على انتخابهم في رومة ، على حين كان مستحيلا تقريبا على الناحيين من جهات نائية أن يحضروا اليها للانتخاب . وفي الحقيقة قلما عرف ناخبو الجهات النائية ما كان يحدث . وأنى لهم أن يعرفوا ، ولم يكن هناك صحف أو كتب مطبوعة ، ومن يعرفون القراءة منهم كانوا قلة قليلة جدا ؟ ومن ثم فحق الانتخاب الذي أعطى لمن يعيشون بعيدا عن رومة لم يكن ذا فائدة عملية لهم . لقد منحوا حق الانتخاب ، ولكن البعد حرّمهم ممارسة هذا الحق .

من ذلك ترين أن الناخبين من سكان رومة فقط هم الذين كان لهم في حقيقة الأمر نصيب في الانتخابات ، وفي اتخاذ القرارات الهامة . وهؤلاء كانوا يدلون بأصواتهم في العراء داخل أماكن مسورة . وكثيرون من هؤلاء الناخبين كانوا من طبقة العامة الفقيرة . وكان الأغنياء من الأشراف ممن تطمح نفوسهم الى السلطة والمناصب العالية يرشون أولئك الفقراء لينتخبوهم . ومن ثم فالانتخابات الرومانية كان يلجأ في كسبها الى شيء من الرشوة والاحتيال ، كالذي يحدث اليوم أحيانا في الانتخابات الحديثة .

وبينما كان نفوذ رومة آخذا في النمو في إيطاليا ، كان نفوذ قرطاجنة ينمو في شمال أفريقية ، والقرطاجنيون هم من سلالة الفينيقيين ، وقد اشتهروا بالملاحة والتجارة . وكان نظام حكمهم جمهوريا أيضا ، ولكن سيادة الأغنياء في جمهوريتهم كانت أشد وأقوى من سيادة الأغنياء في جمهورية رومة . لقد كانت جمهورية مدينة يسكنها جموع هائلة من العبيد .

وكان بين قرطاجنة ورومة ، في العصور الأولى ، مستعمرات اغريقية في جنوب إيطاليا وفي مسينا . ولكن رومة وقرطاجنة اتحدتا على طرد الاغريق . ولما نجحتا في ذلك أخذت قرطاجنة جزيرة صقلية ، ووسعت رومة حدود رقعتها حتى وصلت الى طرف الحذاء الايطالي .

بيد أن الصداقة والتحالف لم يدوما طويلا بين قرطاجنة ورومة . فما أسرع ما نشبت الحروب بين الاثنتين ! وما أسرع ما تطورت حدة المنافسة المريرة بينهما !

لم يكن حوض البحر الأبيض المتوسط على اتساعه ليكفي دولتين قويتين طموحتين تواجه كلتاها الأخرى عبر البحار الفسيحة . فرومة

كانت تنمو ولديها طموح الشباب واعتداده وثقته بنفسه . ومن المحتمل أن قرطاجنة نظرت قليلا باحتقار وازدراء الى رومة التي انقلبت فجأة من حالة الفقر والضعف الى حالة الغنى والقوة ، والتي بدأت تتطلع في ثقة الى سيادتها على البحار وتحكمها فيها .

ظلت الحرب سجالا بينهما أكثر من مائة عام تخللتها فترات سلام ، وقاتلت احدهما الأخرى قتال الوحوش الكاسرة ، وجلبتا بسبب هذه الحروب الطاحنة على أبناء دولتيهما ما جلبتا من البؤس والشقاء !

والحروب التي نشبت بينهما هي ثلاث حروب يطلق عليها في التاريخ « الحروب القرطاجنية » .

أما الحرب الأولى بينهما فاستمرت ثلاثا وعشرين سنة من ٢٦٤-٢٤١ قبل الميلاد ، وانتهت بانتصار رومة . وبعد اثنتين وعشرين سنة قامت الحرب القرطاجنية الثانية ، وأرسلت قرطاجنة على رأس جيشها ، قائدا مشهورا في التاريخ اسمه هانيبال . لقد سبب هذا القائد لرومة المتاعب والصعاب وأرهب الرومانيين وملا قلوبهم بالرعب والفرع طوال خمس عشرة سنة ، وهزم جيوشهم وذبح الكثيرين منهم ولا سيما في « كاني » Cannae عام ٢١٦ قبل الميلاد .

وقد فعل هانيبال كل هذا بمساعدة قليلة من قرطاجنة التي كان مقطوعا عنها بسبب سيادة الرومانيين في البحر الأبيض المتوسط وتحكمهم فيه . وعلى الرغم من الهزائم والكوارث ، وخطر هانيبال الدائم ، فان الرومانيين لم يستسلموا ، وظلوا يقاتلون ضد عدوهم البغيض .

ولخوفهم من ملاقات هانيبال في معركة سافرة ، تجنبوا الالتحام معه ، وقصروا نشاطهم ضده على قطع طرق مواصلاته ، واحداث

الصعاب له لمدة عشر سنوات ، والقائد الرومانى الذى دأب بصفة خاصة على تفادى الالتحام فى معارك سافرة مع القائد القرطاجنى يسمى « فابيوس Fabius »

وأنا لم أذكر اسم هذا القائد الرومانى لأنّه كان رجلا عظيما يستحق الذكر ، وانما ذكرته لأن اسمه تولدت عنه كلمة فى اللغة الانجليزية هى « فابى Fabian » التى أصبحت تدل على الحذر وعلى الاناة والروية والبطء فى اتعاب العدو وانهاكه . وعلى ذلك يقال مثلا : هناك من يستعملون الأساليب « الفأبية » فلا يتعجلون حل المشاكل بالالتجاء الى القوة ، وانما يتفادون المعركة أو الأزيمة ويأملون فى أن يحققوا غاياتهم بانهاك الخصم أو العدو فى بطء وعلى أساس أن الفوز فى النهاية لمن يحتمل مدة أطول من غيره .

وهناك فى انجلترا جمعية تسمى « الجمعية الفأبية » وأعضاؤها يؤمنون بالاشتراكية ، ولكنهم لا يؤمنون بالعجلة والتغيرات الفجائية .

لقد أحال هانيبال جزءا كبيرا من ايطاليا الى صحراء ، ولكن النصر فى النهاية كان لرومة بفضل اصرارها وعنادها . وفى عام ٢٠٢ قبل الميلاد هزم هانيبال فى معركة « زاما » ولم يجد أمامه الا أن يهرب متنقلا من مكان الى مكان ، يطارده حقد رومة الذى لا ينطفىء سعاره . وأخيرا تعاطى السم ، وأنهى حياته بيده .

ثم ساد السلام بين رومة وقرطاجنة لمدة نصف قرن ، ولكنه سلام أذل كبرياء قرطاجنة ، وقلما جرؤت خلاله على تحدى رومة .

ولكن رومة لم تكتف بكل ذلك وانما فرضت على القرطاجنيين الحرب القرطاجنية الثالثة التى انتهت بمذبحة كبيرة وبتدمير قرطاجنة تدميرا تاما .

لقد استعمل المحرث فى حرث الارض التى قامت عليها مرة مدينة قرطاجنة العزيزة الأبية « ملكة البحر الأبيض المتوسط ! »

٣٩ — سيادة الهند على الأسواق الأجنبية

٥ مايو سنة ١٩٣٢

خلال هذه الفترة من التاريخ القديم الذي ندرسه نجد التجارة الهندية استمرت لأكثر من ألف سنة مزدهرة في غرب أوربا وغرب آسيا وفي الشرق الى الصين .

لماذا كان الأمر كذلك ؟ لم يكن لمجرد أن الهنود كانوا في تلك الحقبة من الزمن تجارا وبحارة مهرة ، الأمر الذي كان حقيقة واقعة ، ولم يكن لمجرد مهارتهم في الصناعات والأعمال اليدوية ، وان كان حظهم من هذه المهارة كبيرا .

لاشك أن هذه الأشياء كانت عوامل مساعدة ، ولكن يبدو أن أحد الأسباب الرئيسية لسيادة الهند في الأسواق البعيدة هو تقدمها في الكيمياء ، ولا سيما في الصباغة .

ويبدو أن هنود العصر الذي نتحدث عنه قد اكتشفوا طرقا خاصة لتحضير أصباغ ثابتة للملابس . كذلك عرفوا طريقة خاصة لصنع الصبغ الأزرق الداكن من نبات الـ « اندجو » الذي ينمو في بلادنا . ولا شك أنك ستلاحظين أن الكلمة الانجليزية « اندجو » Indigo هي كلمة مستعارة من الهند .

ومن المحتمل أيضا أن الهنود القدماء عرفوا كيف يعالجون الفولاذ
ويصنعون منه أسلحة دقيقة . ولعلك تذكرين أنى أخبرتك أن الفردوسى
فى كتابه « الشاهنامة » وهو يقص حروب الاسكندر الأكبر مع دارا
الثالث يشير الى كل خنجر أو سيف حسن بأنه هندى .

ولقدرة الهند على صنع هذه الأصباغ وغيرها من السلع أحسن من
الأقطار الأخرى كان من الطبيعى أن تسود تجارتها فى الأسواق .

والانسان أو القطر الذى لديه آلة أحسن أو طريقة أفضل وأرخص
لصنع أى سلعة يستطيع أن يطرد الانسان أو القطر الذى تكون سلعته
أو طريقته أقل جودة .

وهذا هو السبب فى أن أوربا سبقت آسيا خلال القرنين الماضيين .
فالاكتشافات والاختراعات الحديثة أهدت الى أوربا آلات قوية جديدة
وطرقا جديدة للصناعة . وبمساعدة هذه الأشياء استولت على أسواق
العالم وأصبحت غنية قوية . وهناك أسباب أخرى أعانتها على هذا
التقدم ، ولكنى أود منك حاليا أن تدركى مدى أهمية الآلة .

وقد قال مفكر كبير مرة : « ان الانسان حيوان صانع للآلة » .
والواقع أن تاريخ الانسان منذ نشأته حتى اليوم هو تاريخ آلات أرقى
فأرقى : من السهام الحجرية ومطارق العصر الحجرى الى السكك الحديدية
والقاطرات البخارية والآلات الميكانيكية وغيرها من مخترعات العصر
الحاضر . وفى الواقع يكاد كل شىء نفعله يتطلب آلة خاصة . فأين كان
يمكن أن نكون بدون الآلات ؟

فالآلة شىء نافع ، لأنها تخفف من عبء العمل وتعين على انجازه فى
أقصر وقت وبأقل جهد ممكن . ولكن هذه الآلة النافعة قد يساء

استعمالها • فالمنشار مثلا آلة نافعة ، فاذا استعمله طفل فانه قد يؤذى نفسه • والمديّة من أكثر الآلات نفعا ، وكل كشاف يحمل واحدة • ومع ذلك فقد يقتل شخص أحرق شخصا آخر بهذه المديّة • فالخطأ اذن ليس خطأ المديّة المسكينة ، وانما يكمن الخطأ فى الشخص الذى يسىء استعمالها •

وبالمثل ان الآلات الميكانيكية الحديثة على شدة فائدتها ونفعها لا يزال يساء استعمالها بطرق شتى • • فبدل أن تخفف من عبء العمل ووطأته على الجماهير الكادحة العاملة ، نرى أنها كثيرا ما ردت أحوال هؤلاء الى أسوأ مما كانت عليه من قبل ! وبدل أن تجلب السعادة والراحة والرفاهية للملايين البشر كما يتوقع منها ، فإنها قد جلبت البؤس والشقاء للكثيرين ، ووضعت فى أيدي الحكومات قوة هائلة يستطيعون بها أن يقتلوا الملايين فى حروبهم •

ولكن الخطأ — كما أشرت سابقا — ليس فى الآلة وانما هو فى اساءة استعمالها • ولا شك أن الفرق كان يكون عظيما جدا لو لم يتحكم فى الآلات الكبرى غير المسئولين ممن يريدون الاثراء لأنفسهم عن طريقها، وكان التحكم فيها على أساس توجيهها الى ما فيه خير الناس عامة •

وهكذا كانت الهند فى تلك الأيام — على عكس ماهى اليوم — فى طليعة العالم من حيث وسائلها وطرق صناعتها • لقد كانت الأقمشة الهندية ، والأصباغ الهندية وغيرهما من السلع الاخرى معروفة منتشرة فى أقطار بعيدة ، وكان هناك اقبال شديد على طلبها والحصول عليها • وقد عادت هذه التجارة على الهند بشروة طائلة •

وبجانب هذه التجارة كانت الهند الجنوبية تصدر الفلفل وغيره من

التوابل ، كما كانت التوابل ترد من جزائر الهند الشرقية ، مارة بالهند
فى طريقها الى الغرب •

وكان الفلفل ذا قيمة عظيمة فى رومة والغرب ، ويقال ان « أالاريك »
Alaric القائد القوطى أو التيوتونى عند ما استولى على روما سنة
٤١٠ بعد الميلاد أخذ منها أربعة آلاف رطل من الفلفل • ولا بد أن كل
هذا الفلفل قد وصل الى رومة من الهند أو عن طريقها •

٤٠ — تقلبات الدول والحضارات

٦ مايو سنة ١٩٣٢

دعينا نعود الآن للحديث عن الصين ، بعد أن سكتنا عنها طويلا ، لنرى ماذا كانت عليه عند سقوط رومة في الغرب ، وإبان النهضة القومية التي ظهرت بالهند في عهد أسرة جوبتا^(١) Guptas .

والواقع أن قيام رومة أو سقوطها لم يترك أى أثر يذكر في الصين ، وذلك لبعدها بين الدولتين . ولكنى أخبرتك من قبل أنه كان لرد الدولة الصينية لقبائل آسيا الوسطى عند حدودها أحيانا نتائج خطيرة على الهند وأوربا .

(١) نسبة الى تشاندرا جوبتا Chandragupta مؤسس الامبراطورية الموريانية والذي حكم من ٣٢١-٢٩٦ قبل الميلاد . وقد اشتملت هذه الامبراطورية على كل شمال الهند وجزء من الأفغانستان : من كابول الى البنغال ومن بحر العرب الى خليج البنغال ، باستثناء جنوب الهند . وكانت عاصمتها مدينة باتاليبوترا Pataliputra . وفي عهد هذه الامبراطورية انبعثت في الهند نهضة قومية شملت معظم مرافق الحياة . ويحدثنا نهر و في رسالة أخرى أنه كان على كل ملك من ملوك هذه الامبراطورية أن يقسم عند تلقيه سلطته الملكية من أيدي الشعب في يوم التتويج قائلا : « ألا فليحرمنى الله من مملكة السماء ومن الحياة والذرية اذا أنا ظلمتكم » .

فهذه القبائل وغيرهم ممن حالت الدولة الصينية بينهم وبين الصين لم يكن أمامهم إلا أن يتجهوا غربا وجنوبا ، وأن ينقضوا على ممالك بودول ويعيشوا فيها فسادا ، ناشرين فى حيثما حلوا الدمار والخراب والفوضى . وقد استقر فى نهاية الأمر كثير من هذه القبائل فى الهند وأوروبا الشرقية .

وعلى الرغم من كل شىء ، فقد كانت هناك بطبيعة الحال اتصالات بين رومة والصين تبودلت فيها السفارات . وأولى هذه السفارات كما ترويها كتب التاريخ الصينية هى السفارة التى بعث بها امبراطور رومة أنطون عام ١٦٦ بعد الميلاد . وأنطون هذا ليس الا مارك أنطونيوس الذى أشرت اليه فى احدى رسائل اليك .

لقد كان سقوط رومة حدثا تاريخيا بعيد الأثر ، ولم يكن مجرد سقوط مدينة أو سقوط امبراطورية . ولم تنته الامبراطورية الرومانية بسقوط رومة ، وانما استمرت طويلا بعد ذلك فى القسطنطينية على نحو ما ، وخيم شبحها فوق أوروبا كلها نحو ١٤٠٠ سنة .

فسقوط رومة كان فى الواقع نهاية طور كبير من أطوار التاريخ ، وعلى التحديد كان نهاية العالم القديم فيها وفى اليونان . فعلى أطلال رومة كان يقوم وينمو فى الغرب عالم جديد وثقافة وحضارة جديدتان .

ان الالفاظ والعبارات أو اللغة بمعنى آخر تضللنا ، ذلك لأننا نجد نفس الالفاظ مستعملة فيغلب علينا الظن أنها تعنى ذات الشىء . فأوروبا الغربية ظلت بعد سقوط رومة تتكلم اللغة اللاتينية ، ولكن كان وراء تلك اللغة أفكار مختلفة ومعان مختلفة .

وفى عصرنا الحاضر يقول الناس ان الأقطار الأوروبية هى أطفال

رومة واليونان • وهذا صحيح الى حد ما • ولكنه فى الواقع قول مضلل • ذلك لأن الاقطار الاوربية تمثل شيئاً يختلف كل الاختلاف عما مثلته رومة واليونان •

فعالم رومة واليونان القديم قد انهار انهياراً تاماً تقريباً ، والحضارة التى بنيت فى ألف سنة أو أكثر شاخت واعتراها الضعف والانحلال • وقد حدث آنئذ أن ظهرت على صفحة التاريخ دول أوربا الغربية التى كانت نصف متحضرة ونصف متبربرة ، وبنت فى بطن ثقافة وحضارة جديدتين ، وتعلمت الكثير من رومة ، واستعارت الكثير أيضاً من العالم القديم •

ولكن عملية التعلم كانت صعبة شاقة • ويبدو أن الثقافة والحضارة فى أوربا قد ران عليهما النعاس عدة قرون • لقد كان هناك ظلام الجهل والتعصب الأعمى البغيض، ولهذا سميت هذه القرون بالعصور المظلمة •

فلماذا كان هذا كذلك ؟ ولماذا يقضى على الدنيا بأن ترتد وتتقهقر ؟ ولماذا تمنى المعرفة التى تجمعت خلال مئات السنين بالزوال والنسيان ؟ ان هذه أسئلة عويصة يدق فهمها على أحكم الحكماء منا ، ولهذا فلن أحاول الإجابة عليها •

ثم أليس غريباً أن الهند التى تبوأ مكانة عالية فى الفكر وضروب النشاط الانسانى تنحط انحطاطاً تعيساً مزمرياً ، وتبقى لعصور طويلة دولة مستعبدة ؟

والصين •• ؟ أليس غريباً أيضاً أنها ، على ما لها من ماضٍ مليء بالفخار ، تقع فريسة حروب لا نهاية لها ؟

ولربما لا يكون الاختفاء والزوال مآل ما جمعه الانسان شيئا فشيئا من المعرفة والحكمة على توالى الأجيال والعصور . ولكن ما يحدث هو أن أعيننا تنقل فى بعض الأوقات فلانستطيع أن نرى . فحينما نقفل النافذة يخيم الظلام على المكان بينما النور خارجه وحوله . فاذا أقفلنا أعيننا أو نوافذنا فان هذا لا يعنى أن النور قد اختفى .

ومن الناس من يقول ان عصور الظلام ترجع الى المسيحية - لا الى مسيحية عيسى ، ولكن الى المسيحية الرسمية التى انتشرت فى الغرب بعد أن اعتنقها قسطنطين الامبراطور الرومانى . ويقول هؤلاء الناس ان اعتناق قسطنطين للمسيحية فى القرن الرابع الميلادى افتتح عصرا دام ألف سنة كان فيه العقل مكبلا مقيدا ، والفكر مستعبدا مضطهدا ، والمعرفة راكدة جامدة . ولم ينتج هذا العصر اضطهادا وتعصبا وعدم تسامح دينى فقط ، وانما جعل من الصعب على الناس أن يتقدموا فى العلوم وفى معظم مناحى الحياة الأخرى .

وكثيرا ما صارت الكتب المقدسة عقبات فى طريق التقدم ، فهى تخبرنا ماذا كانت عليه الدنيا فى الوقت الذى كتبت فيه ، كما تخبرنا بأفكار تلك الفترة وعاداتها ، ثم لا يستطيع أحد أن يتحدى تلك الأفكار وتلك العقائد بسبب ورودها فى كتاب مقدس ، ولهذا فقد تتغير الدنيا تغيرا خطيرا هائلا ثم لا يكون مسموحا أو جائزا لنا أن نغير أفكارنا وعاداتنا كي نساير الأحوال المتغيرة . ونتيجة لذلك نصبح غير صالحين لمسايرة عصرنا ، وفى ذلك بطبيعة الحال ما فيه من المتاعب .

من أجل ذلك يتهم البعض المسيحية بأنها جلبت على أوربا هذه الفترة من الظلام ، على حين ينبئنا البعض الآخر بأن الفضل فى بقاء مصباح المعرفة والعلم مشتتلا خلال عصور الظلام انما يرجع الى المسيحية ورهبانها وقساوستها ، فهؤلاء رعوا الفن والتصوير وحافظوا محافظة تامة على الكتب القيمة ونسخوها .

على هذا النحو يتجادل الناس في هذا الأمر • وربما كان كلا الطرفين على حق • ولكن ما يدعو الى السخرية والضحك هو أن يقال ان المسيحية مسئولة عن كل المفسد والشرور التي تلت سقوط رومة ، فالحق أن رومة سقطت بسبب هذه المفسد والشرور •

لقد جلت بخاطري بعيدا ، وما أردت أن أبينه لك هو أنه بينما كان في أوروبا انهيار اجتماعي مفاجيء وتغير مفاجيء لم يكن في الصين حتى ولا في الهند تغير مفاجيء كهذا •

ففي أوروبا نشهد نهاية حضارة وبداية حضارة أخرى أخذت تنمو وتتطور في ببطء حتى وصلت الى ما هي عليه اليوم • وفي الصين نشهد نفس الدرجة العالية من الثقافة والحضارة تستمر في طريقها بدون توقف أو انقطاع •

لقد كان في الصين تقلبات • كان فيها عهود حسنة مشرقة • وكان فيها ملوك وأباطرة أتوا ثم مضوا ، وكان فيها دول أزال بعضها بعضها • ولكن على الرغم من كل ذلك فإن التراث الثقافي ظل متصلا غير منقطع •

ففي كل العهود، حتى في العهود التي انقسمت الصين فيها الى عدة دول ونشبت فيها الحروب ، كان الفن والأدب فيها مزدهرين ، فأنتجت الصين الصور الفنية الرفيعة ، وأصص الأزهار الجميلة ، والمباني الانيقة • وفيها نشأت الطباعة ، وأصبح شرب الشاي عادة مستحبة يحتفى بها الشعر • وعلى الاجمال ان في الصين روحا فنية مستمرة لا يمكن أن تنبعت الا من حضارة راقية سامية •

وكذلك الحال في الهند ، فليس في حضارتها فترات انقطاع مفاجئة

كما حدث في حضارة رومة . لقد مرت بالهند عهود حسنة وأخرى سيئة :
عهود من الانتاج الأدبي والفنى الرفيع ، وعهود من الخراب
والانحطاط . ولكن الحضارة تستمر فى الهند ، وان لم تكن أحيانا
على ما يرام ، ثم تنتشر فى أقطار الشرق الأخرى ، وهى فى انتشارها
تمتص ما تمتص من الحضارات التى تقابلها وتعلم حتى البرابرة الذين
أتوا للنهب والسلب :

لا تظنى أنى بهذا القول أحاول الاشادة بالهند أو الصين على
حساب الغرب ، فليس فى أحوال الهند أو الصين اليوم ما يصح
الاشادة أو التشديد به ، ويستطيع حتى الأعمى أن يرى أنه رغم
كل عظمتها الماضية فقد سقطتا وهوتا الى الدرك الأسفل فى ميزان
الشعوب .

فاذا لم يكن هناك انقطاع أو توقف مفاجئ فى ثقافتهما فى الماضى
فان هذا لا يعنى أنه لم يحدث فيهما تغير الى الأسوأ . واذا كنا
بالأمس فى طليعة الشعوب المتقدمة ثم صرنا اليوم فى مؤخرة
الشعوب فان هذا التحول من شأنه أن ينزل بنا فى أعين العالم .

وقد نشعر بالارتياح والرضا لاتصال حضارتنا واستمرارها ،
ولكن ما أقل جدوى هذا الارتياح والرضا عند ما نرى أن هذه الحضارة
قد أدركها الوهن واعترتها الشيخوخة !

ولربما كان من الخير لنا لو طرأ علينا ما يفصلنا انفصالا مفاجئاً
عن ماضينا ، فحدث شئ من هذا القبيل كان كفيلاً بأن يهزنا هزاً
قويًا ويبعث فينا حياة وحيوية جديدتين . ومن يدري قلعل الحوادث
التي تجرى اليوم فى الهند وفى العالم تكسب بلادنا القديمة العريقة
قوة دافعة ، وتملؤها ثانية بالشباب والحياة الجديدة .

ويبدو أن سر قوة الهند ومثابرتها في الماضي يكمن في نظام جمهوريات القرى أو الحكم الذاتى الذى نسميه بلغتنا « بانشايات » Panchâyats فلم يكن هناك فى الماضى اقطاعيون أو ملاك أراض كبار كالموجودين حالياً فى الهند ، فالأرض كانت ملكاً لأهل القرية أو « اللبانشايات » أو لمن يزرعونها . وكان لهذه « البانشايات » نصيب كبير من القوة والسلطة ، وكانوا ينتخبون بواسطة أهل القرية . ومن ثم كان هناك أساس من الديمقراطية فى هذا النظام .

وقد تعاقب الملوك فى الهند ملكاً اثر ملك أو حارب بعضهم بعضاً، ولكنهم مع ذلك لم يمسوا نظام القرية أو يتدخلوا فيه أو يجرءوا على الانتقاص من حريات جمهوريات القرى أو « البانشايات » . وعلى هذا نرى أنه بينما تغيرت الامبراطوريات استمر البناء الاجتماعى الذى قام على أساس نظام القرية بدون تغيير ملحوظ .

وقصص الحروب والاغارات وتغير الملوك والحكام قد تضللتنا فنظن أن سكان الهند قد تأثروا بها . وطبيعى أن يتأثر السكان أحياناً بمثل هذه الأحداث وبخاصة فى شمال الهند ، ولكن على الاجمال يمكن القول بأن الناس ازاء هذه الأخطار أصابهم شيء قليل من الخوف والقلق ثم استمروا يمارسون حياتهم المألوفة على الرغم من تغيرات الملوك والحكام .

وهناك عامل آخر أدى الى قوة النظام الاجتماعى فى الهند لمدة طويلة ، ذلك هو النظام الطائفى أو العنصرى كما وجد فى الأصل ، فالطائفية أو العنصرية لم تكن فى أول الأمر حادة عنيفة الى الدرجة التى آلت اليها فيما بعد ، كما لم تعتمد على المولد وحده . لقد أبطت على الحياة الهندية متماسكة مترابطة آلاف السنين ، وقد استطاعت الطائفية أو العنصرية أن تحقق هذا التماسك والترابط لا بمنع التغير والنمو ولكن بالسماح لهذين بالوجود والاستمرار .

فالنظرة الهندية القديمة الى الدين والحياة كانت دائما نظرة تسامح وتجربة وتغير . وقد أضفى ذلك على نظرة الهند قوة ، ولكن الحروب والغزوات وغير ذلك من الفتن والقلقل جعلت الطائفية أو العنصرية تأخذ في الحدة والعنف شيئا فشيئا ، وتبعيا لذلك صارت غالبية النظرة الهندية أكثر حدة وعنفا ، وأقل خضوعا واذعانا .

وقد استمرت هذه العملية تفعل فعلها حتى تخلف الهنود وارتدوا الى ما هم عليه اليوم من حال تعيسة مزرية ، وحتى صار التعصب الطائفي أو العنصري عدو كل نوع من التقدم . وبدلا من أن يعمل على تماسك البناء الاجتماعي فإنه يقسمه مئات الأقسام ويصيرنا ضعفاء ويجعل الهندي يقف وجها لوجه ضد أخيه الهندي .

وهكذا ساعدت الطائفية أو العنصرية في الماضي على تقوية نظام الهند الاجتماعي . ولكن على الرغم من ذلك فإن هذا النظام الاجتماعي كان يحمل في طياته بذور الانحلال والفساد ، ذلك لأنه كان مؤسسا على الظلم المستمر وعلى عدم المساواة الدائمة أيضا ، وأي محاولة كهذه كان مصيرها الفشل في النهاية .

فالمجتمع الثابت السليم لا يمكن أن يقوم على أساس من الظلم وعدم المساواة ومن استغلال طائفة أو طبقة لطائفة أو طبقة أخرى ، ولا سبب لما نراه اليوم في جميع أرجاء العالم من الاضطراب والصراع سوى الاستغلال الجائر المستمر ، ولكن الناس في كل مكان قد بدءوا يدركون هذا ويعملون على التخلص من كل ضروب الاستغلال .

ونظام الصين الاجتماعي يشبه نظام الهند الاجتماعي من حيث أن قوته تكمن في القرى وفي مئات الآلاف من الزراع الذين يملكون الأرض ويزرعونها ، ومن حيث أنه لا يوجد في الصين أيضا ملاك أراض كبار .

وفى الصين لم يسمح للدين أبدا بأن يتحكم ويستبد أو أن يصير
متعصبا ، وربما كان الصينيون ولا يزالون أقل الشعوب تعصبا فى
الدين .

وسوف تتذكرين مرة ثانية بأنه لم يكن فى الهند أو الصين
عبودية بين العمال كما كانت الحال فى اليونان ورومة وفى العصور
الأولى لمصر القديمة . لقد كان هناك بعض من يقومون بالأعمال
المنزلية وهؤلاء كانوا عبيدا ، ولكنهم لم يؤثروا أى تأثير فى النظام
الاجتماعى الذى كان يمكن أن يمضى فى طريقه بدونهم .

ولم يكن الحال كذلك فى اليونان القديمة ورومة حيث كان العبيد
بعدادهم العديد يكونون جزءا هاما من النظام ، وحيث كان العبد
الحقيقى لكل عمل يقع على عاتقهم ، وكيف وأين كان يمكن أن تبنى
الأهرام الكبرى فى مصر لو لم يقم ببنائها هذا النوع من العمال
العبيد (١) ؟

(١) يبدو أن الكاتب هنا متأثر بأقوال بعض الأوربيين عن بناة
الأهرام . فالثابت تاريخيا أن الأهرام كانت تبنى عادة فى أيام
الفيضان حيث الأرض تكاد تكون مغطاة بالمياه وحيث يكاد يكون
العمال فى شبه عطلة . فاستخدام العمال فى بناء الأهرام لم يكن
نوعا من العبودية وإنما كان فتحا لأبواب العمل والرزق لهم فى موسم
الفيضان حيث يقل العمل على الأرض . كما ثبت أن الدولة كانت
تهبىء لهم المسكن والمأكل . ومن ناحية أخرى كان الفراعنة الملوك ينظر
اليهم فى حياتهم من رعيتهم على أنهم أنصاف آلهة . ولهذا كان الاشتراك
أو المساهمة فى بناء مقابرهم من عامة الشعب نوعا من العبادة
لا العبودية .

« المترجم »

لقد بدأت هذه الرسالة بالحديث عن الصين وكان في نيتي أن
أستمر في سرد قصتها عليك ، ولكن تيار الفكر جرفني الى موضوعات
أخرى ، وليس هذا بالشئ المستغرب مني !

ولعلنا في الرسالة القادمة نلتزم قصة الصين ولا نحيد عنها .

٤٩ — الفتح العربي من إسبانيا إلى منغوليا

٢٣ مايو سنة ١٩٣٢

كان محمد ، مثل مؤسسى بعض الأديان الأخرى ، ثائرا ضد كثير من العادات الاجتماعية الموجودة . وقد اسبتهوت بساطة الدين الاسلامى الذى دعا اليه ومباشرة وديمقراطيته ومساواته عامة الناس فى الأقطار المجاورة ممن حطمهم وطحنهم الملوك المستبدون والقساوسة المتغطرسون المستبدون أيضا .

فالناس فى عصر محمد كان قد أنهكهم النظام القديم وضاقوا ذرعا به حتى باتوا مستعدين لتقبل أى تغيير . وقد أهدى الاسلام اليهم هذا التغيير الذى تلقوه مرحبين به ، ذلك لأنه ارتقى بهم من نواح عدة ، ووضع نهاية لكثير من المفاسد والشرور القديمة .

والاسلام لم يحضر معه ثورة اجتماعية (١) كبرى يكون من شأنها

(١) لعل هذا رأى وليد نظرة جانبية الى مفهوم الثورة باعتبارها تحريرا من ربقة الاقتصاديات المختلفة الظالمة وحسب . بيد أن عمل الثورة لا يقف عند هذا الحد . . فالثورة فى حقيقتها انهاء لزمان بكل ، أو بمعظم ، معالمه من عقائد وتقاليد وأوضاع . ولقد أحدث الاسلام تحويلا هاما صاعدا فى عقائد وتقاليد وأوضاع مجتمعه ، ثم هو لم يحمل لواء التحرير بالنسبة للمسلمين وحدهم ، بل للبشر كافة . وفى أمر التكليف الصادر للرسول ليحمل تبعاته لم يبعثه الله رسولا للمسلمين فحسب ، بل رحمة للعالمين .

«المترجم»

أن تقضى على درجة كبيرة من استغلال الناس . ولكنه قد خفف من هذا الاستغلال بالنسبة للمسلمين ، وجعلهم يشعرون بأنهم ينتمون الى أخوة واحدة عظمى . وهكذا زحف العرب من فتح الى فتح ، وكثيرا ما انتصروا بلا قتال .

وفى خلال ربع قرن من وفاة نبيهم ، فتح العرب كل بلاد الفرس والشام وأرمينية ، وبعض آسيا الوسطى ، ومصر وجزءا من شمال أفريقية غربا .

وقد استولى العرب على مصر بسهولة لأنها كانت قد قاست أكثر من غيرها من استغلال الإمبراطورية الرومانية ومن صراع المنافسة بين المذاهب المسيحية .

وهناك قصة تروى عن حرق العرب لمكتبة الاسكندرية الشهيرة ، ولكن الاعتقاد الآن أن هذه القصة كاذبة لا أساس لها من الصحة . ولما كان حب الكتب والولع بها مما يؤثر عن العرب فلا يمكن أن يعقل أنهم تصرفوا فى مكتبة الاسكندرية بهذا الأسلوب البربرى . ومن المحتمل ، على أية حال ، أن امبراطور القسطنطينية « ثيودوسيوس » الذى حدثك قليلا عنه من قبل هو الذى ارتكب جريمة حرق مكتبة الاسكندرية أو حرق جزء منها . نقول ذلك لأن جزءا من المكتبة كان قد أتلف من قبل أثناء حصار الاسكندرية فى عهد يوليوس قيصر . « ثيودوسيوس » لم يستصوب كتب الاغريق القدماء الجاهليين التى تتحدث عن الأساطير والفلسفات الاغريقية القديمة . ولهذا يقال انه استعمل هذه الكتب وقودا لتسخين حماماته .

وقد استمر العرب فى تقدمهم شرقا وغربا . وفى الشرق سقطت هرات وكابول وبلخ فى أيديهم .

وقد وصلوا فى هذا الاتجاه الى بلاد السند (١) ولكنهم لم يتقدموا
فى الهند وراء ذلك ، وظلت صلاتهم لبضع مئات من السنين بالحكام
الهنود على خير ما تكون الصلات مودة وصداقة .

وفى الغرب ظلوا يتقدمون ويتقدمون ، ويقال أن قائدهم
عقبة (٢) أتى الى شمال افريقية ، وتقدم فى هذا الاتجاه حتى وصل
الى المحيط الأطلسى على الشاطئ الغربى لما يعرف الآن بمراكش .
ويقال أيضا انه شعر بخيبة أمل حينما وجد المحيط الأطلسى يقف
حجر عثرة فى طريق تقدمه ، وأنه ركب البحر وأوغل فيه على قدر
ما استطاع ثم شكاه بشه وحزنه الى الله لعدم وجود أرض أخرى فى هذا
الاتجاه فيفتحها باسم الله وفى سبيله !

ومن مراكش وافريقية عبر العرب الى اسبانيا وأوربا ، المضيق
الذى كان يسميه الاغريق القدماء « أعمدة هرقل » .

واسم القائد الذى عبر الى أوربا هو « طارق » ، ولهذا أطلق على
الجبل الذى نزل عنده باسبانيا « جبل طارق » ذكرى لهذا القائد
العربى .

وقد تم فتح اسبانيا بسرعة عجيبة ، ومنها تدفق العرب الى جنوب
فرنسا .

(١) الذى افتتح بلاد السند هو المهلب بن أبى صفرة فى حكم معاوية
ابن أبى سفيان .

(٢) هو عقبة بن نافع ٥٠ هـ (٦٧٠ م) . وقد أرسله معاوية عندما
شكا أهل شمال افريقية له من كثرة الضرائب التى فرضتها الحكومة
الرومانية عليهم . وقد انتصر عقبة على الرومان وأسس مدينة القيروان
جنوبى تونس . ولكن البربر كادوا له وقتلوه هو وأكثر جيشه سنة
٦٨١ م .

« المترجم »

وهكذا لم يمض على وفاة النبي محمد مائة سنة ، حتى كانت الامبراطورية العربية قد امتدت من جنوب فرنسا واسبانيا فشمال افريقية الى مصر ، وعبر بلاد العرب الى الفرس وآسيا الوسطى حتى حدود منغوليا . ولم يدخل من الهند في هذه الامبراطورية غير السند .

وقد غزا العرب أوروبا من جهتين : غزوها في القسطنطينية مباشرة ، وفي فرنسا عن طريق افريقية . وفي جنوب فرنسا كان العرب قليلي العدد ، وكانوا بعيدين عن موطنهم الأصلي . ولهذا لم يستطيعوا الحصول على مساعدة تذكر من الجزيرة العربية لانشغالها وقتئذ بفتح آسيا الوسطى . ومع ذلك فقد استطاعت هذه القلة من العرب في فرنسا أن تخيف أهل أوروبا الغربية ، ولهذا كونوا حلفاء كبيرا لمحاربتهم .

وكان شارل مارتل هو قائد هذا الحلف . وقد استطاع في سنة ٧٣٢ ميلادية أن ينتصر على العرب في موقعة « تور » في فرنسا .

ويشير أحد المؤرخين الى نتائج هذه المعركة فيقول : « لقد خسر العرب في سهول تور امبراطورية العالم ، وقد كادت تكون في قبضة أيديهم » .

ومما لا ريب فيه أن العرب لو أتيح لهم أن ينتصروا في تور لكان التاريخ الأوربي قد تغير تغيرا كبيرا ، ولما كانت هناك قوة أخرى في أوروبا تقف تقدمهم . ولكان في استطاعتهم أن يواصلوا زحفهم حتى القسطنطينية ، وأن يضعوا نهاية للامبراطورية الرومانية الشرقية وللدول الأخرى التي تأتي في طريقهم . وليس ذلك فحسب ، بل كان الاسلام قد حل محل المسيحية ، وأصبح دين أوروبا ، وكانت قد حدثت أنواع أخرى من التغيرات .

ليس هذا الا شطحة من شطحات الخيال ، ولهذا أعود فأقول : لقد أوقف زحف العرب في فرنسا ، ولكنهم بعد ذلك بقوا في اسبانيا وحكموها بضع مئات من السنين .

وقد انتصر العرب من اسبانيا الى منغوليا ، وأصبح هؤلاء البدو الذين أتوا من الصحراء حكام امبراطورية عظيمة . لقد كانوا يسمون سكان الصحارى ، ولكن سرعان ما ألف سكان الصحارى هؤلاء حياة الترف والمدن ، وسرعان ما انتشرت القصور في مدنها .

وعلى الرغم من انتصاراتهم في أقطار بعيدة ، فانهم لم يستطيعوا التخلص فيما بينهم من عادة التشاحن والقتال القديمة عندهم . وبطبيعة الحال كان لديهم شيء يستحق التناحر عليه والقتال من أجله وهو رئاسة الجزيرة العربية التي كانت تعنى التحكم في امبراطورية شاسعة الأطراف . ومن ثم كات هناك صراع وحروب للاستيلاء على منصب الخلافة .

وهذا الصراع وهذه الحروب التي قامت بين الأسير والقبائل أدت الى انقسام المسلمين الى طائفتين كبيرتين : طائفة السنيين ، وطائفة الشيعة واللتين لا تزالان موجودتين حتى اليوم .

وسرعان ما نشأ الخلاف بعد انتهاء عهد الخليفين أبي بكر وعمر . فعلى بن أبي طالب زوج فاطمة بنت محمد آلت اليه الخلافة لعهد قصير . ولكن الصراع ظل مستمرا ، فقتل على ، ومن بعده بقليل قتل ابنه الحسين وأسرت في كربلاء .

ومأساة كربلاء هذه هي التي يبكيها المسلمون ، ولا سيما الشيعة منهم في شهر المحرم من كل عام . ثم نرى الخليفة بعد ذلك يصبح

ملكا مطلقا بدون انتخاب أو طريقة ديمقراطية • والذي كان يحدث هو أنه كان يتبوأ الملك كما يتبوأه أى ملك فى عصره • ونظريا استمر ينظر اليه أيضا على أنه الرئيس الدينى وأمير المؤمنين • ولكن بعض هؤلاء الحكام كانوا فى الحقيقة سبة للإسلام الذى كان مفروضا فيهم أن يكونوا حماة الأعلين •

ولقد صارت خلافة المسلمين لمدة قرن تقريبا للأُمويين • وهؤلاء اتخذوا من دمشق عاصمة لهم ، وبذلك أصبحت هذه المدينة القديمة جميلة جدا تزينها القصور والمساجد ونافورات المياه والجواسق الخشبية داخل الحدائق ، كما اشتهرت بنظام تزويد منازلها بالماء •

وخلال هذه الفترة استحدث العرب ورقوا طرازا خاصا من العمارة عرف فيما بعد بفن العمارة العربية • وهذا الفن الذى استحدثه العرب فى هندسة البناء ليس نوعا من الحلية أو الزينة ، وإنما هو فن بسيط جميل لا يملك المشاهد له إلا أن يعجب به • والفكرة من وراء فن البناء العربى هى النخلة الجميلة التى تنمو فى الشام وجزيرة العرب • فالأقواس والأعمدة والمآذن والقباب ، تذكر الانسان بتقوس وتقرب جماعات النخيل ، وقد أتى فن البناء العربى الى الهند ، ولكنه تأثر فيها بالأفكار الهندية ، ونشأ عن ذلك طراز جديد مختلط • ولا يزال يوجد حتى اليوم فى اسبانيا آثار لأجمل وأبدع نماذج فن البناء العربى •

ونتيجة للإمبراطورية وراثتها شاع فى المجتمع العربى فنون من الترف والرفاهية والمتعة • فسباق الخيل كان إحدى الرياضات المحببة لدى العرب • وكذلك الصيد ولعبة الكرة على الخيل polo والشطرنج • وقد نما لديهم ولع بالموسيقى على طراز حديث ، وبخاصة الغناء • ولهذا كانت عاصمة الخلافة تموج بالمغنين وتوابعهم والمتطفلين عليهم •

وقد حدث فى محيط المجتمع العربى تغير آخر كبير ، ولكنه لم يكن
تغيرا الى الأحسن . وكان هذا التغير خاصا بالمرأة .

فالمرأة العربية لم تكن تعرف الحجاب فى أية صورة من صورته، فلم
تعش فى عزلة أو مخبأة عن أعين الغير . لقد كانت تسير بين الناس
وتذهب الى المساجد وتتردد على مجالس العلم . ومن نساء العرب
من كن يجلسن أحيانا مجالس العلماء ويلقن دروسا فى العلم .

ولكن نجاح العرب جعلهم يقلدون بعض عادات الامبراطوريتين
القديمتين المجاورتين لهم ، وأعنى بذلك الامبراطورية الرومانية
الشرقية ، والامبراطورية الفارسية . فالعرب قد هزموا الامبراطورية
الأولى ، وقضوا على الامبراطورية الثانية ، ولكنهم أنفسهم استسلموا
وخضعوا لبعض ما كان يشيع فى هاتين الامبراطوريتين من العادات
القييحة . ويقال ان عزلة المرأة العربية واختفاءها من مجتمعتها يرجع
بوجه خاص الى تأثير القسطنطينية والفرس فى المحيط العربى .

ونتيجة لذلك بدأ نظام « الحريم » يظهر شيئا فشيئا ، كما بدأ
اجتماع الرجل بالمرأة ، والتقاء أحدهما بالآخر فى المجتمعات العامة
يقل شيئا فشيئا .

ومما يؤسف له أن عزلة (١) المرأة العربية هذه أصبحت مظهرا من
مظاهر المجتمع الاسلامى . وقد تعلمت المرأة الهندية هذه العزلة
أيضا من المسلمين عندما أتوا الى الهند .

(١) ربما كان ذلك فى القديم . أما اليوم فقد بدأت المرأة العربية
تخرج من عزلتها وتساهم فى جميع مناحى الحياة العامة، كما اعترفت
لها بعض الدساتير العربية بنحوقها السياسية . «المترجم»

وانى لأعجب غاية العجب أن أرى أنه لا يزال هناك من يقاسون ويعانون من هذه البربرية فى صمت ، دون أن يتألموا أو يضججوا بالغضب والشكوى .

وكلما فكرت فى النساء المحجبات ، وقد قضى عليهن بالعزلة عن العالم الخارجى ، خيل الى أنى أفكر فى سجن أو حديقة حيوان ! وكيف يقدر لشعب أن ينطلق متقدما الى الأمام اذا كان نصفه يعيش فى عزلة أشبه بالسجن ؟

ولكن مما يدعو الى الأمل والتفاؤل أن الهند قد بدأت بسرعة تمزق الحجاب وتقضى عليه ، كما ظهرت بوادر فى المجتمع الاسلامى تدل على التخلص من هذا العبء الفظيع على نطاق واسع . وفى تركيا وضع مصطفى كمال نهاية للحجاب ، كذلك بدأ الحجاب فى مصر يختفى بشكل سريع ويحل محله السفور .

ولا يفوتنى قبل أن أختتم رسالتى اليك أن أشير الى نقطة بالغة الأهمية والدلالة . فالمأثور عن العرب أنهم كانوا فى بدء نهضتهم متحمسين غاية التحمس للدين ، ولكنهم مع تحمسهم هذا كانوا متسامحين مع مخالفاتهم فى العقيدة . وهناك أمثلة عديدة على تسامحهم الدينى . وقد أكد الخليفة عمر بن الخطاب هذا التسامح وأوصى به مرة فى بيت المقدس ، وفى أيام حكم العرب فى اسبانيا كان جزء كبير من سكانها مسيحيين ، وكانوا يتمتعون كل التمتع بحرية العبادة والعقيدة . وفى الهند لم يمتد حكم العرب الا على السند ، ولكن نشأت اتصالات كثيرة بينهم وبين سكان الهند ، وكانت هذه الاتصالات قائمة على أساس المودة والصداقة . وفى الحق ان أكثر ما يلاحظ على هذه الفترة من التاريخ هو المقابلة بين تسامح العرب المسلمين ، وتعصب المسيحيين فى أوروبا .

٥٣ — نظام الإقطاع

٤ يونية سنة ١٩٣٢

في رسالتنا السابقة أُلحنا لمحة الى المراحل الأولى لكل من فرنسا
والمانيا وروسيا وانجلترا كما نعرفها اليوم . ولكن لا تتخيل أن
الناس في تلك العصور قد نظروا الى هذه الأقطار نظرتنا اليها في
عصرنا الحاضر .

فنحن ننظر اليها على أنها شعوب مختلفة من الانجليز والفرنسيين
والألمان . وكل من هؤلاء ينظر الى قطره على أنه وطنه وأرض آبائه
وأجداده . وهذا هو شعور القومية الذي يبدو اليوم واضحا في جميع
أرجاء الدنيا . وكفاحنا في الهند من أجل الحرية هو « كفاحنا القومي »

ولكن فكرة القومية هذه لم توجد في تلك العصور البعيدة . وانما
كان يشيع فيها فكرة ما عن المسيحية مؤداها أن المسيحيين المعتنقين
لها يقفون ضد الكفار أو المسلمين . وكان المسلمون بالمثل يرون أنهم
يمتتون الى دنيا الاسلام التي تقف ضد الآخرين جميعا وتعتبرهم غير
مؤمنين .

بيد أن هذه الأفكار كانت أفكارا غامضة لم تمس أو تلمس حياة
الناس اليومية . ومع غموض هذه الأفكار ، فانها استخدمت في

ظروف ومناسبات خاصة لتملاء قلوب الناس بالغيرة والحماسة الدينية ليقاتلوا من أجل المسيحية أو الاسلام كلما اقتضى الأمر .

فبدل القومية ، كان هناك صلة غريبة بين الانسان وأخيه الانسان . وهذه هي الصلة الاقطاعية التي نشأت مما يعرف بالنظام الاقطاعي .

وقد ترتب على سقوط رومة أن انهار النظام القديم في الغرب ، وشاع فيه الاضطراب والفوضى والعنف واللجوء الى القتال والحروب . واستولى الأقوياء على كل ما استطاعت أيديهم أن تمتد اليه ، وتمسكوا به طالما لم يأت اليهم شخص أقوى منهم فيطوح بهم ويجلبهم عنه . وبنيت قصور قوية حصينة ، وخرج أرباب هذه القصور في فصائل من رجالهم ، وأغاروا على الريف وعاثوا فيه سلبا ونهباً وفسادا . وقاتلوا أحيانا من على شاكلتهم من أرباب القصور وساداتها . وكان العمال والزراع بطبيعة الحال أكثر من قاسى وعانى شرور تلك الأوضاع . فمن هذا الاضطراب وهذه الفوضى ، نشأ النظام الاقطاعي ونما .

ولم يكن الزراع منظمين ، ومن ثم لم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ضد الأسياد اللصوص . ولم تكن هناك حكومة مركزية لها من قوتها ما تحمى به الزراع من طغيان أرباب القصور عليهم . ولهذا لم يجد الزراع أمامهم الا أن يأخذوا بأخف الضررين ، وأن ينزلوا على شروط رب القصر الذي سلبهم ونهبهم . لقد قبلوا أن يعطوه نصيبا مما تنتجه حقولهم ، وأن يخدموه في بعض الشئون أيضا على شريطة ألا يسطروا أو يغير عليهم . وأن يحميهم شرور من هم على شاكلته من أرباب القصور . كذلك نزل سيد القصر الصغير بالمثل على شروط.

سيد القصر الكبير . ولما لم يكن فى استطاعة السيد الصغير أن يعطى السيد الكبير شيئا مما ينتجه الحقل ، لأنه لم يكن زارعا أو منتجا ، فقد وعد أن يقدم اليه مساعدة حربية ، بمعنى أن يحارب معه عند الحاجة .

وفى مقابل ذلك كان على السيد الكبير أن يحمى السيد الصغير ، وبهذا أصبح الأخير مولى لسيد كبير أو أمير . وخطوة خطوة أخذوا يتدرجون من سادة ونبلاء كبار الى سادة ونبلاء أكبر حتى وصلوا الى الملك فى قمة هذا النظام الاقطاعى . ولدى هؤلاء أن كل شيء ، حتى السماء ، قد أسهم بنصيب فى النظام الاقطاعى بأقانيمه أو ثلوثه الأقدس الذى ترأس عليه الاله !

كان هذا هو النظام الذى نشأ شيئا فشيئا من الاضطراب الذى غشى أوربا . ويجب أن نتذكرى أنه لم يكن هناك فى ذاك الوقت حكومة مركزية تقريبا ، أو شرطة يحافظون على الأمن أو ما أشبه ذلك . إنما كان مالك أى قطعة من الأرض هو حاكمها وسيدها وسيد كل من أقاموا عليها . لقد كان أشبه بملك صغير ، وكان مفروضا فيه أن يحميهم فى مقابل خدمتهم له وحصوله على نصيب مما تنتجه حقولهم . لقد كان سييدا أو ملكا لهؤلاء الناس ممن كانوا يسمون بالعبيد الأرقاء . ولما كان ما لديه من أرض قد حصل عليها من سيده الأعلى ، فانه بذلك قد صار مولى اقطاعيا له يتبعه ويقدم اليه المساعدات الحربية .

وحتى رجال الكنيسة قد أصبحوا جزءا من النظام الاقطاعى ، ومن ثم كانوا قساوسة وسادة اقطاعيين . وفى المانيا مثلا كان نصف الأرض والثروة تقريبا فى أيدي الأساقفة ورؤساء الأديرة . وكان البابا نفسه سييدا اقطاعيا .

فهذا النظام كله - كما تلاحظين - كان نظام درجات وطبقات . ولم يكن فيه مكان للمساواة . ففي أسفل السلم نرى العبيد الأرقاء يحملون ثقل البناء الاجتماعي كله ، ومن فوقهم نرى الأسياد الصغار ، فالأسياد الكبار ، فالأسياد الأكبر . فالملك . وعلى عاتق العبيد الأرقاء ، كانت تقع أيضا أعباء تكاليف الكنيسة والأساقفة ورؤساء الأديرة والكرادلة والقساوسة .

أما الأسياد الصغار والكبار ، فما كانوا ليزاولوا أى عمل من شأنه أن ينتج طعاما ، أو أى مورد آخر من موارد الرزق والثروة ، لاعتقادهم أن هذه أعمال محطة لاتليق بأمثالهم . لقد كان القتال عملهم الرئيسى ، فإذا لم يجدوا ما يدعوههم الى ممارسة هذه الحرفة فانهم كانوا يشغلون أنفسهم بالصيد ، أو بالانهماك فى المبارزات وفى ضروب من القتال صورية مصطنعة . وكانوا بالاضافة الى ما تقدم ، قوما أميين ذوى خشونة وغلظة ، لا يعرفون من وسائل اللهو وامتاع النفس ، سوى القتال والطعام والشراب .

وهكذا وقع العبء كله فى انتاج الطعام وغيره من ضروريات الحياة على الزراع والصناع . وفى قمة النظام كله نرى الملك ، وكان مفروضا فيه أنه مولى للاله .

هذه كانت هى الفكرة من وراء النظام الاقطاعى . فنظريا كان على الأسياد الاقطاعيين أن يحموا مواليتهم وعبيدهم ، وعمليا كان أولئك الأسياد يعتبرون أنفسهم هم القانون . وقلما أوقفهم أسيادهم أو الملك عند حدهم . وكان الزراع أضعف من أن يقاوموا مطالبهم ، ولكونهم أقوى من عبيدهم استغلوهم وأخذوا من جهدهم أقصاه وأسلموهم الى حياة تعيسة بائسة .

ذلك كان حال ملاك الارض دائما وفى جميع الأقطار . فملكية

الأرض منحت مالكيها النبالة والشرف . فالفسارس اللص الذى استولى على أرض وبنى قصرا يتحصن به أصبح سيدا نبيلًا يحترمه الناس . وهذه الملكية منحت أربابها السلطان والنفوذ ، ولهذا استعمل مالك الأرض سلطانه ونفوذه فى أن يأخذ أقصى ما يستطيع أن يأخذ من الزارع والمنتج أو العامل . وحتى القوانين ساعدت ملاك الأراضى فى ذلك، لأن القوانين كانت من وضعهم هم وأصدقائهم . وهذا هو السبب فى أن كثيرين من الناس يرون أن الأرض يجب أن تكون ملكا شائعا للجميع، ممثلين فى الدولة، لئلا أفرادها إذا كانت الأرض ملكا للدولة أو الجماعة فذلك يعنى أنها ملك لكل أبناء الدولة ، ومن ثم لا يستطيع أحد أن يستغل الآخرين ممن يعملون فيها أو أن يحصل منها على منافع فيها اجحاف بالغير .

ولكن هذه الأفكار كانت لم تعرف ولم تشع بعد . فأهل العصر الذى نتكلم عنه لم يفكروا فى هذا الاتجاه . لقد كان عامة الناس وقتئذ بائسين ، ولكنهم لم يروا لأنفسهم مخرجا مما كانوا يقاسونه من بؤس وشقاء ، ولهذا تحملوا المشاق والصعاب ، وواصلوا حياة العمل الذى لا أمل فيه .

ان عادة الخضوع والطاعة ظلت تفرض وتلج عليهم حتى تأصلت فيهم ، وإذا حدث ذلك فإن الناس يكادون يتحملون أى شئ .

وهكذا نرى مجتمعا ينمو وقد تألف من الأسياد الاقطاعيين ومواليهم وخدمهم من جهة ، ومن الفقراء جدا من جهة أخرى . وحول قصر السيد الاقطاعى المشيد من الصخر كانت تتجمع أكواخ العبيد المقامة من اللبن أو الخشب . لقد كان هناك دنيبان تبعد أحدهما عن الأخرى كل البعد ، وأعنى بذلك دنيا السيد ، ودنيا العبد . ومن المحتمل أن السيد قد اعتبر العبد يبعد بعض درجات فقط عن الماشية التى يرعاها .

وقد حدث أحيانا أن حاول بعض القساوسة الصغار أن يحموا العبيد من ساداتهم ، ولكن القساوسة ورجال الدين على العموم كانوا يقفون فى صف الأسياد الاقطاعيين ، وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة فى الواقع ونفس الأمر أسيادا اقطاعيين .

وهذا النوع من النظام الاقطاعى لم يوجد عندنا فى الهند ، ولكن وجد شىء شبيه به . فالدول الهندية فى الحقيقة بحكامها ونسلاؤها وأسيادها لاتزال تحتفظ بعادات اقطاعية كثيرة . ونظام الطوائف الهندى مع اختلافه كل الاختلاف عن النظام الاقطاعى قد قسم المجتمع الهندى الى طبقات .

وفى الصين ، كما أظن أنى أخبرتك ، لم يوجد مطلقا نظام الحكم الفردى ، أو نظام الطبقة المفضلة ، كما هو الحال فى النظام الاقطاعى ، ولكنهم عن طريق نظامهم القديم القائم على أساس الاختبارات فتحووا الباب أمام كل فرد ليصل الى أعلى منصب ومركز . ولكن ربما كان هناك من الناحية العملية قيود كثيرة .

وهكذا لم يكن فى النظام الاقطاعى أى فكرة عن المساواة أو الحرية ، وإنما كان هناك فكرة عن الحقوق والالتزامات بمعنى أن يتلقى السيد الاقطاعى كحق له جزءا من انتاج الارض ، وأن يقوم له مواليه بكل ضروب العمل والخدمة . وفى مقابل ذلك ألزم نفسه حمايتهم . ولكن الحقوق تذكر دائما ، والالتزامات كثيرا ما تتجاهل . وانه لىوجد حتى الآن ملاك أراضى كبار فى الأقطار الأوربية وفى الهند ممن يحصلون على أموال طائلة من مستأجرى أراضيهم من غير أن يقوموا أنفسهم بعمل أى عمل . أما فكرة الالتزام فقد طال نسيانها .

وانه لشيء غريب أن نرى كيف أن قبائل أوربا البربرية التى كانت مغرمة بالحرية تسلم نفسها شيئا فشيئا الى النظام الاقطاعى الذى أنكر عليها الحرية انكارا تاما . لقد كانت هذه القبائل تنتخب

رؤساءها وتكبح من جماحهم اذا اقتضى الأمر ، أما الآن فينتشر الاستبداد وحكم الفرد فى كل مكان ، مع اهمال موضوع الانتخاب .

وليس من السهل أن أعلل لماذا حدث هذا التغير . فلعل العقائد والتعاليم التى نشرتها الكنيسة قد ساعدت على نشر هذه الأفكار غير الديمقراطية . فالملك أصبح ظل الله على الأرض . وكيف نستطيع أن نعصى أو نجادل ظل الاله القادر على كل شيء ؟ ويبدو أن النظام الاقطاعى قد أدخل السماء والأرض فى طياته .

وفى الهند أيضا نجد أن التصورات الآرية القديمة عن الحرية تتغير تدريجا ، وهى فى تغيرها هذا تصير أضعف فأضعف حتى لتكاد تنسى .

ولكن فى أوائل القرون الوسطى ، كما أوضحت لك من قبل ، كانت هذه التصورات لا تزال حية الى حد ما كما ينبئنا بذلك «نيتيسارا شكرا تشاريا»^(١) والكتابات والنقوش الموجودة فى جنوب الهند .

وقد عاد بعض الحرية فى بطن الى أوروبا عن طريق النظم الجديدة التى أخذت فى الظهور . فبجانب ملاك الأراضى وعمالها وأرباب القصور الاقطاعيين وعبيدهم ، كان هنا طبقتان أخريان من الصناع والتجار . وهؤلاء الصناع والتجار ، كما هم ، لم يكونوا جزءا من النظام الاقطاعى . وفى عهد الاضطراب والفوضى لم تزدهر الحرف والصناعات ، وكادت التجارة أن تنعدم . ولكن على توالى الأيام أخذت حركة التجارة تزداد شيئا فشيئا ، وأهمية الصناع والتجار تظهر وتنمو . ونتيجة لذلك أصبح هؤلاء الصناع والتجار أغنياء ، يقصدهم الاقطاعيون لاقتراض المال منهم . وكان الصناع والتجار

(١) كتاب هندي قديم عن النظرية السياسية . وقد كتب على صورة قصص ليقراها المهتمون بالسياسة من أمراء وغيرهم .
«المترجم»

يقرضونهم ، ولكنهم كانوا يصرون على سادة الاقطاع المقترضين منهم
أن يتنازلوا لهم عن بعض الامتيازات . وقد أدت هذه الامتيازات الى
زيادة الصناع والتجار قوة على قوة .

ولهذا نجد ، بدل أكواخ العبيد المتجمعة حول قصر السيد الاقطاعي ،
مدنا صغيرة تظهر وتنمو من منازل تحيط بكنيسة كبيرة أو صغيرة
أو قاعة عامة للمدينة . وقد بدأ الصناع والتجار يكونون نقابات أو
جمعيات ، واتخذوا مراكز رئيسية لها من القاعات العامة للمدن
والتي صارت تعرف فيما بعد بقاعات البلديات .

فهذه المدن التي أخذت في الظهور ، مثل كولونيا Cologne
وفرانكفورت وهامبورج ، أصبحت تنافس الأسياد الاقطاعيين في
قوتهم ونفوذهم .

في هذه المدن وأمثالها كانت طبقة جديدة تنمو ممثلة في الصناع
والتجار الذين بلغوا من الشراء حدا جعلهم يتحدثون حتى النبلاء . لقد
كان كفاحا طويلا ، وكثيرا ما كان الملك في حالة خوفه من نبلائه
يقف في صف المدن .

أشعر بهذا القول أنني مسرع الى الأمام أكثر مما ينبغي . لقد
حدثتك في مستهل هذه الرسالة بأن فكرة القومية أو الشعور
بالقومية ، لم يكن موجودا في تلك العصور البعيدة . وكل ما كان
هو أن الناس كانوا يفكرون في واجبهم وولائهم لسيدهم الأعلى .
لقد أقسموا على أن يخدموه هو ، لا أن يخدموا الوطن الذي ينتمون
اليه . وحتى الملك في تلك العصور كان شخصا غامضا وبعيدا جدا .
فاذا ثار السيد الاقطاعي ضد الملك ، كان هذا انذارا للملك بأن يأخذ
حذره ، لأن عبيد السيد الاقطاعي ومواليه يتبعونه في كل شيء .

وهذا كان شيئا مختلفا جدا عن فكرة القومية التي ظهرت وانتشرت
بعد ذلك بزمان طويل .

٧٢ — نهاية العصور الوسطى

أول يولية سنة ١٩٣٢

دعينا ننظر مرة ثانية الى أوروبا من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر . ويبدو أنه كان فى أوروبا فى هذه الفترة قدر هائل من الاضطراب والعنف والصراع . وكانت الأحوال وقتئذ فى الهند أيضا سيئة نوعا ، ولكن يغلب على الظن أن الهند كان يسودها الهدوء والسلام اذا ما قورنت بأوروبا .

فى تلك الفترة من التاريخ جلب المغول البارود الى أوروبا ، وبدأت الأسلحة النارية تستخدم فى القتال . وقد انتهز الملوك هذه الأسلحة فاستغلوها فى القضاء على نبلائهم الاقطاعيين الشائرين عليهم .

وكان من عادة النبلاء أن يشن بعضهم على بعض حروبا خاصة . واذا كانت هذه الحروب قد أضعفتهم ، فانها فى الوقت ذاته سببت الفزع والقلق والمتاعب لأهل اقطاعياتهم الخاصة . ولما ازداد الملك قوة وضع نهاية لتلك الحروب الخاصة التى كانت تنشب بين النبلاء أنفسهم . وفى بعض الأماكن قامت حروب أهلية بين اثنين متنافسين كل منهما يدعى التاج والملك لنفسه .

ففى انجلترا مثلا حدث صراع على الملك بين أسرتين : أسرة يورك وأسرة لانكاستر . فكل من هذين البيتين اتخذ وردة شعارا له . وكان شعار أحدهما وردة بيضاء وشعار الآخر وردة حمراء . ولهذا سميت

الحروب التى قامت بينهما « حروب الوردتين » . . وقد قتل فى هذه الحروب الأهلية عدد كبير من النبلاء الاقطاعيين ، كما قتل كثيرون منهم فى الحروب الصليبية .

وهكذا أمكن تدريجاً إخضاع النبلاء الاقطاعيين وكبح سلطانهم . ولكن هذا لم يعن أن السلطة التى كان يتمتع بها أولئك النبلاء قد انتقلت منهم الى العامة ، وإنما يعنى أن الملك هو الذى ازداد قوة على قوة . وقد ظل الشعب كما هو لم يطرأ عليه غير تحسن قليل بسبب قلة الحروب الخاصة التى كانت تقوم بين النبلاء . أما الملك فقد آلت إليه كل القوة ، واستحال الى ملك مستبد ، ولم يكن الصراع بينه وبين طبقة التجار الجديدة قد ظهر بعد .

وأفزع من الحرب وحتى من المذابح كان الطاعون الكبير الذى تفشى فى أوروبا نحو عام ١٣٤٨ ميلادية . لقد انتشر هذا الوباء فى جميع أرجاء أوروبا من روسيا وآسيا الصغرى الى انجلترا ، كما امتد الى مصر ، وشمال افريقية ، وآسيا الوسطى ثم الغرب .

وكان هذا الطاعون يسمى بالموت الأسود ، لأنه قضى على حياة الملايين من البشر ، وراح ضحيته نحو ثلث سكان انجلترا ، وفى الصين وغيرها كانت قائمة الوفيات هائلة . ومن العجيب المدهش أن هذا الطاعون لم يأت الى الهند .

وقد أدت هذه الكارثة الشنعاء الى نقص كبير فى سكان العالم . وفى جهات كثيرة لم يكن هناك من الأيدي العاملة ما يكفى لحث الأرض وزرعها . ونتيجة لقلة الرجال ، أخذت أجور العمال تميل الى الارتفاع بالقياس الى المستوى المنحط الذى كانت عليه من قبل . ولكن ملاك الأراضى وأرباب الملكيات تحكموا فى البرلمانات ، وأصدروا قوانين تقضى باجبار الناس على أن يعملوا بالأجور الضئيلة

القديمة دون مطالبة بأية زيادة • ولما بلغ استغلال الزراع والفقراء وظلمهم مبلغا يفوق طاقتهم واحتمالهم، لم يجدوا أمامهم الا أن ينثروا • وقد قامت ثورات الزراع هذه واحدة بعد الأخرى فى جميع أنحاء غرب أوربا •

وفى عام ١٣٥٨ قامت فى فرنسا ثورة فلاحين سميت Jacquerie وفى انجلترا وجدت ثورة « وات تيلور » Wat Tyler والتي قتل فيها « تيلور » أمام ملك الانجليز فى عام ١٣٨١ • وقد أخدمت هذه الثورات ، وكثيرا ما استدعى اخمادها استعمال منتهى القسوة والوحشية •

ولكن أفكارا جديدة عن المساواة كانت قد أخذت تنتشر فى بطن • فالناس كانوا يسألون أنفسهم : لماذا يتحتم أن يكونوا فقراء ، وأن يموتوا سغباً وجوعاً فى الوقت الذى يكون فيه الآخرون أغنياء ، ولديهم وفرة من كل شئ ؟ لماذا يكون بعض الناس سادة نبلاء ، ويكون الآخرون عبيدا ؟ ولماذا يرتدى بعض الناس أفخر الثياب ، ثم لا يجد من عداهم حتى الثياب المهلهلة البالية يسترون بها أنفسهم •

لقد انهارت فكرة الخضوع القديمة للسلطة والتي كانت أساس النظام الاقطاعى كله • ومن ثم ثار الزراع مرة اثر مرة ، ولكنهم كانوا ضعافا غير منظمين ، ولم تكن ثوراتهم تخمد الا ليندلع لهيبها من جديد فيما بعد •

وكانت الحروب بين انجلترا وفرنسا تكاد تكون سجلا متصلة • فمنذ أوائل القرن الرابع عشر الى منتصف القرن الخامس عشر ، كان بينهما ما يسمى بـ « حروب المائة سنة » • وكانت « برجندى » هى شرق فرنسا دولة قوية تتبع اسميا ملك فرنسا ، ولكنها كانت

دولة مشاغبة مثيرة للقلق والمشاكل . وقد تأمر الانجليز معها ومع دول أخرى ضد فرنسا . وحدث أن كانت فرنسا لفترة من الزمن محاصرة من كل الجهات ، كما حدث أن جزءا كبيرا من فرنسا الغربية كان لعهد طويل في حيازة انجلترا ، ولهذا بدأ ملك انجلترا يسمى نفسه ملك انجلترا وفرنسا .

وحيثما بلغت فرنسا أخط دركات اضمحلالها وضعفها وبدأت كأن الأمل قد تخلى عنها ، عاد الأمل والنصر اليها في صورة فتاة ريفية صغيرة هي جان دارك فتاة أورليانس .

وأنت تعرفين شيئا عن قصة جان دارك لأنها ، كما أعلم ، إحدى البطلات اللائي تعجبين بهن . فقد استطاعت جان دارك الفتاة الريفية أن ترد إلى أبناء وطنها اليائسين ثقتهم بأنفسهم ، وأن توحى اليهم بعمل عظيم هو طرد الانجليز من وطنهم . وكان جزاؤها أن حوكت أمام محكمة التفتيش التي قضت بإعدامها حرقا . فالانجليز بعد أن وقعت في أيديهم وتمكنوا منها جعلوا الكنيسة تدينها بالكفر وتحكم عليها بالإعدام ثم قاموا بحرقها في سوق مدينة « روان » عام ١٤٣٠ . وبعد ذلك بسنوات كثيرة نقضت الكنيسة الرومانية قرار الكنيسة السابق . ثم بعد عهد طويل اعتبروها قديسة !

لقد تكلمت جان دارك عن فرنسا وعن انقاذ وطنها من الأجنبي الدخيل ، فكان هذا نوعا جديدا من الكلام . ففي ذاك الوقت كان الناس متشبعين بالأفكار الاقطاعية ، ولم يكن يدور بخلدهم شيء عن القومية ، ولهذا أدهشهم كلام جان دارك عن الوطن والوطنية وقلما فهموها . ونستطيع أن نرى في فرنسا منذ عهد جان دارك مطالع القومية .

وعندما طرد ملك فرنسا الانجليز من بلاده التفت إلى « برجندى »

التي سببت له كثيرا من المتاعب والقلق . وقد استطاع أخيرا أن يخضع هذه الدولة القوية التابعة له وأن يصيرها منذ حوالى سنة ١٤٨٣ ميلادية جزءا من فرنسا . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل حطم أو كبح جماح كل نبلاء بلاده الاقطاعيين . وهكذا نرى ملك فرنسا يصير ملكا قويا .

ومنذ امتصاص فرنسا لبرجندى وجعلها جزءا منها نرى فرنسا وألمانيا تقفان وجها لوجه ، وتتصل حدود احدهما بحدود الأخرى . ولكن بينما كانت فرنسا ملكية مركزية قوية ، نرى ألمانيا ضعيفة منقسمة الى دول كثيرة .

وحاولت إنجلترا فتح سكتلندة التي كثيرا ما حاربت فى صف فرنسا ضدها ، وكان هذا أيضا كفاحا طويلا ، ولكن الاسكتلنديين بقيادة « روبرت بروس » هزموا الانجليز عام ١٣١٤ فى « بنوك بيرن » "Bannockburn"

وحتى قبل هذا التاريخ حاول الانجليز أكثر من مرة فى القرن الثانى عشر أن يفتحوا ارلندة . كان ذلك منذ سبعمائة سنة ، وكثيرا ما قامت فى ارلندة منذ هذا التاريخ حروب وثورات وارهابات . فهذا القطر الصغير أبى أن يخضع ويستسلم لسيطرة أو سيادة دولة أجنبية ، وقد ثار من جيل الى جيل معلنا أنه لن يخضع ويستسلم .

وفى القرن الثالث عشر ، أعلن شعب صغير من شعوب أوروبا ، هو الشعب السويسرى ، حقه فى الحرية . فسويسرا كانت تكون جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت تحكمها النمسا . ولا بد أنك قرأت قصة «وليام تل» William Tell وابنه ، ولكن المحتمل أن هذا ليس صحيحا . ولكن الأعجب من هذا هو قصة ثورة الفلاحين السويسريين ضد الامبراطورية الكبرى ورفضهم الخضوع لها . فقد ثارت أولا ثلاث مقاطعات وكونت فى عام ١٢٩١ ميلادية « عصبة

أبدية » كما سموها ، وقد انضمت اليهم مقاطعات أخرى ، وفي عام ١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية حرة تتكون من اتحاد مقاطعات مختلفة سمى بالاتحاد السويسرى . هل تذكرين شعل النيران التى شاهدناها على قمم جبال كثيرة فى سويسرا فى أول أغسطس ؟ لقد كان ذلك يوم السويسريين القومى ، وعيد ثورتهم الذى كانت الشعلة فيه شارة التمرد على الحاكم النمساوى .

وفى شرق أوروبا ، ماذا كان يحدث فى القسطنطينية ؟ تذكرين أن الصليبيين اللاتينيين استولوا على هذه المدينة من الاغريق سنة ١٢٠٤ ميلادية . ولكن الاغريق طردوهم منها سنة ١٢٦١ وأعادوا تأسيس الامبراطورية الشرقية مرة أخرى .

بيد أن خطرا آخر أكبر كان فى طريقه الى الظهور . ذلك أن المغول حينما تقدموا عبر آسيا فر من وجههم خوفا خمسون ألفا من الأتراك العثمانيين . وهؤلاء الأتراك العثمانيون يختلفون عن الأتراك السلاجقة ، ويمتتون الى عثمان مؤسس الدولة العثمانية . ومن ثم سموا بالعثمانيين أو « الأتراك العثملى »

وهؤلاء العثمانيون الفارون احتموا بالسلاجقة فى آسيا الغربية . ويبدو أن العثمانيين أخذوا فى القوة والانتشار حينما بدأ السلاجقة فى الضعف .

وبدل أن يهاجموا القسطنطينية ، كما فعل كثيرون غيرهم من قبل ، نراهم يمرون بها ويجتازونها الى أوروبا سنة ١٣٥٣ . وفى أوروبا نراهم ينتشرون انتشارا سريعا ويحتلون بلغاريا والصرب ، ويتخذون من « أدرنة » Adrianople عاصمة لهم . وهكذا انتشرت الامبراطورية العثمانية على جانبي القسطنطينية فى آسيا وأوروبا ، وأحاطت بها ، ولكن هذه المدينة ظلت خارجها .

بيد أن الامبراطورية الرومانية الشرقية المزهوة بنفسها وباللغة من العمر ألف سنة ظلت تنكمش وتنكمش حتى استحوالت فى النهاية الى مدينة القسطنطينية واقتصرت عليها وحدها . وعلى الرغم من ابتلاع الاتراك للامبراطورية الشرقية ، فان الصلات بين أسرتى السلاطين العثمانيين وأباطرة هذه الامبراطورية كانت - كما يبدو - صلات ود وصداقة ومصاهرة متبادلة . وأخيرا سقطت القسطنطينية فى أيدي الأتراك عام ١٤٥٣ ، ولهذا سنشير منذ الآن الى الأتراك العثمانيين ونلغى الاتراك السلاجقة من حسابنا .

ان سقوط القسطنطينية فى أيدي الأتراك العثمانيين كان حدثا تاريخيا خطيرا هز أوروبا هزا عنيفا . فسقوطها يعنى القضاء النهائى على الامبراطورية الشرقية الاغريقية القديمة التى دامت ألف عام ، كما يعنى غزوا اسلاميا آخر لأوروبا . وقد استمر توسع الاتراك العثمانيين ، حتى لقد بدا أحيانا أنهم سيفتحون كل أوروبا ، ولكنهم أوقفوا عند أبواب مدينة فينا .

وقد حول الأتراك العثمانيون كنيسة القديسة صوفيا الكبرى التى بناها الامبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى الى مسجد أسموه « أيا صوفيا » كما نهبت بعض نفائس هذه الكنيسة . وقد أثار هذا الحادث مشاعر أوروبا ، ولكنها وقفت حياله عاجزة لاتستطيع أن تفعل شيئا .

ومهما يكن من أمر فالواقع أن سلاطين الأتراك العثمانيين كانوا متسامحين جدا مع الكنيسة الاغريقية الأرثوذكسية، حتى أن السلطان محمد الثانى نصب نفسه بعد سقوط القسطنطينية راعيا للكنيسة الاغريقية . ثم جاء سلطان آخر يسمى سليمان القانونى واعتبر نفسه ممثلا لأباطرة الشرقيين ولقب نفسه بلقب القيصر الذى كان رمزا على السلطان والقوة فى القديم .

ولا يبدو أن اغريق القسطنطينية لم يرحبوا بالأتراك العثمانيين .
لقد رأوا أن الامبراطورية القديمة فى تدهور وانهايار . وفى الوقت
ذاته لم ينسوا أن تجربتهم مع الصليبيين اللاتينيين كانت تجربة
قاسية سيئة ، ولهذا آثروا الأتراك وفضلوهم على البابا وعلى مسيحيي
الغرب . ويروى أن نبىلا بيزنطيا قال أثناء حصار القسطنطينية
الآخر عام ١٤٥٣ : « ان عمامة النبى أفضل من تاج البابا المرصع
باللآلىء » .

وقد أنشأ الأتراك فرقة عسكرية غريبة تدعى « فرقة
الانكشارية » ^(١) ، وذلك بأن أخذوا بعض الأطفال المسيحيين ،
كنوع من الجزية المفروضة منهم على المسيحيين وربوهم ونشئوهم
منذ الصغر تنشئة عسكرية خاصة . لقد كان حرمان صبية
صغار من حنان الآباء والأمهات والتفريق بينهم ضربا من القسوة
والوحشية ، ولكن أولئك الصبية جنوا من وراء ذلك أيضا بعض
المزايا ، فقد تدربوا تدريبا عاليا ، وصاروا بهذا التدريب يمثلون
الارستقراطية العسكرية . وكان السلاطين العثمانيون ينظرون الى
فرقة الانكشارية على أنها دعامة من دعائم قوتهم .

وفى أسلوب مشابه تكونت فى مصر فرقة تدعى « المماليك » وهى
تقابل فرقة الانكشارية . وقد بلغ المماليك من القوة مبلغا جعلهم لفترة
من التاريخ سلاطين مصر وحكامها .

ويبدو أن السلاطين العثمانيين باستيلائهم على القسطنطينية قد
ورثوا عن سبقهم من الأباطرة البيزنطيين كثيرا من الفساد وعادات
الترف والبذخ السيئة . فنظام البيزنطيين الامبراطورى المنحط قد

(١) الانكشارى كلمة معناها الفدائى .

غشيتهم وأطبق عليهم حتى أوهن في بطن قوتهم وأضعفهم شيئا فشيئا . ولكنهم ظلوا حقة من الزمن أقوياء ، وظلت أوروبا المسيحية في خوف منهم .

كذلك فتحوا مصر ، واستولوا على لقب الخلافة من ممثل العباسيين الضعيف الذي لا حول له ولا قوة ، والذي كان يلعب وقتئذ بالخليفة . ومنذ ذلك الوقت أسمي السلاطين العثمانيون أنفسهم خلفاء ، واستمر الأمر كذلك حتى جاء مصطفى كمال باشا منذ عدة سنوات ، فألغى كلا من السلطنة والخلافة .

ان تاريخ سقوط القسطنطينية له اعتبار هام في التاريخ . فهو ينظر اليه على أنه نهاية عصر وبداية عصر آخر . فالعصور الوسطى قد انتهت ، وكذلك عصور الظلام التي دامت ألف سنة . ثم ظهرت حركة انتعاش في أوروبا ، وبدأنا نلمح في أفقها حياة ونشاطا جديدين . وهذا ما يسمى ببدء عصر النهضة ، أو عصر احياء العلوم والفنون .

فالناس في أوروبا يبدون وكأنما قد أفاقوا واستيقظوا من نوم طويل . ونراهم يرجعون بأبصارهم في الماضي عبر القرون الى اليونان القديمة ، أيام مجدها وعظمتها ، ليستمدوا منها الوحي والالهام . وتكاد تكون هناك ثورتان شنتهما العقل : ثورة على نظرة الحياة الكئيبة القائمة المرعبة التي تشجع عليها الكنيسة ، وثورة على السلاسل والأغلال التي تقيد النفس الانسانية . فحب الاغريق القديم للجمال يظهر ، وأوروبا تزهر بأعمال الفن الرائعة في التصوير والنحت والعمارة .

وكل ذلك لم يحدث بطبيعة الحال فجأة كنتيجة لسقوط القسطنطينية ، وانه لسخف من القول أن يزعم زاعم ذلك ان استيلاء

الاستراك على المدينة قد ساعد قليلا فى سرعة عجلة التغير ، ذلك لانه
أدى بعدد كبير من العلماء وذوى المعرفة الى أن يغادروا المدينة ويرحلوا
الى الغرب . وهؤلاء حملوا معهم الى ايطاليا نفائس الآداب والثقافة
الاغريقية فى الوقت الذى كان فيه الغرب متهيئا لأن يتقبلها
ويقدرها . بهذا المعنى ساعد سقوط المدينة قليلا فى ظهور النهضة .

ولكن هذا ليس الا سببا ثانويا من أسباب التغير الهام الخطير .
فالآداب والفكر الاغريقى لم يكن شيئا جديدا فى ايطاليا أو فى الغرب
المعروف فى القرون الوسطى . فالثقافة الاغريقية كان يدرسها الناس
فى الجامعات ، كما كان العلماء يعرفونها . ولكنها كانت قاصرة على
قلة قليلة ، ولعدم التثامها مع نظرة الحياة السائدة لم تنتشر .

السبب الأساسى هو أن ابتداء الشك فى عقول الناس مهد التربة
وهيأها فى بطن لبذور نظرة جديدة فى الحياة . فالناس كانوا غير
راضين عن الأوضاع ، كما كانت ، ومن ثم أخذوا يبحثون عن الأشياء
التي ترضيهم أكثر . وبينما كانوا فى حالة الشك والتوقع هذه
اكتشفت عقولهم فلسفة الاغريقى الجاهلية القديمة وشربت من أغوار
أدبها . وقد بدا لهم أن هذا هو ما كانوا ينشدونه ، ولهذا ملأهم
الاكتشاف حماسة .

ان بدء النهضة كان فى ايطاليا ، ولكنها انتشرت بعد ذلك فى
فرنسا وانجلترا وغيرهما ، ولم تكن النهضة مجرد اعادة اكتشاف
الفكر والآداب الاغريقى ، وانما كانت أكبر كثيرا وأعظم . لقد كانت
المظهر الخارجى لعملية الجيشان التي ظلت مختمرة تحت السطح فى
أوروبا عهدا طويلا ، وهذا الجيشان المختمر كان لا بد أن يظهر فى صور
شتى ، وكانت النهضة صورة من هذه الصور .

٧٣ — اكتشاف الطرق البحرية

٣ يوليو سنة ١٩٣٢

لقد وصلنا الآن فى حديثنا عن أوربا الى المرحلة التى أخذت عندها القرون الوسطى تنقرض وتزول وتفسح المكان لدنيا جديدة ونظام جديد . فى هذه المرحلة نرى عدم القناعة والرضا بالأحوال القائمة ، وهذا الشعور هو باعث التغير والتقدم . فكل الطبقات التى استغلها النظام الاقطاعى والنظام الدينى كانت تسودها حال من عدم القناعة والرضا .

فنحن نرى أن ثورات الزراع تأخذ طريقها الى الظهور . ولكن الزراع كانوا لا يزالون متخلفين ضعافا ، ولم يستطيعوا ، على الرغم من ثوراتهم ، أن يكسبوا لأنفسهم شيئا يذكر . فاليوم الذى يصبحون فيه قوة لها وزنها وحسابها كان لم يحن بعد .

والصراع الحقيقى كان بين الطبقة الاقطاعية القديمة وبين الطبقة الوسطى الجديدة التى بدأت تستيقظ وتشق سبيلها الى القوة والسلطة . فالنظام الاقطاعى كان قائما على أساس أن الأرض هى مصدر الثروة ، ولكننا نرى الآن أن نوعا جديدا من الثروة كان يتراكم ويتكدس وليس مصدره الأرض ، وانما كان مصدره الصناعة والتجارة ، وقد انتفعت الطبقة الوسطى الجديدة أو الطبقة البرجوازية بمصدر الثروة هذا واستمدت منه قوة .

وهذا الصراع كان فى الواقع صراعا قديما ، وما نرى الآن ليس
الا تغيرا فى المواقف النسبية لكل من الفريقين . فالنظام الاقطاعى ،
ولو أنه كان لا يزال مستمرا ، نراه يأخذ موقف الدفاع ، بينما
الطبقة البرجوازية الواثقة من قوتها الجديدة تقف موقف الهجوم .
ويدوم هذا الصراع والكفاح مئات من السنين يكون فى خلالها أكثر
فأكثر فى جانب الطبقة البرجوازية وصالحها ، وهو يتنوع فى أقطار
أوروبا المختلفة ، ففي أوروبا الشرقية لا يكاد يكون لهذا الصراع والكفاح
أثر ظاهر ملموس ، وانما تظهر الطبقة البرجوازية أول ما تظهر فى
غرب أوروبا .

فتحطيم الحواجز القديمة كان ايذانا بالتقدم فى اتجاهات وميادين
كثيرة . لقد كان ايذانا بالتقدم فى ميدان العلم ، وميدان الفن ،
وميدان الأدب ، وميدان العمارة ، وميدان الاكتشافات الحديثة .
فالتقدم يحدث دائما على هذا النحو عند ما تحطم النفس الانسانية
أغلالها وتخرج من محيطها الضيق المحدود الى عوالم فسيحة منبسطة،
وحتى فى الهند بلادنا سنرى عند ما تعود الحرية اليها أن شعبنا
سينطلق بعبقريته وينتشر فى كل الاتجاهات والميادين .

وعند ما يتراخى ويضعف نفوذ الكنيسة وسلطانها نرى الناس
أقل انفاقا على الكنائس الكبيرة والصغيرة وأضن بالمال من أن يذهب
فى هذا الاتجاه . وبدل تشييد الكنائس نرى مباني جميلة تظهر فى
أماكن كثيرة ، ولكنها لا تعدو قاعات بلديات أو ما أشبه ذلك . كذلك
نرى الطراز القوطى فى البناء يتقهقر ويحل محله طراز جديد .

وفى الوقت الذى كانت فيه أوروبا الغربية ممثلة بنشاط جديد
بدأ بريق ذهب الشرق يخطف الأبصار ويغرى به ذوى الطموح .
فقصص « ماركوبولو » وغيره من الرحالة الذين رحلوا الى الهند

والصين أثارت خيال أوروبا ، ودفعت الى البحر بكثيرين ممن يطمعون
فى الثراء الذى لا يحد ولا يوصف .

وفى هذا الوقت سقطت القسطنطينية، وتحكم الأتراك العثمانيون
فى الطرق البرية والبحرية المؤدية الى الشرق ، ولم يشجعوا التجارة
كثيرا . وقد استفز موقف الأتراك هذا غضب التجار الكبار والصغار ،
كما أثار حفيظة طبقة المخاطرين الجديدة ممن يحلمون بذهب الشرق
ويطمعون فى الحصول عليه . ومن ثم حاولوا اكتشاف طرق جديدة
توصلهم الى الشرق الذهبى .

ومن المسلم به أن كل تلميذ فى مدرسة يعرف الآن أن الأرض
التي نعيش عليها كروية الشكل وأنها تدور حول الشمس ، هذا
شئ واضح لنا جميعا، ولكنه لم يكن واضحا جدا فى العصور القديمة،
وكان كل من يفكر على هذا النحو أو يقول مثل هذا القول يسبب
لنفسه المشاكل والمتاعب مع الكنيسة .

ولكن على الرغم من خشية الكنيسة والخوف منها أخذ عدد من
يقولون بكروية الأرض يتزايد ويتزايد ، ومن هؤلاء من قال : « اذا
كانت الأرض كروية فلا بد أن يكون الوصول اذن الى الهند والصين
من جهة الغرب ممكنا » . وقد رأى فريق آخر امكانية الوصول الى
الهند بالطواف حول افريقية .

ويجب أن نتذكرى أن قناة السويس لم تكن موجودة وقتذاك ،
وأن السفن لم تكن تستطيع أن تذهب من البحر الأبيض المتوسط
الى البحر الأحمر . انما كانت السلع والبضائع تنقل بين هذين
البحرين عن طريق البر محمولة فى الغالب على ظهور الابل والجمال
حيث تنتظرها على كلا الجانبين فى البحر الأبيض المتوسط والبحر

الأحمر سفن جديدة تنقلها الى حيث يراد لها أن تصل شرقا وغربا .
وقد أصبح هذا الطريق أكثر صعوبة بعد استيلاء تركيا على الشام
ومصر .

ولكن الطمع فى الحصول على غنى الهند وخيراتها ظل يغرى الناس
ويستثيرهم ويجتذبهم . وقد كانت اسبانيا والبرتغال أسبق دول
الغرب الى الاضطلاع بأسفار البحر والاكتشافات ، فاسبانيا فى ذاك
العهد كانت قد طردت آخر من بقى من عرب الأندلس فى غرناطة .
وزواج فرديناند صاحب أراجونه من ايزابلا صاحبة قشتالة وحد
اسبانيا المسيحية . وفى عام ١٤٩٢ أى بعد أن استولى الأتراك على
القسطنطينية على الجانب الآخر من أوروبا بنحو خمسين سنة سقطت
غرناطة العربية ، وأصبحت اسبانيا عقب ذلك دولة مسيحية كبرى
فى أوروبا .

ثم نرى المنافسة تظهر بين البرتغال واسبانيا ، فالبرتغاليون
يحاولون الوصول الى الشرق والاسبانيون يحاولون الوصول الى
الغرب ، وكان أول تقدم كبير هو اكتشاف البرتغاليين للرأس
الأخضر . فهذا الرأس واقع فى أقصى غرب افريقية ، فاذا نظرت
الى خريطة افريقية فانك ستترين أن الانسان اذا أبحر من أوروبا الى
هذا الرأس فانه سيتجه الى الجنوب الغربى ، وعند رأس فردى يطوف
الانسان حول الزاوية ومن هناك يتجه الى الجنوب الشرقى . فاكتشاف
هذا الرأس كان علامة على الرجاء القوى ، لأنه جعل الناس
يعتقدون أن فى امكانهم أن يطوفوا حول افريقية فى اتجاههم الى
الهند .

على أية حال لقد مرت أربعون سنة أخرى قبل أن يتمكن الناس
من الطوفان حول افريقية . وفى عام ١٤٨٦ أبحر برتغالى آخر يدعى

« برثلوميو دياز » وطاف حول طرف افريقية الجنوبي، وهذا الجزء هو ما يعرف الآن برأس الرجاء الصالح . وبعد هذا التاريخ بسنوات قليلة استغل برتغالي آخر يدعى « فاسكو دا جاما » هذا الاكتشاف وأبحر الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد وصل فاسكو دا جاما « كاليكوت » على شاطئ « مالابار » عام ١٤٩٨ .

وهكذا فاز البرتغاليون في سباق الوصول الى الهند . ولكن في الوقت ذاته كانت هناك أشياء عظيمة هامة تعود بالنفع على اسبانيا تحدث على الجانب الآخر من العالم . فكرستوفر كولومبوس كان قد وصل الى العالم الأمريكى عام ١٤٩٢ ، وكولومبوس هذا كان رجلا فقيرا من أهل « جنوه » ، ولما كان يعتقد بكروية الأرض فانه أراد أن يصل الى اليابان والهند عن طريق البحر غربا ، ولم يفكر أن الرحلة تستغرق من الزمن بمقدار ما استغرقت فعلا . وقد ظل يتنقل من بلاط ملك الى بلاط ملك آخر لعله يستطيع أن يجد ملكا أو أميرا يعينه على تحقيق رحلته الاستطلاعية ، وفى النهاية وافق فرديناند وايزابلا ملكا اسبانيا على مساعدته وبدأ كولومبوس رحلته فى قافلة مؤلفة من ثلاث سفن صغيرة عليها ثمانية وثمانون بحارا .

لقد كانت رحلة الى المجهول تجلت فيها الشجاعة والمخاطرة ، فلم يكن أحد يدري ماذا كان يكنه القدر له فى الطريق ، ولكن كولومبوس كان مؤمنا . وكان له ما يبرر ايمانه . وبعد تسعة وستين يوما من ابحاره وصل كولومبوس ورجاله الى أرض ظنها الهند ، ولكنها كانت فى الواقع إحدى جزائر الهند الغربية .

وكولومبوس لم يصل أبدا الى القارة الأمريكية ، ولكنه ظل يعتقد الى آخر حياته أنه وصل الى آسيا ، وقد استمرت غلطته الغربية هذه حتى اليوم ، فهذه الجزائر لاتزال تدعى جزائر الهند الغربية، ولايزال

سكان أمريكا الأصليون حتى الآن يسمون بالهنود أو الهنود الحمر .

ثم عاد كولومبوس الى أوروبا ، وفي العام التالى لعودته أبحر الى الجزيرة التى اكتشفها فى قافلة من السفن أكثر عددا من القافلة الأولى .

ان اكتشاف الطريق الجديد الى الهند ، كما كان يعتقد وقتذاك ، أثار اهتمام أوروبا اثارة شديدة ، وقد دفع نجاح كولومبوس فاسكو دا جاما الى أن يسرع فى رحلته ويصل الى « كاليكوت » . وكان ورود أنباء الاكتشافات الجديدة فى الشرق والغرب الى أوروبا يهز مشاعر أهلها ويزيد من اهتمامهم وحماسهم .

وكانت اسبانيا والبرتغال تنافس كل منهما الأخرى على سيادة ما اكتشف من الأراضى الجديدة . عندئذ ظهر البابا على المسرح . ولكى يمنع أى صراع بين الاسبانيين والبرتغاليين ، قرر أن يكون كريما على حساب غيره من الناس . وفى عام ١٤٩٣ أصدر أمرا بابويا يدعى أمر الحد الفاصل ، فقد رسم خطا أو حدا وهميا من الشمال الى الجنوب ويمتد مائة فرسخ غرب جزائر الأزور ، وأعلن أن سيادة البرتغال تتضمن كل الأقطار غير المسيحية حتى شرق هذا الحد الخيالى ، وأن سيادة اسبانيا تتضمن كل ما هو غرب هذا الحد من الأقطار . وهذه هدية عظيمة من البابا لاسبانيا والبرتغال تتضمن كل العالم تقريبا ما عدا أوروبا ، وفى الوقت نفسه لم تكلفه هو أى شيء !

والأزور جزائر فى المحيط الأطلسى ، والحد الذى يمتد مائة فرسخ أو ثلثمائة ميل غربها من شأنه أن يترك كل أمريكا الشمالية ومعظم أمريكا الجنوبية للغرب . وهكذا جعل البابا من الأمريكتين تقريبا

هدية لاسبانيا ، ومن الهند والصين واليابان وغيرها من الأقطار الشرقية وكذلك افريقية هدية للبرتغال .

وقد بدأ البرتغاليون يستولون على هذا الملك أو العالم الشاسع المتراعى الأطراف ، ومع أن هذا الأمر لم يكن سهلا فانهم تقدموا بعض التقدم واستمروا يتوسعون شرقا ، وقد بلغوا « جوا » عام ١٥١٠ ، و « ملقا » فى شبه جزيرة الملايو عام ١٥١١ ، و « جاوا » بعد هذا التاريخ بقليل ، والصين عام ١٥٧٦ . وليس معنى هذا أنهم استولوا على هذه الأقطار ، وانما معناه أنهم استولوا على بعض أماكن قليلة فيها . أما الدور الذى قاموا به فيما بعد فى الشرق فسيكون موضوع رسالة قادمة .

ومن بين البرتغاليين الذين وفدوا الى الشرق رجل يدعى «فرديناند ماجيلان» ، وقد حدث أن اختلف ماجيلان هذا مع أسياده البرتغاليين ، ولهذا عندما عاد الى أوروبا اكتسب الجنسية الاسبانية وصار اسبانيا . ولما كان قد رحل الى الهند والجزائر الشرقية بالطريق الشرقى مارا برأس الرجاء الصالح فانه أراد أن يذهب الى الهند والجزائر الشرقية مرة أخرى بالطريق الغربى مارا بأمريكا ، ومن المحتمل أنه عرف أن الأرض التى اكتشفها كولومبوس لا يمكن أن تكون آسيا . وقد حدث فى الواقع أن اسبانيا اسمها « بلبوا » عبر عام ١٥١٣ جبال بنما Panama فى أمريكا الوسطى ووصل الى المحيط الهادى ، ولسبب غير معروف سمي « بلبوا » هذا المحيط البحر الجنوبى ، ثم وقف على شاطئه وأعلن أن البحر الجديد وكل الأرض التى يحيط بها مأواه انما هى ملك لسيده ملك اسبانيا .

وفى عام ١٥١٩ بدأ ماجيلان رحلته الغربية والتى تعتبر أكبر وأعظم هذه الرحلات جميعا ، وقد تألفت قافلته من خمس سفن

ومائتين وسبعين رجلا . وبهذه القافلة عبر المحيط الأطلسي الى أمريكا الجنوبية واستمر متجها جنوبا حتى وصل الى نهاية القارة ، ولم يفقد في كل هذه الرحلة غير سفينتين ، احدهما غرقت والاخرى لاذت بالهرب والفرار . وبالسفن الثلاث الباقية عبر ماجيلان المضيق الضيق بين الطرف الجنوبي لقارة أمريكا الجنوبية وجزيرة أرض النار، وخرج الى البحر على الجانب الآخر . وقد سمى ماجيلان هذا البحر « المحيط الهادي » لأنه كان هادئا جدا بالقياس الى المحيط الأطلسي . أما المضيق فأطلق عليه اسمه، ويعرف الآن باسم «مضيق ماجيلان» .

ثم استمر ماجيلان مبحرا بشجاعة صوب الشمال ثم الشمال الغربي عبر البحر المجهول ، وكان هذا أخطر جزء في الرحلة التي لم يدر ولم يقدر أحد أنها ستستغرق كل الوقت الذي استغرقته ، وقد ظلوا وسط المحيط نحو أربعة أشهر ، أو على التحديد مائة يوم وثمانية أيام يعيشون على قليل من الزاد والماء .

وأخيرا وبعد حرمان شديد وصل ماجيلان ورفاقه الى جزائر الفيلبين ، وقد أحسن سكان هذه الجزائر لقاءهم وأمدوهم بالطعام وتبادلوا الهدايا معهم ، ولكن الاسبانيين كانوا مستفزين متغطرسين، وقد اشترك ماجيلان في بعض حروب صغيرة نشبت بين زعيمين من زعماء هذه الجزائر وقتل فيها ، كذلك قتل سكان هذه الجزائر بعض الاسبانيين بسبب موقفهم المتغطرس المتعجرف .

وكان الاسبانيون يبحثون عن جزائر التوابل التي ترد منها التوابل النادرة الثمينة . وقد استمروا يبحثون عنها ، وأثناء ذلك عطبت احدى السفن الثلاث الباقية ولما يئسوا منها أحرقوها . عندئذ قرروا أن تعود احدى السفينتين الباقيتين الى اسبانيا عن طريق المحيط الهادي ، وأن تعود الاخرى عن طريق رأس الرجاء الصالح .

ولكن لم تكد السفينة الأولى تبخر قليلا عائدة الى اسبانيا حتى أسرها البرتغاليون . أما السفينة الثانية واسمها « فيتوريا » فمضت في سبيلها زاحفة حول افريقية حتى وصلت « اشبيلية » في اسبانيا وعليها ثمانية عشر رجلا فقط عام ١٥٢٢ ، أى بعد ثلاث سنوات من إبحارها . لقد طافت حول العالم ، وكانت أول سفينة فعلت ذلك .

أشعر بأنى كتبت فى شىء من الاسهاب عن رحلة السفينة «فيتوريا» لأنها كانت فى الواقع رحلة عجيبة . ونحن الآن نعبّر البحار على سفن كبيرة مزودة بكل وسائل الراحة ، ولكن فكرى فى أولئك الرحالة الإوائل الذين واجهوا كل أنواع المخاطر والأهوال ، والذين ألقوا بأنفسهم فى المجهول ، ثم اكتشفوا الطرق البحرية لمن جاء بعدهم . ان الاسبانيين والبرتغاليين فى تلك العصور كانوا متكبرين ومتعجرفين ومتوحشين ، ولكنهم كانوا ممثلين بروح المخاطرة وكانت شجاعتهم تستدعى العجب والاعجاب .

وبينما يطوف ماجيلان حول العالم كان كورتيز Cortés يدخل مدينة المكسيك ويغزو الامبراطورية الاثتكية باسم ملك اسبانيا . لقد حدثتلك قليلا من قبل عن هذه الامبراطورية وعن الحضارة المايوية التى ظهرت فى أمريكا . وقد وصل كورتيز المكسيك عام ١٥١٩ ، ووصل « بيزارو » Pizarro امبراطورية الانكا حيث بيرو Peru الآن فى أمريكا الجنوبية عام ١٥٣٠ . وقد نجح كورتيز وبيزارو فى القضاء على هاتين الامبراطوريتين القديمتين بالشجاعة والجرأة والغدر والوحشية واستغلال الخلافات الداخلية التى كانت بين أبنائهما ، ولكن كلتا الامبراطوريتين كانت متخلفة عن عصرها ، وكانت من بعض النواحي بدائية جدا ، وهكذا انهارتا كما ينهار بيت من الورق المقوى عند أول دفعة .

والى حيث ذهب الرواد والمستكشفون الكبار خرجت جيوش من المجازفين المخاطرين طمعا فى السلب والنهب والغنائم . وقد قاست أمريكا الاسبانية خاصة من هؤلاء ، حتى كولومبوس عومل منهم أسوأ معاملة، وفى الوقت نفسه تدفق سيل الذهب والفضة بلا انقطاع على اسبانيا من بيرو والمكسيك ، فالكميات الهائلة التى كانت تصل الى اسبانيا من هذين المعدنين النفيسين أذهلت أوروبا وخطفت ببريقها ولأئها أبصار أهلها وجعلت اسبانيا دولة أوروبا السائدة .

وقد انتشر هذا الذهب وهذه الفضة فى أقطار أوربية أخرى، ولهذا كان هناك وفرة من المال تستخدم فى شراء منتجات الشرق .

وكان طبيعيا أن يلهب نجاح اسبانيا والبرتغال أخيلة الشعوب فى أقطار أخرى ، ولاسيما فى فرنسا وانجلترا وهولندا والمدن الألمانية الشمالية . لقد أجهدوا أنفسهم أول الأمر فى أن يجدوا طريقا لآسيا وأمريكا بواسطة طريق شمالى شمال النرويج يؤدى الى الشرق ، وعن طريق الأرض الخضراء « جرينلاند » الى الغرب ، ولكنهم فشلوا فى هذا . فلم يكن أمامهم الا أن يتخذوا الى الشرق والغرب الطرق التى صارت معروفة مألوقة .

فما أعجب هذا العصر الذى بدت فيه الدنيا وكأنما تكشف عن نفسها وتظهر كل كنوزها وعجائبها ! ففيه بدأت الاكتشافات الجديدة تتوالى واحدا بعد الآخر من محيطات وقارات ، وفيه الغنى الذى لا يعد ولا يحصى ينتظر كلمة السر السحرية : « افتح يا سمسم » ! ولا بد أن الهواء نفسه كان يشيع فيه سحر تلك المخاطر .

ان الدنيا فى عصرنا الحاضر مكان ضيق ، ولا يكاد يكون هناك أجزاء منها لم تكتشف بعد . هكذا يبدو الامر . ولكن ذلك ليس كذلك ، لان العلم قد فتح آفاقا وعوالم كبيرة تنتظر من يرودها ويكشفها . أما روح المخاطرة فلا تنقص الدنيا اليوم ، ولاسيما الهند!

٨٧ — انجاثرة تقطع رأس ملكها



٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٢

سنشغل الآن بعض وقتنا بالحديث عن تاريخ انجلترة • ولم يكن تغاضينا عن ذلك من قبل الا لانه لم يكن فى انجلترة خلال العصور الوسطى شىء هام يستحق الذكر ، فقد كانت أكثر تخلفا من فرنسا وإيطاليا •

على أية حال ان جامعة أكسفورد كانت قد أصبحت أحد مراكز العلم الشهيرة ، ثم تلتها بعد قليل فى الشهرة والمكانة العلمية جامعة كمبردج • والفضل يرجع الى جامعة أكسفورد فى اخراج «وايكليف» Wycliffe الذى كتبت لك عنه من قبل •

والاهتمام الرئيسى فى تاريخ الانجليز القديم يتمركز حول تطور البرلمان والحياة البرلمانية ، فمنذ العصور الأولى والتبلاء الانجليز يبذلون الجهد فى الحد من قوة الملك وسلطته • وفى هذا السبيل ظهر « الماچنا كارتا » عام ١٢١٥ ، وفيما بعد ذلك بقليل أخذت بوادر البرلمان تلوح فى الأفق ، ولو أنها كانت بوادر فجأة •

لقد تمثل أول طور لبرلمانها فى مجلس لوردات مكون من النبلاء والأساقفة الكبار ، ثم تلا ذلك طور أكثر أهمية تمثل فى مجلس

منتخب من الفرسان وملاك الأراضى الصغار وبعض الممثلين للمدن .
وفيما بعد تطور هذا المجلس المنتخب الى ما يعرف الآن بمجلس
العموم ، وقد مثل كلا هذين المجلسين ملاك الأراضى والأغنياء
والتجار .

وكان لمجلس العموم سلطة قليلة ، وقد تقدم أعضاؤه بالتماسات
الى الملك ضمنوها مطالبهم وشكاياتهم ، وشيئا فشيئا بدءوا يتدخلون
فى الضرائب . وكان من الصعب أن تفرض أو تجبى ضرائب جديدة
دون موافقتهم ، ولهذا استن الملك تقليدا جديدا هو الحصول على
موافقتهم فى كل ما يتصل بالضرائب .

ان قوة المال قوة عظيمة دائما ، ولهذا ازداد البرلمان ، ولا سيما
مجلس العموم ، قوة وهيبة بمقدار ما اكتسبه من حق مراقبة الشئون
المالية والتصديق عليها .

وكثيرا ما كان هناك خلاف بين الملك ومجلس العموم، ولكن البرلمان
ظل أداة ضعيفة ، بيد أن حكام العهد التيودورى ، كما أخبرتك ،
كانوا ملوكا لا معقب على حكمهم تقريبا ، وقد استطاعوا بذكائهم
ومهارتهم أن يتفادوا الدخول مع البرلمان فى صراع سافر .

لقد نجت انجلترا من شتى أنواع الصراع الدينى المؤلم التى كانت
منتشرة فى أوروبا . نعم حدث فيها كثير من الاضطراب والصراع
والتعصب الدينى ، وحدث أن حكم فيها بالموت حرقا على عدد هائل
من النساء لاعتبارهن ساحرات ، ولكن انجلترا كانت تعتبر على الرغم
من ذلك مكانا هادئا اذا قورنت بأوروبا .

وكان مفروضا أن تنقلب انجلترا فى عهد هنرى الثامن بروتستانتية،
ولكن كان فيها بطبيعة الحال كثيرون من الكاثوليك وكثيرون من

البروتستانت المتعصبين أيضا . على أية حال كانت الكنيسة الانجليزية الجديدة شيئا وسطا بين المذهبين ، كانت تسمى نفسها بروتستانتية ، ولكن ربما كانت كاثوليكية أكثر منها بروتستانتية . وفي الحقيقة كانت ادارة حكومية على رأسها الملك . وقد انفصلت انفصالا تاما عن كنيسة رومة ، وقامت فيها ثورات كثيرة ضد البابا .

وقد استهوى اكتشاف طرق الملاحة الجديدة للشرق وأمريكا كثيرين من الانجليز في عهد الملكة اليصابات ابنة هنري الثامن ، كما افتتح هذا الاكتشاف أمامهم فرصا جديدة ، ومن شدة افتتان انجلترا بنجاح البحارة الاسبان والبرتغال ، ولطمعها في الثراء الذي يمكن الحصول عليه نراها تخرج الى البحار للملاحة فيها .

وفي أول الأمر نرى السير فرانسيس دريك وآخرين مثله ينقلبون قراصنة في البحار ، حيث ينهبون السفن الاسبانية القادمة من أمريكا ، وبعد ذلك نرى دريك يقوم برحلة جبارة حول العالم ، ثم نرى السير وولتر رولي Raleigh يعبر المحيط الأطلسي ويحاول أن يقيم مستعمرات على الشاطئ الشرقي لما يعرف الآن بالولايات المتحدة . وكان هذا الجزء يسمى فرجينيا كذكرى لايصابات الملكة العذراء . وكان رولي أول من نقل عادة تدخين التبغ من أمريكا الى أوروبا .

ثم ظهر الأسطول الاسباني المعروف بالأرمادا ، ولكن الفشل التام الذي منى به هذا الأسطول شجع انجلترا الى درجة كبيرة .

ولم يكن لكل هذا كبير أثر في الصراع الذي كان قائما على قدم وساق بين الملك والبرلمان ، اللهم الا أنه أبقى عقول الناس مشغولة ، ولاسيما بالشئون الخارجية . ولكن حتى في العصور التيودورية كانت الاضطرابات والقلقل تختمر تحت السطح الظاهري .

ويتميز عهد اليصابات بأنه أحد العهود المشرقة في انجلترا ،
فاليصابات كانت ملكة عظيمة ، وفي عهدها ظهر كثيرون من عظماء
الرجال . وأعظم من الملكة وفرسانها المخاطرين ، كان الشعراء
وكتاب المسرحيات الذين ظهروا كالابراج الشوامخ في هذا الجيل
وعلى رأسهم وليام شكسبير الخالد ، فمسرحياته معروفة بطبعا للعالم
حتى اليوم ، وان كنا نعرف القليل عنه شخصيا . لقد كان أحد
الشموس المتألقة التي أثرت اللغة الانجليزية وأغنيتها بالدرر الغوالي
التي ملأناها بالانشراح والبهجة والفرح . حتى قصائده الغنائية
الصغيرة عن عصر اليصابات لها جمال خاص لا يوجد في أشعار غيره.
من الشعراء . ففي أبسط وأعذب لغة تخطو مقطوعاته الغنائية في
خطى خفيفة سريعة مرحة تحدثنا عن أحداث كل يوم بطريقتها الخاصة .

وقد حدثنا ليتون استريتشي الناقد الانجليزي عن « هذا الرعيل
الفائق من الاليزابيثيين الذين استطاعت روحهم الفتية العظيمة أن
تنفخ انجلترا في مدى جيل واحد معجز بأروع ما عرف العالم من
تراث المسرحية » .

لقد توفيت اليصابات عام ١٦٠٣ أي قبل وفاة « أكبر » العظيم
في الهند بسنتين . ثم تبوأ العرش بعدها ملك اسكتلندة في ذاك
الوقت لأنه هو الذي كان يليها فرضا في أحقيته بالملك ، وقد عرف
هذا الملك باسم جيمس الأول : وبذلك أصبحت انجلترا واسكتلندة
مملكة واحدة . وهكذا تحقق بالسلام ما لم تستطع انجلترا أن تحققه
بالحرب والقوة .

وكان جيمس الأول يؤمن بحق الملوك الالهى ويكره البرلمان . ولم
يكن في ذكاء اليصابات ومهارتها ، ولهذا فسرعان ما نشأ الخلاف
بينه وبين البرلمان . وفي عهده حدث ان كثيرين من البروتستانت،
المتشدددين رحلوا عن انجلترا وطنهم نهائيا ، وأبحروا عام ١٦٢٠

على سفينة تدعى « زهرة مايو » ليستقروا فى أمريكا ، فهؤلاء كانوا قد اعترضوا على طريقة جيمس الأول الاستبدادية ، كما كرهوا كنيسة انجلترا الجديدة ولم يعتبروها بروتستانتية الى درجة كافية ، ومن ثم هجروا بيوتهم ووطنهم وأبحروا الى الأرض الجديدة البرية عبر المحيط الأطلسى .

وقد نزل هؤلاء على الشواطىء الشمالية فى مكان أسموه « بليموث الجديدة » ثم تبعهم عدد أكثر من المستعمرين ، وشيئا فشيئا زاد عدد المستعمرات حتى بلغ ثلاث عشرة مستعمرة على امتداد الشاطئ الشرقى . وهذه المستعمرات نمت وتطورت الى ما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية ، مجتازة فى سبيل تحقيق ذلك طريقا طويلا .

وفى عام ١٦٥٢ اعلى العرش شارل الأول بعد أبيه جيمس الاول ، وسرعان ما وصلت الأحوال بعد ذلك الى حد تطلب عملا حاسما . ولهذا رفع اليه البرلمان عام ١٦٢٨ « عريضة الحق » التى هى أشهر وثيقة فى التاريخ الانجليزى . فى هذه العريضة أخبر الملك أنه ليس ملكا مطلقا ، وأن هناك أشياء كثيرة لا يستطيع أن يفعلها وليست من حقه ، فهو لا يستطيع وليس من حقه أن يفرض ضريبة ، أو أن يسجن الناس بلا سند قانونى . كما حرموا عليه أن يرتكب فى القرن السابع عشر ما كان يرتكبه حاكم الهند الانجليزى فى القرن العشرين من اصدار قوانين يسجن الناس بمقتضاها .

وقد ضائق شارل أن يحدد له ما يستطيع وما لا يستطيع أن يفعله ، ولهذا حل البرلمان وحكم بدونه . وعقب ذلك ببضع سنوات كان فى حاجة قصوى الى المال ، ولما لم يجد مخرجا لما هو فيه من عسر دمالى اضطر الى استدعاء برلمان آخر .

ولم يمر حل البرلمان مرورا عابرا سهلا ، فالواقع أن ما كان يفعله شارل بدون البرلمان وفي غيبته قد أحدث استياء وغلظبا شديدين ، ومن ثم كان البرلمان الجديد متلهفا ومتأهبا للدخول في قتال معه .

وفي خلال عامين ، وعلى التحديد في عام ١٦٤٢ ، اندلعت نار الحرب الأهلية بين الملك من جانب يؤيده كثيرون من النبلاء ، وجزء كبير من الجيش ، والبرلمان من جانب آخر يؤيده التجار الأغنياء ومدينة لندن .

وقد استمرت هذه الحرب بضع سنوات حتى ظهر في الجانب البرلماني قائد عظيم يسمى « أوليفر كرومويل » . كان كرومويل منظما بارعا ، وأستاذا صارما في ضبط النظام ، ورجلا مفعما بالحماسة الدينية من أجل القضية التي كان يحارب من أجلها .

وقد قال كارليل عن كرومويل : « وفي مخاطر الحرب السوداء ، وفي مواقع الميدان الكبرى ، كان الأمل يشتعل في صدره كأنه عمود من نار في الوقت الذي يخبو فيه الأمل من صدور الآخرين » .

وقد بنى كرومويل جيشا أسماه « الجيش الحديدي » وبث في نفوس جنوده من حماسته وصرامته في النظام . وقد واجه غلاة المتدينين في جيش البرلمان فرسان شارل ، وأخيرا انتصر كرومويل وأصبح الملك شارل سجينا للبرلمان .

وأراد كثيرون من أعضاء البرلمان أن يصلوا مع الملك الى حل وسط ، ولكن جيش كرومويل الجديد لم يصغ الى هذا ، وتقدم ضابط من هذا الجيش اسمه « برايد » بشجاعة الى داخل البرلمان وطرد كل الأعضاء الذين نادوا بالحل الوسط ، وقد عرفت عملية التطهير هذه بعملية تطهير « برايد » . لقد كانت علاجا عنيفا ولم تكن مشرفة جدا للبرلمان .

فاذا كان البرلمان قد اعترض على استبداد الملك ، فهنا هي
قوة أخرى ، ممثلة في جيشهم هم ، لم تكثر أي اكرات بمراوغاتهم
القانونية . وهذا هو طريق الثورات .

وقد دعت البقية الباقية من أعضاء مجلس العموم البرلمان المحتقر
وقرروا محاكمة شارل على الرغم من اعتراض مجلس اللوردات ،
وحكموا عليه بالاعدام على أنه طاغية وخائن وسفاك للدماء وعدو لوطنه .
وفي عام ١٦٤٩ وفي «هوايت هول» بمدينة لندن قطع الإنجليز رأس
هذا الرجل الذي كان ملكهم ، والذي تكلم عن حقه الإلهي في أن يحكم .

فالملوك يموتون كما يموت سائر الناس . وكثيرون منهم في التاريخ
قد ماتوا حقا ميتات شنيعة منكرة . فالاستبداد والملكية يولدان
الاغتيال والقتل ، وقد صادف الملوك الإنجليز في الماضي اغتالات
كثيرة . ولكن الشيء الطريف العجيب هو أن نرى مجلسا نيابيا منتخبا
ينصب من نفسه محكمة ويحكم ملكا ويحكم عليه بالاعدام ويقطع
رأسه ! والغريب في الأمر هو أن الشعب الإنجليزي الذي كان دائما
محافظا كل المحافظة، ونافرا من التغيرات والتطورات السريعة يضرب
مثلا في كيف يعامل ملك طاغ خائن . ولكن هذا لم يكن عمل الشعب
الإنجليزي في مجموعه بمقدار ما هو عمل جيش كرومويل .

وقد هن هذا الحادث هذا عنيفا كل ملوك أوروبا وقيصرتها وأمرائها
وحكامها . فماذا يمكن أن يحدث لهم اذا أصبح عامة الشعب عتاة
وقحين وحذوا حذو إنجلترا ؟ كثيرون من هؤلاء الملوك والقيصرة كان
يمكنهم أن يهاجموا إنجلترا ويحطموها ، ولكن مصير إنجلترا وقتئذ لم
يكن في يد ملك ضعيف عاجز .

فإنجلترا بعد قتل الملك شارل الأول أصبحت لأول مرة جمهورية،
وكان هناك كرومويل وجيشه ليدافعوا عنها ويحموها ، وكان
كرومويل ديكتاتورا تقريبا ، وسمى « السيد الحامي » .

وفى عهد حكمه الصارم النافذ ازدادت قوة انجلترا ، وطردت أساطيلها بعيدا الاساطيل الهولندية والفرنسية والاسبانية ، ولأول مرة أصبحت انجلترا القوة البحرية الرئيسية فى أوربا .

ولكن الجمهورية الانجليزية لم تعمز أطول من أحد عشر عاما بعد وفاة شارل الأول . وقد مات كرومويل عام ١٦٥٨ ، وبعد وفاته بعامين سقطت الجمهورية .

ثم نرى ابن شارل الأول الذى كان قد التجأ الى بعض الأقطار الأجنبية يعود الى انجلترا ويرحب به ويتوج ملكا ، ويسمى شارل الثانى . ولكن شارل الثانى هذا كان شخصا وضيعا سيىء السمعة ، وكانت فكرته عن الملك لا تعدو أن يعيش فى رغد وترف متمتعا بكل ملذات الحياة . ولكنه عرف بذكائه ومهارته أن من الخير له ألا يقف فى وجه البرلمان أو يعارضه كثيرا . وكان فى الحقيقة يتلقى اعانات سرية من ملك فرنسا . وقد فقدت انجلترا المكانة التى تبوأتها فى أوربا فى عهد كرومويل ، وأتى الهولنديون الى انجلترا وأحرقوا الأسطول الانجليزى فى نهر التاميز .

وولى العرش بعد شارل أخوه جيمس الثانى ، وسرعان ما نشأ الخلاف والصراع بينه وبين البرلمان . فجيمس كان كاثوليكيًا ورعا ، وأراد أن يؤسس سلطة البابا ونفوذه ثانية فى انجلترا .

ولكن مهما كانت أفكار الانجليز عن الدين ، وهذه كانت أفكارا غامضة ، فان غالبيتهم كانوا ضد البابا وضد كل ما هو بابوى بشكل حاد عنيف . ولم يستطع جيمس الثانى أن يفعل شيئا ضد هذا الشعور السائد بين الشعب ، ولما كان قد أثار سخط البرلمان وغضبه ، فانه اضطر أن يهرب الى فرنسا ويتخذ لنفسه ملجأ فيها .

وهكذا انتصر البرلمان ثانية على الملك ، ولكن انتصاره فى هذه المرة كان سلميا وبدون حرب أهلية • وبفرار جيمس الثانى أصبحت انجلترا بلا ملك ، ولكنها ما كانت لتعود الى الجمهورية مرة أخرى •

فالانجليزى ، كما يقال ، يحب أن يكون له سيد ، وأكثر من ذلك يحب مواكب الملكية ومهرجاناتها وعظمتها وأبهتها • ولهذا بحث البرلمان عن ملك جديد ، وأخيرا وجده فى « بيت أورانج » الذى قبل هذا التاريخ بمائة سنة هيا لوليم الصامت أن يقود كفاح دول اسكندنافيا الكبير ضد اسبانيا •

ففى الوقت الذى فر فيه جيمس كان هناك فى بيت أورانج وليم آخر ، وكان أميرا وكان متزوجا من سيدة من الاسرة الملكية اسمها مارى • وهكذا نصب وليم ومارى ملكا وملكة عام ١٦٨٨ ليحكم معا •

وأصبح البرلمان سيد الموقف • وأدت الثورة الانجليزية دورها كاملا ، بعد أن أعطت الشعب السلطة ممثلة فى البرلمان • ومنذ ذلك التاريخ صار غير ممكن لآى ملك انجليزى أو ملكة انجليزية أن يجرؤ أو تجرؤ على تحدى سلطة البرلمان • ولكن هناك بالطبع طرق كثيرة للمؤامرات والتأثير بدون معارضة أو تحد سافر ، وقد سلك بعض ملوك انجلترا هذه الطرق •

أصبح البرلمان سيد الموقف ومصدر السلطة ، ولكن ماذا كان هذا البرلمان ؟ لا تظنى أنه كان يمثل شعب انجلترا ، وانما كان يمثل فى الواقع جزءا صغيرا منه • فمجلس اللوردات ، كما يدل اسمه ، مثل اللوردات ، أو ملاك الأراضى الكبار والأساقفة • وحتى مجلس العموم كان مجلسا من الاغنياء ما بين ملاك أراض وتجار كبار • وقليل من أفراد الشعب هم الذين كان لهم حق الانتخاب • وكان فى انجلترا الى عهد قريب

لا يزيد على مائة سنة ما يسمى « دوائر الجيب » أى الدوائر الانتخابية التى كانت تقريبا فى جيوب بعض الناس • وربما تكونت كل الدائرة من ناخب أو ناخبين ينتخبان عضوا للبرلمان ! ويقال ان مائة وستين شخصا فى عام ١٧٩٣ انتخبوا ثلثمائة وستة أعضاء لمجلس العموم ! ويقال ان دسكرة من الدساكر اسمها « صاروم القديمة » مثلها عضوان فى البرلمان •

وهكذا ترين أن أغلبية الشعب العظمى لم يكن لها حق الانتخاب ، ولم تكن ممثلة فى البرلمان • ومجلس العموم كان بعيدا جدا عن كونه مجلسا يمثل العامة • أو حتى الطبقات الوسطى الجديدة التى بدأت تظهر فى المدن • انما كان يمثل طبقة ملاك الأراضى وبعض التجار الأغنياء فقط •

وكانت مقاعد البرلمان تباع وتشترى، وكان هناك كثير من الرشوة • وقد حدث ذلك حتى ١٨٣٢ ، أى منذ مائة ^(١) سنة عندما مرت فى البرلمان لائحة الإصلاح بعد هياج شديد ، والتى أصبح لكثير من الناس بمقتضاها حق الانتخاب •

من ذلك نرى أن انتصار البرلمان على الملك كان معناه انتصار قلة من الأغنياء • وهذه القلة المؤلفة من ملاك الأراضى وبعض التجار هى التى كانت فى الواقع تحكم انجلترا • أما كل الطبقات الأخرى التى كانت تمثل غالبية الشعب العظمى فلم يكن لها مشاركة فى الحكم أو رأى فيه • ولعلك تذكرين أن الجمهورية الهولندية التى وجدت بعد الكفاح الكبير مع اسبانيا كانت أيضا جمهورية الرجل الغنى •

(١) كتبت هذه الرسالة عام ١٩٣٢ •

وبعد الملك وليم والملكة ماري نصبت « آن » شقيقة ماري ملكة على انجلترا . وعند وفاتها عام ١٧١٤ وجد بعض صعوبة فيمن يلي الملك بعدها . ولكن البرلمان اختار في النهاية لعرش انجلترا المانيا من بيت « هانوفر » وأسماء جورج الأول ملك انجلترا . ومن المحتمل أن البرلمان اختاره لأنه كان بعيدا عن الذكاء والمهارة والفهم . ولم يستطع جورج الأول أن يتكلم الانجليزية ، لأن ملك الانجليز كان يجهل اللغة الانجليزية . وحتى ابنه الذي أصبح ، جورج الثاني ، قلما عرف الانجليزية .

وبهذه الطريقة تأسس في انجلترا بيت هانوفر ، أو الدولة الهانوفرية التي لاتزال مزدهرة هناك . وقلما يمكن القول بأنها تحكم لأن السلطة والحكم في يدي البرلمان .

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، نشب كثير من النزاع والاضطراب بين ايرلندا وانجلترا . وكانت هناك محاولات لغزو ايرلندا وفتحها ، كما حدثت ثورات وفتن ومذابح في عهد كل من اليصابات وجيمس الأول .

فجيمس صادر كثيرا من الاراضي المملوكة في « ألستر » في شمال ايرلندا . واستقدم بروتستانتين من اسكتلندا ليستقروا في تلك المناطق . ومنذ هذا التاريخ بقي أولئك المستعمرون البروتستانت هناك ، وانقسمت ايرلندا من حيث السكان والدين قسمين : ارلنديين أصليين ، وهؤلاء كانوا من أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ومستعمرين اسكتلنديين ، وهؤلاء من أتباع المذهب البروتستانتي . وكان هناك حقد شديد بين الاثنين ، وقد أفاد الانجليز بطبيعة الحال من هذا الانقسام، لأن حكامهم يؤمنون بالسياسة القائلة «فرق تسد» . ولا تزال أكبر مشكلة حتى الآن في ايرلندا هي مشكلة « ألستر » .

وفى أثناء الحرب الأهلية فى إنجلترا ذبح بعض الانجليز فى ايرلندا •
ولكن كرومويل انتقم لهذه المذبحة انتقاما وحشيا بذبح الارلنديين ،
ولا يزال الارلنديون حتى اليوم يذكرون هذا الحادث بألم ومرارة •

ثم حدث بين إنجلترا و ايرلندا حروب أخرى، ثم اتفاقيات ومعاهدات،
ولكن الانجليز نقضوا كل هذه • وانه لتاريخ طويل مؤلم • تاريخ
عذاب ايرلندا •

وقد يهملك أن تعرفى أن « جوناثان سويفت » مؤلف « رحلات
جليفير » عاش فى هذا العصر من ١٦٦٧-١٧٤٥م • وهذا الكتاب من كتب
الأطفال الكلاسيكية، ولكنه فى حقيقته هجاء مؤلم لانجلترا فى عصره •
وكان دانيال ديفو مؤلف كتاب روبنسن كروزو معاصرا للكاتب
سويفت •

١١٢ — كيف حكمت انجلترا الهند ؟



٥ ديسمبر ١٩٣٢

كتبت اليك من قبل ثلاث رسائل مطولة عن الهند في القرن التاسع عشر . وقصة الهند قصة طويلة تتضمن كفاحا مروعاً متصلاً فاذا اقتضيتها أكثر مما ينبغي فأخشى ما أخشاه أنى أجعلها صعبة يستعصى فهمها .

ومن المحتمل أنى أولى هذا العصر من قصة الهند اهتماماً أكثر مما أوليه لاقطار أو عصور أخرى . وليس هذا أمراً غير طبيعى ، فلكونى هندياً فان اهتمامى بالهند أكثر من اهتمام غيرى بها ، ولكونى أعرف عن الهند أكثر مما يعرف غيرى فانى أستطيع أن أكتب عنها كتابة وافية أكثر مما يكتب الآخرون . وبجانب ذلك فان أحداث هذه الفترة تعنى بالنسبة لنا شيئاً أكثر كثيراً من مجرد اهتمام أو عرض تاريخى .

فالهند الحديثة كما نجدها اليوم قد تكونت وتشكلت فى مطلع القرن التاسع عشر . فاذا شئنا أن نفهم الهند على حقيقتها فعلينا أن نعرف شيئاً عن القوى التى تضافرت على خلقها أو الاضرار بها ، فعن طريق هذا وحده نستطيع أن نخدمها بعقل وذكاء ، وأن نعرف ما يلزم أن نفعله ، وأى طريق يجب أن نسلك .

وأنا لم أنته بعد من الحديث عن هذه الفترة من تاريخ الهند ،
فلا يزال لدى الكثير عنها مما أود أن أحدثك به . وأنا فى هذه
الرسائل أجعل موضوع الحديث نقطة أو أكثر ، ثم أعالج كل نقطة
على انفراد لتكون أيسر فهما .

ولكنك تعرفين بطبيعة الحال أن كل التغيرات وضروب النشاط
التي حدثت عنها ، وكل التغيرات وضروب النشاط التي سأصفها
لك فى هذه الرسالة وما يليها من رسائل قد حدثت فى وقت واحد
تقريبا ، وأثر أحدها فى الآخر ، وأنتجت فيما بينها هند القرن
التاسع عشر .

وقراءتك عن حسنات الانجليز وسيئاتهم فى الهند تشعرك أحيانا
بالغضب من السياسة التي اتبعوها ، ومن البؤس الذي انتشر نتيجة
لهذه السياسة .

ولكن على من تقع تبعة ما حدث ؟ أليس الخطأ فيما حدث ناشئا
عن ضعفنا وجهلنا نحن ؟ فالضعف والجهل دعوة الى الطغيان واغراء
به . واذا كان الانجليز يفيدون من وراء انقساماتنا وخلافاتنا ،
فالخطأ خطؤنا فى أننا ننقسم على أنفسنا ونختلف فيما بيننا .

واذا كانوا يقسموننا ليضعفونا ، واذا كانوا يحققون مأربهم فى
ذلك باللعب على أوتار الأنانية الفاشية بين أحزابنا وطوائفنا المتنافرة ،
فلا شك أن سماحنا بذلك هو فى ذاته علامة على تفوق الانجليز .
فاذا شئت أن تغضبى فاغضبى من الضعف والجهل والصراع المتبادل
بين أحزابنا وطوائفنا ، لأن هذه الأشياء هى المسئولة عن مشاكلنا
وما سينا .

ونحن نقول انه ظلم الانجليز واستبدادهم . فظلم من ؟ واستبداد

من فى الواقع ؟ ومن يفيد منه ؟ لا يفيد منه كل الانجليز ، لأن ملايين منهم هم أنفسهم أشقياء مغلوبون على أمرهم . ومما لا شك فيه ان فى الهند طبقات وجماعات صغيرة قد أفادت قليلا من الاستغلال الانجليزى للهند . فأين نرسم الحد الفاصل اذن ؟

وليس الموضوع موضوع أفراد ولكنه موضوع نظام . فنحن نعيش تحت آلة ضخمة استغلت الملايين من أبناء الهند وحطمتهم . وهذه الآلة هى آلة الاستعمار الجديد الذى هو نتيجة الرأسمالية الصناعية . فمكاسب هذا الاستغلال وأرباحه تذهب كلها تقريبا الى طبقات معينة . وبعض مكاسب وأرباح هذا الاستغلال تبقى فى الهند ولكنها تثول الى طبقات معينة أيضا .

ولهذا يكون من الجهل أن نغضب من الأفراد أو من الانجليز عامة . فاذا كان النظام جائرا وضارا بنا فان المصلحة تقضى بتغييره ، ولا يهم مطلقا من يديره ويشرف عليه ، فالنظام الفاسد يعجز فيه حتى خير الناس وأكفؤهم . ولا تستطيعين ، حتى لو رزقت أقوى ارادة فى الدنيا ، أن تحولى الحجارة والأرض الى طعام حسن مهما أجدت طبخها . وكذلك الحال ، على ما أعتقد ، مع الاستعمار والرأسمالية . فليس من المستطاع تحسينهما أو اصلاحهما ، والتحسين أو الاصلاح الحقيقى بالنسبة لهما هو فى القضاء عليهما معا قضاء مبرما .

هذا هو رأيى ، وان كان البعض يخالفنى فيه . ولست فى حاجة الى أن تأخذنى أى شىء على أنه حقيقة واقعة . وتستطيعين ، عند ما يحين الوقت ، أن تدرسى الأشياء وتكونى رأيك الشخصى عنها . ولكن معظم الناس متفقون على شىء واحد ، وذلك الشىء هو أن الخطأ فى النظام ، وأنه لا فائدة ولا نفع من التضاييق والغضب من الأفراد . فاذا أردنا تغييرا فدعينا نهجم على النظام ونغيره .

لقد رأينا بعض آثار النظام الضارة في الهند . وإذا درسنا أحوال الصين ومصر وأقطار أخرى كثيرة فأننا نرى نفس النظام ونفس آلة الاستعمار الرأسمالى تعمل فى استغلال أبناء هذه الشعوب .

وبعد فنعود الى قصتنا . لقد أخبرتك عن المرحلة المتقدمة فى صناعات النسيج الهندية عند ما أتى البريطانيون الى الهند . فمع التقدم الطبيعى فى طرق الانتاج وبدون أى تدخل من الخارج ، كان من المحتمل أن تدخل آلات الصناعة الحديثة الهند ، فالحديد والفحم يوجدان فى بلادنا ، وهذان ، كما رأينا فى انجلترا ، ساعدا كثيرا فى حركة التصنيع بها ، ومهدا لها الى حد ما . وهذا كان يمكن أن يحدث فى النهاية أيضا فى الهند ، وان كان حدوثه ربما تأخر قليلا نظرا للأحوال السياسية المضطربة .

على أية حال لقد تدخل البريطانيون فى الأمر ، وكانوا يمثلون قطرا ومجتمعنا انتقلا فى الصناعة باستخدام الآلات الحديثة الكبيرة فى الانتاج الصناعى .

وربما يظن الانسان ، لهذا ، أنهم يرحبون بحدوث تغيير كهذا فى الهند أيضا ، ويشجعون طبقة رجال الصناعة فى الهند ممن كان يحتمل منهم جدا أن يمهدوا لهذا التطور . ولكنهم لم يفعلوا شيئا من هذا القبيل ، وانما فعلوا عكس ذلك تماما . فقد نظروا الى الهند نظرة منافس لهم فى المستقبل ولهذا قضوا على صناعاتها ، ولم يشجعوا نمو صناعات الآلات الحديثة الكبيرة .

وهكذا نجد أحوالا عجيبة فى الهند . فنحن نجد البريطانيين الذين هم أكثر شعوب أوربا تقدما فى ذاك الوقت يتخذون لأنفسهم حلفاء فى الهند من بين أكثر الطبقات الهندية تخلفا ومحافظة .

فنراهم يساندون طبقة اقطاعية محتضرة ، ويخلقون طبقة من ملاك
الأراضي ، ويؤيدون مئات الحكام الهنود غير المستقلين فى دولهم
نصف الاقطاعية . وفى الحقيقة نراهم يقوون النظام الاقطاعى فى
الهند .

ومع هذا فهؤلاء البريطانيون كانوا فى أوربا رواد ثورة الطبقة
الوسطى أو الطبقة البورجوازية التى أعطت برلمانهم السلطة والقوة ،
كذلك كانوا رواد الثورة الصناعية التى استحدثت فى العالم الرأسمالية
الصناعية . فبسبب قيادتهم وأسبقيتهم فى هذه الأمور تقدموا كثيرا
على منافسيهم ومزاحمهم وأسسوا امبراطورية مترامية الأطراف .

وليس صعبا أن يفهم المرء لماذا تصرف البريطانيون على هذا النحو
فى الهند ، فأساس الرأسمالية كله هو المنافسة والاستغلال ،
والاستعمار مرحلة متقدمة من هذا . فالبريطانيون ومعهم القوة قتلوا
منافسيهم الحقيقيين ، ومنعوا متعمدين ظهور منافسين آخرين .

ولم يكن من الممكن لهم أن يصادقوا الجماهير ، لأن الهدف كل
الهدف من وجودهم فى الهند هو استغلالهم لهؤلاء الجماهير ، ولاعجب
فمصالح من يقع منهم الاستغلال ومصالح من يقع عليهم الاستغلال
ليست واحدا ، ومن ثم وقع البريطانيون على من بقى من الاقطاعيين
الذين كانوا لا يزالون فى الهند . وهؤلاء لم تكن لهم قوة حقيقية حتى
حينما جاء البريطانيون الى الهند ، ولكن البريطانيين ساعدوهم
وأعطوهم نصيبا ضئيلا فى استغلال البلاد ، وهذه المساعدة استطاعت
أن تعطى فقط اسعافا مؤقتا لطبقة استنفدت زمن نفعها . وكانت
هذه الطبقة تعتقد أن البريطانيين اذا تخلوا عنها ، فاما أن تنهار
وتتهاوى ، واما أن توفق بين نفسها وبين الأحوال الجديدة .

وقد كان فى الهند نحو ٧٠٠ دولة ما بين صغيرة وكبيرة معتمدة كلها على حسن نوايا البريطانيين . وأنت تعرفين بعض هذه الدول مثل حيدر أباد ، وكشمير ، وميسور ، وبارودا ، وكولوير الخ . ولكن الغريب أن معظم حكام هذه الدول الهنود لم يتحدروا من طبقة الأشراف الاقطاعية القديمة ، وهم فى ذلك مثل معظم ملاك الأرض الكبار الذين لا ترجع تقاليدهم الى عهد بعيد جدا . وعلى أية حال هناك حاكم واحد يستطيع أن يرجع بنسبه الى ما قبل التاريخ ، وذلك هو « المهارانا » حاكم يوديبور وزعيم القبيلة التى تسمى نفسها قبيلة الشمس ، وربما كانت الشخصية الحية التى تضارعه وتنافسه من هذه الناحية هو ميكادو اليابان .

وقد ساعد الحكم البريطانى أيضا الطوائف الدينية المحافظة . وهذا يبدو غريبا ، فالبريطانيون يدعون اعتناق المسيحية ، ومع ذلك فمجيئهم جعل الهندوكية والاسلام فى الهند أشد صرامة وتصلبا . ورد الفعل هذا كان الى حد ما طبيعيا ، لأن الغزو الأجنبى من شأنه أن يدفع الأديان والثقافة فى البلد المغزو الى أن تحمى نفسها بالصرامة والتصلب . وقد حدث بنفس الأسلوب أن أصبحت الهندوكية أشد صلابة وأن قويت الطائفية العنصرية بعد الفتوح الاسلامية فى الهند . والآن نرى أن الهندوكية والاسلام كليهما يقفان هذا الموقف الصارم المتصلب ازاء الانجليز الدخلاء . ولكن اذا تغاضينا عن هذه النقطة فاننا نرى حقا أن الحكومة الانجليزية فى الهند قد ساعدت عمدا ولاشعوريا العناصر المحافظة من المسلمين والهندوس .

ولم يكن اهتمام الانجليز منصبا على الدين أو على تغيير معتقدات الهنود وأديانهم وانما كان اهتمامهم موجها الى تحقيق الغنى والثراء . لقد كانوا متهيبين من التدخل فى الشئون الدينية خشية أن يؤدى

تدخلهم الى غضب الشعب فيثور عليهم . ولكي يتفادوا حتى مظنة التدخل بالغوا في حماية ومساعدة أديان الهند ، أو بمعنى أصح بالغوا في حماية ومساعدة شعائر الأديان المظهيرية . وكثيرا ما كانت النتيجة أن ترى الشكل الخارجى يبقى دون أن يكون بداخله أى شىء .

وهذا الخوف من اثاره المتشددتين فى الدين جعل الحكومة تقف بجانبهم فى كل ما يمس شئون الاصلاح ، فكان فى ذلك تعويق للاصلاح . وقلما تستطيع حكومة أجنبية أن تحدث اصلاحا اجتماعيا . لأن كل تغيير تحاول ادخاله لا يقابل من الشعب بالقبول والارتياح .

ومن نواح كثيرة كانت الهندوكية والقانون الهندوكى يتطوران ويتقدمان . ولو أن تقدمهما فى العصور الحديثة قد أخذ فى البطء بشكل ملحوظ . والقانون الهندوكى فى جملته ينبثق من العادة ، والعادات تتغير وتتطور وتنمو . وهذه المرونة التى تميز بها القانون الهندوكى قد تلاشت تحت الحكم البريطانى وحل محلها تشريعات قانونية غير مرنة وضعت بعد استشارة أكثر العناصر جمودا وتشددا . وهكذا نرى القانون الهندوكى الذى كان ينمو نموا بطيئا قد أوقف نموه . أما مسلمو الهند فكانوا أشد استياء من الاوضاع الجديدة وانكارا لها ، ولهذا لم يكن أمامهم الا أن ينعزلوا عن مجتمعهم وينطوا على أنفسهم .

وكثير من الفضل يعزى الى الحكم البريطانى فى ابطال عادة حرق الأرملة الهندوكية نفسها فى النار الجنائزية التى تحرق فيها جثة زوجها . فالبريطانيون يستحقون بعض الفضل فى هذا ، ولكن الحكومة فى الواقع ونفس الأمر لم تهتم بالأمر الا بعد سنوات كثيرة من ثورة المصلحين الهنود بزعامة « راجا رام موهان روى » ، ومن قبل البريطانيين قام حكام آخرون بتحريم هذه العادة ، كما قام

البوكيرك البرتغالي بالغائها فى جوا . وقد ألغاهها البريطانيون نتيجة لثورة الرأى العام الهندى ومجهودات المبشرين المسيحيين . وعلى قدر ما أذكر ان هذا هو الاصلاح الوحيد الذى اضطلعت به الحكومة البريطانية وكان له مغزى أو أهمية دينية .

وقد تحالف البريطانيون مع كل العناصر المتخلفة والمحافضة فى الهند ، ولم يألوا جهدا فى أن يجعلوا من الهند قطرا زراعيا فقط ينتج الخامات اللازمة لصناعاتهم . وبعض الأقطار الأخرى أولت صناعاتها المحلية كل تشجيع واهتمام . فاليابان مثلا ، كما سنرى فيما بعد ، جرت أشواطا بعيدة الى الأمام فى ميدان التصنيع . ولكن الحكومة البريطانية فى الهند وضعت ما استطاعت من العقبات والصعاب فى طريق الصناعات الهندية .

فنتيجة للضرائب التى فرضتها على استيراد الآلات الصناعية والتى لم ترفع حتى عام ١٨٦٠ كان بناء مصنع فى الهند يتكلف أربعة أمثال ما يتكلفه نظيره فى انجلترا ، على الرغم من أن الأيدي العاملة فى الهند أرخص منها فى انجلترا . وكل ما تستطيعه سياسة التعويق هذه هو أن تؤخر حدوث الأشياء فقط ، ولكنها لا تستطيع أن تقف سير الحوادث الذى لا مفر منه .

ونحو منتصف القرن التاسع عشر بدأت المصانع التى تقوم على الآلات الحديثة تنمو فى الهند ، فصناعة الجوت بدأت فى البنغال برأس مالى بريطانى ، وظهور الطرق الحديدية ساعدا فى نمو الصناعات ، وبعد عام ١٨٨٠ أخذت مصانع النسيج التى أنشئ معظمها برءوس أموال هندية تنمو وتكثر فى بومباى وأحمد أباد . ثم بدأ التعدين والكشف عن المعادن . وباستثناء مصانع النسيج قامت حركة التصنيع البطيئة هذه معتمدة فى جملتها على رأس المال البريطانى ، ويكاد يكون هذا على الرغم من الحكومة .

وقد تكلمت الحكومة عن سياسة السماح للأشياء بأن تأخذ طريقها الطبيعي ، وكذلك عن سياسة عدم التدخل فى المشروعات الخاصة، ولكن الحكومة تدخلت فى التجارة الهندية فى انجلترا وحطمتها بالضرائب الجمركية ووسائل التحريم عند ما كانت هذه التجارة مزاحمة ومنافسة للتجارة البريطانية فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ولما صارت السيادة والغلبة للتجارة البريطانية أمكن للحكومة أن تتحدث عن سياسة السماح للأشياء بأخذ طريقها الطبيعي وعدم التدخل فى المشروعات الخاصة .

ومهما يكن من أمر فإن الحكومة فى الواقع لم يكن موقفها مجرد عدم اكتراث أو مبالاة ، فالثابت فعلا أنها عمدت الى سياسة تشبيط الهمم بالنسبة لبعض الصناعات الهندية وخاصة صناعة النسيج النامية فى بومباى وأحمد أباد . فقد فرضت ضريبة جمركية على منتجات هذه المصانع الهندية ، وسميت ضريبة رسم الجمارك على القطن . وكان الغرض من هذه الضريبة هو مساعدة مصانع المنسوجات القطنية البريطانية فى لانكشير على منافسة المنسوجات القطنية الهندية . والمعروف أن كل دولة تقريبا تفرض بعض الضرائب الجمركية على بعض الواردات والمنتجات الأجنبية لحماية لصناعاتها المحلية أو زيادة فى دخلها . ولكن الحكومة البريطانية فى الهند أقدمت على شئ مدهش جدا وغير مألوف . ذلك أنها فرضت ضرائب جمركية على المنتجات الهندية نفسها ! وعلى الرغم من شدة احتجاج الشعب وثورته ضد ضريبة رسم الجمارك هذه فإنها ظلت مفروضة وتحصل الى سنوات قريبة .

على هذا النحو ظهرت الصناعات الحديثة فى الهند وانتشرت انتشارا بطيئا فيها . فالطبقات الأكثر غنى فى الهند قامت بمشروعات كثيرة فى سبيل التنمية الصناعية . وعلى ما أذكر أنشأت الحكومة

مصلحة للتجارة والصناعة عام ١٩٠٥ ، وحتى هذه المصلحة لم تقم
بأى مجهود يذكر حتى قامت الحرب العالمية الأولى . فنمو النشاط
الصناعى هذا خلق طبقة من العمال الصناعيين الذين اشتغلوا فى
مصانع المدن . وقد دفع ضغط السكان على الأرض الذى حدثت عنه،
والأحوال التى أدت الى شبه مجاعة فى المناطق الريفية - أقول لقد
دفع ذلك كثيرا من القرويين الى تلك المصانع والى المزارع التى كانت
قد بدأت تنتشر فى البنغال وأسام . وهذا الضغط أيضا دفع الكثيرين
الى الهجرة لأقطار أخرى طمعا فى الحصول على أجور عالية . وقد
اتجهت الهجرة خاصة الى جنوب افريقية ، وفيجي ، وسيلان ،
وموريشس Mauritius

ولكن هذا التغير والانتقال لم يفد أولئك العمال المهاجرين كثيرا،
فقد عوملوا فى بعض الأقطار كما لو كانوا عبيدا، وفى مزارع الشاي
فى أسام لم تكن حالتهم أحسن مما كانوا عليه من قبل . وقد اضطرو
الكثيرون بعد ما ضادفهم من تشييط العزيمة وعدم التشجيع أن
يعودوا من المزارع الى قراهم الأولى ، ولكنهم لم يجدوا ترحيبا بهم
فى قراهم لعدم وجود أرض لهم يعملون فيها .

وسرعان ما وجد عمال المصانع أن أجورهم المرتفعة نسبيا لا تكاد
تنهض بمطالبهم لارتفاع أسعار الحاجيات فى المدن ، ولكون تكاليف
المعيشة فيها أعلى مما هى عليه فى القرى . أما عن الأماكن التى
اضطروا الى السكنى فيها فلم تكن أكواخا وعششا بائسة قذرة رطبة
فقط ، بل كانت مظلمة غير صحية أيضا .

كذلك كانت الأحوال التى يعملون تحت وطأتها سيئة قاسية ،
ففى القرى كثيرا ما كانوا يتعرضون للجوع القاتل ولكنهم كانوا
يأخذون حظهم من الشمس والهواء النقي . أما وقد انقلبوا الى عمال

فى المصانع فقد صار حظهم من الشمس ضئيلا جدا ، ولا حظ لهم فى الهواء النقى . وأجورهم لم تكن كافية لمقابلة تكاليف المعيشة المرتفعة . وحتى النساء والأطفال اضطروا أن يعملوا ساعات طويلة ، واعتادت الأمهات اللاتى يحملن أطفالهن على أذرعتهن أن يعطوهم أدوية منومة مخدرة حتى يتمكن من القيام بعملهن والتفرغ له .

وهكذا كان العمال الصناعيون يشتغلون بالمصانع فى مثل هذه الحالات التعيسة المضنية . لقد كانوا أشقياء طبعاً ، ولما عيل صبرهم بدءوا يتدمرون ويتبرمون ، وأحياناً فى حالات اليأس أضربوا بالامتناع عن العمل . ولكنهم كانوا ضعافاً عاجزين ، وكان من اليسير على مستخدميهم الأغنياء مؤيدين من الحكومة أن يحطموهم اذا شاءوا . ولكنهم عرفوا شيئاً فشيئاً وفى بطء وبعد تجربة مؤلمة قاسية قيمة العمل المشترك الموحد ، ومن ثم أنشئوا اتحادات العمال .

لا تظنى أن هذا وصف للأحوال الماضية ، فقد طرأت بعض تحسينات وإصلاحات فى أحوال العمل فى الهند ، كما صدرت بعض قوانين تضمن نوعاً من الحماية للعامل الفقير .

ولكنك اذا زرت « كونبور » أو « بومباى » أو غيرهما من المناطق الصناعية فانك ستجد أن مساكن العمال لا تزال الى اليوم على حال من السوء تثير الفزع والأسى فى قلب من يراها .

لقد كتبت اليك فى هذه الرسالة وغيرها من الرسائل عن البريطانيين والحكومة البريطانية فى الهند . فكيف كانت حال هذه الحكومة ؟ وكيف كانت تمارس الحكم ؟

فهناك كانت شركة الهند الشرقية أولاً ، ولكن البرلمان الانجليزى كان من ورائها . وفى عام ١٨٥٨ وبعد الثورة الكبرى تولى البرلمان الانجليزى مسئولية مباشرة . وفيما بعد أصبح ملك الانجليز - أو بمعنى أصح ملكة الانجليز الجالسة على العرش وقتئذ - قيصرة الهند .

ففى الهند كان الحاكم العام الذى صار نائب الملك أيضا فى أعلى السلم ، ومن تحته كان هناك جماهير وجموع حاشدة من الموظفين • وكانت الهند مقسمة كما هى الآن تقريبا الى امارات ودول • وكان مفروضا فى حكام الدول الهنود أنهم نصف مستقلين ، ولكنهم كانوا فى حقيقة الأمر معتمدين كل الاعتماد على الانجليز • وكان يعيش فى كل دولة من الدول الكبرى موظف انجليزى يسمى « المقيم » له الرقابة العامة على الحكومة ، ولم يكن يعنيه من شئون الاصلاح الداخلى أى شئ ، لا ولم يكن يهتم فى كثير أو قليل أن تكون حكومة الدولة سيئة أو غير سيئة ، أو أن تباشر سلطتها على طراز قديم أو حديث •

كل ما كان يعنيه ويهمه هو أن يمكن للسلطة الانجليزية فى الدولة • وقد كان ثلث الهند تقريبا مقسما الى هذه الدول ، أما الثلثان الآخران فكانت تحكمهما الحكومة الانجليزية فى الهند حكما مباشرا • وكان كل الموظفين الكبار فى الهند البريطانية من الانجليز ، وقد ظل الأمر كذلك الى ما يقرب من نهاية القرن التاسع عشر حينما بدأ بعض الهنود يتسللون الى الوظائف الحكومية ، وحتى مع هذا فان كل القوة والسلطة طبعاً بقيتا ولا تزالان باقيتين فى أيدي الانجليز • وهؤلاء الموظفون الكبار ، باستثناء العسكريين ، كانوا أعضاء فيما يسمى بالادارة الهندية • وهكذا كانت كل حكومة الهند محكومة بهذه الادارة • والحكومة التى قوامها موظفون يعين بعضهم بعضا ، وليسوا مسئولين أمام الشعب عما يفعلون تسمى حكومة موظفين أو حكومة « بيروقراطية » •

ونحن نسمع كثيرا عن الادارة الهندية ومن فيها من أشخاص فى غاية الغرابة والعجب ، وان كانوا أكفاء فى بعض النواحي • فهؤلاء

نظموا الحكومة ، ومكنوا للحكم الانجليزى ، وانتفعوا هم أنفسهم كثيرا . فجميع المصالح الحكومية التى ساعدت فى تدعيم الحكم الانجليزى وجباية الضرائب قد نظمت تنظيما تتجلى فيه الكفاية ، أما غير ذلك من المصالح الحكومية فأهملت .

ولما كان موظفو الادارة الهندية غير مسئولين أمام الشعب ولم يعينهم الشعب فى وظائفهم فانهم لم يوجهوا أى اهتمام أو عناية بالمصالح الحكومية الأخرى التى تهم معظم طبقات الشعب . ولما كان ذلك طبيعيا تحت هذه الظروف فانهم انقلبوا متعجرفين متغطرسين يستخفون بالرأى العام ويزدرونه . ومع أنهم كانوا ضيقى الأفق محدودين فى نظرتهم ، فانهم أخذوا ينظرون الى أنفسهم على أنهم أعقل العقلاء وأحكم الحكماء على الأرض .

وكان خير الهند يعنى فى المنزلة الأولى بالنسبة لهم الخير الذى يعود عليهم شخصيا من الوظائف التى يعملون بها . وقد كونوا نوعا من جمعية استلطاف واستحسان متبادل ، يمدح فيها بعضهم بعضا، ويشنى فيها هذا على ذاك ، وذاك على هذا . . . وقد أدت القوة والسلطة المطلقتان فى النهاية الى هذا ، وأصبح موظفو الادارة الهندية أسياد الهند تقريبا . وكان البرلمان الانجليزى من البعد بحيث لا يستطيع التدخل فى الأمر ، وعلى أية حال فلم يكن هناك مناسبة لتدخله ، لان موظفى الادارة الهندية كانوا يخدمون مصالحه ومصالح الصناعة البريطانية . أما مصالح الشعب الهندى فلم يكن هناك وسيلة للتأثير عليهم فى أن يولوها شيئا من الرعاية ولو الى درجة ما . وقد كان حتى مجرد النقد الواهن الخفيف يستثير سخطهم واستياءهم ، ولهذا كانوا متعصبين لا يحتملون ولا يطاقون !

ومع هذا فقد عمل فى الادارة الهندية كثير من الموظفين الاثمناء
الاكفاء، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا أن يغيروا غرض السياسة المرسومة
أو يحولوا التيار الذى كان يدفع بالهند أمامه دفعا • فموظفو الادارة
الهندية كانوا ، بعد كل ما ذكر ، عملاء رجال المال والصناعة فى
انجلترا ممن كان همهم الأساسى استغلال الهند •

وقد ازدادت كفاية حكومة الهند البيروقراطية هذه فى كل ماله اتصال
بمصالحها الخاصة ومصالح الصناعة البريطانية • أما نشر التعليم
والصحة وانشاء المستشفيات والاضطلاع بضروب النشاط الأخرى
الكثيرة التى من شأنها أن تنشئ شعبا سليما متقدما ، فكان حظها
الاهمال كل الاهمال • ولم يكن هناك تفكير فى هذه الأشياء الى عهد
قريب • فمدارس القرى تلاشت واندثرت • ثم بدأت الحكومة تنشر
التعليم فى بطء وعلى غير ارادة منها مدفوعة الى ذلك بمطالبها الخاصة •
فالموظفون الانجليز قد احتلوا كل الوظائف العالية ، ولكنهم لم
يستطيعوا أن يملئوا الوظائف الصغيرة أو الكتابية • ولما كانت
الحكومة فى حاجة الى كتبة ، فقد أنشأ الانجليز المدارس والكليات فى
أول الأمر لتخريج الكتبة وصغار الموظفين • ومنذ ذاك التاريخ أصبح
هذا غرض التعليم الأساسى فى الهند ، وغالبية من أخرجهم هذا
النظام التعليمى كانوا صالحين للأعمال الكتابية فقط • ولكن سرعان
ما صار عدد الكتبة المتخرجين فى المدارس والكليات أكثر مما تستوعبه
دواوين الحكومة والمصالح الأخرى • ومن ثم ترك كثيرون منهم بلا
عمل فكونوا طبقة جديدة من المتعطلين المتعلمين • وقد كانت البنغال
أسبق من غيرها فى التعليم الانجليزى الجديد • ومن أجل ذلك كانت
الكثرة الغالبة من الكتبة فى أول الأمر بنغاليين •

وفى عام ١٨٧٥ أنشئت ثلاث جامعات فى كلكتا ، وبومباى ،
ومدراس • وهناك حقيقة تستحق التسجيل ، وهى أن المسلمين فى

الهند لم يتحمسوا للتعليم الجديد أو يتقبلوه ، ولهذا تخلفوا فى سباق
الكتابة والوظائف الحكومية • وقد أصبح ذلك فيما بعد سببا من
أسباب شعورهم بالغبن وعدم المساواة •

• وهناك حقيقة أخرى تستحق التسجيل ، وهى أن البنات أهملن
اهمالا تاما من حيث التعليم حتى عندما بدأت الحكومة تضطلع بنشره •
ولم يكن ذلك بالأمر المدهش أو المستغرب ، لأن الغرض من التعليم
الذى كانت تنشره الحكومة هو ، كما ذكرت آنفا ، اعداد طبقة من
الكتابة ، وكان الكتابة الرجال هم المطلوبون وقتئذ ، نظرا للتقاليد
الاجتماعية المتخلفة • ومن ثم أهملت البنات اهمالا تاما ، ولكن حدث
بعد ذلك بزمان طويل أن بدأت العناية قليلا بتعليمهن •

١١٤ — إنجلترا تفرض الأفيون على الصين

١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢

لقد حدثت في اسهاب عن التأثير الذي أحدثته الثورة الصناعية و ثورة الآلات الحديثة في الهند ، كما حدثت عن أساليب الاستعمار البريطاني في بلادنا .

ولكوني هنديا فأنا وطني متعصب لوطني ، ومن أجل ذلك لا أستطيع أن أرى الأشياء إلا بعين الوطني المتشيع لوطنه . ولكني حاولت ، كما أود لك أن تحاولي ، النظر الى هذه القضايا نظرة العالم الذي يختبر الحقائق بلا محاباة . لا نظرة الوطني الذي يركز كل همه في البرهنة على القضية من جانب واحد .

فالوطنية أو القومية حسنة في موضعها ، ولكنها صديق لا يعتمد عليه ومؤرخ خطر لا يؤمن بجانبه ، فهي تعمينا عن رؤية كثير من الأحداث ، وتشوه الحقيقة . . أحيانا ، ولا سيما اذا كانت هذه الحقيقة تتصل بنا أو بوطننا . ولهذا علينا أن نكون في غاية اليقظة والحذر عندما ننظر في تاريخ الهند الحديث ، فلا نلقى بكل اللوم والتبعة في ضعفنا وتخلفنا ومتاعبنا على الانجليز .

لقد رأينا من قبل كيف استغل الهند رجال الصناعة ورجال المال الانجليز في القرن التاسع عشر . والآن دعينا ننتقل الى الصين أكبر

قطر فى آسيا ، وصديق الهند القديم ، والذي يعتبر من أعرق الشعوب وأقدمها • فهنا سيطالنا نوع آخر من استغلال الغرب •

فالصين لم يقدر عليها أن تصير مستعمرة أو تابعة لدولة أوروبية كما حدث للهند • أجل ، نجت الصين من هذا القدر ، بفضل ما أتيح لها من حكومة مركزية قوية نوعا ما ، حكومة استطاعت أن تبقى على البلاد متماسكة حتى قبيل منتصف القرن التاسع عشر •

أما الهند ، كما رأينا ، فقد تفتتت الى أجزاء قبل هذا التاريخ بأكثر من مائة سنة ، وعلى التحديد عندما سقطت الامبراطورية المغولية •

ومع أن الصين بدا عليها الضعف فى القرن التاسع عشر ، فإنها ظلت متماسكة الى النهاية • وتحاسد الدول الأجنبية وغيره بعضها من بعض منعته من أن تتدخل فى شئون الصين وتنتفع كثيرا من ضعفها •

وقد أخبرتك فى رسالتى الرابعة والتسعين أن الانجليز قاموا بمحاولات كثيرة لزيادة تجارتهم مع الصين • وفى هذه الرسالة أيضا اقتبست لك نبذة طويلة (١) من الرسالة الشامخة التى رد بها

(١) هذه النبذة هى : « ••• أنت أيها الملك الذى يعيش عبر بحار كثيرة ومع ذلك تدفعك رغبة متواضعة للانتفاع من خيارات حضارتنا • أنت يا من أوفدت بعثة تحمل فى احترام رسالتك ، ولكي تظهر ولاءك أرسلت أيضا هدايا من منتجات بلادك • لقد قرأت رسالتك التى تظهر عباراتها الجادة ذلة محترمة من جانبك تستحق عليها الثناء • ومع تحمى فى الدنيا الواسعة ليس لى غير أمل واحد هو أن أحافظ على حكمى الكامل وأن أضطلع بواجبات الدولة • أما الأغراض الغريبة الباهظة الثمن فلا تهمنى • ولست فى حاجة الى استعمال مصنوعات بلادك • وانه ليليق بك أيها الملك أن تحترم عواطفى ، وأن تظهر لى فى المستقبل ولاء أكثر ، ولعلك بالولاء الدائم لعرشنا تضمن السلام والرفاهية لشعبك بعد اليوم ••• » وأطعنى فى خوف ولا تظهر الاهمال وعدم الاكتراث ! »

امبراطور الصين « تشين لون » على رسالة ملك الانجليز جورج الثالث التي بعث بها مع السفارة التي أوفدها لانشاء علاقات تجارية بين الصين وانجلترا .

لقد حدث ذلك عام ١٧٩٢ . وهذا التاريخ سيذكر بالفترات العاصفة التي مرت بها أوروبا وقتئذ . سيذكر بفترة الثورة الفرنسية ، وفترة نابليون والحروب النابليونية ، وبانشغال انجلترا بقتالها المستميت ضد نابليون . ولهذا لم يكن هناك بالنسبة لانجلترا تفكير في التوسع التجاري مع الصين حتى سقط نابليون وتنفست هي الصعداء .

وفي عام ١٨١٦ نرى انجلترا توفد بعثة أخرى الى الصين ، ولكن حدث أن قامت صعوبة بسبب طريقة استقبال هذه البعثة ، فقد كان مفروضا أن تسجد البعثة أمام الامبراطور اظهارا للخضوع والذلة ، ولكن المبعوث البريطاني لورد أمهيرست امتنع عن ذلك فرفض امبراطور الصين مقابله وأمره بالرجوع الى بلاده . وعلى ذلك لم تكمل مهمة هذه البعثة بالنجاح .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هناك تجارة جديدة تنمو نموا سريعا ، هي تجارة الأفيون . وقد لا يكون صحيحا أن تسمى هذه تجارة جديدة ، لأن الصين كانت تستورد الأفيون من الهند منذ القرن الخامس عشر . وقد أرسلت الهند الى الصين في الماضي أشياء كثيرة حسنة ، وكان الأفيون في الحقيقة أحد الأشياء السيئة التي أرسلتها الهند اليها . ولكن هذه التجارة كانت محدودة ، ثم أخذت تنمو وتنتشر في القرن التاسع عشر على أيدي الأوربيين ، ولا سيما شركة الهند الشرقية التي احتكرت التجارة البريطانية .

ويقال ان الهولنديين في الشرق اعتادوا أن يخلطوا الأفيون بتبغهم

ثم يدخنوه وقاية من الملاريا • وعن طريقهم انتقلت عادة تدخين الأفيون الى الصين ، ولكن على صورة أسوأ ، لان الصينيين كانوا يدخنونه نقيا غير مخلوط • ثم أرادت الحكومة أن تحول دون انتشار هذه العادة ، فقد رأت أن للأفيون أثرا بالغاً وخطرا شديدا على الشعب ، وأن تجارته أيضا تمتص جزءا كبيرا من ثروة البلاد الى الخارج •

من أجل ذلك أصدرت الحكومة الصينية عام ١٨٠٠ مرسوما يقضى بتحريم استيراد الأفيون ودخوله الى الصين لأى غرض من الأغراض • ولما كانت تجارته رابحة جدا بالنسبة للأجانب فانهم أخذوا فى تهريبه الى الصين ، وفى رشوة الموظفين الصينيين ليتغاضوا عنه •

عندئذ أصدرت الحكومة الصينية أمرا يحرم على موظفيها مقابلة التجار الأجانب ويفرض عقوبات صارمة على من يعلم أى أجنبى اللغة الصينية أو لغات المانشو • ولكن ذلك لم يجد نفعا فى مقاومة تجارة الأفيون ، فقد استمرت على الرغم من هذه القيود والعقوبات مستعينة فى وجودها بالرشوة والفساد •

وقد تطورت هذه المشكلة بالنسبة للصين من سيىء الى أسوأ بعد عام ١٨٣٤ حينما أنهت الحكومة البريطانية احتكار شركة الهند الشرقية لتجارة الصين وجعلت هذه التجارة حرة لكل التجار البريطانيين • وترتب على ذلك أن ازدادت فجأة حركة تهريب الأفيون لدرجة اضطرت الحكومة الصينية معها أن تأخذ اجراء قويا لقمعها •

وقد تمثل هذا الاجراء فى اختيار الحكومة لرجل قوى من رجالها يدعى « لين تسي شى » وتعيينه رئيسا لادارة مقاومة حركة تهريب الأفيون • ولم يكده « لين تسي شى » يكلف بهذه المهمة حتى قام بعمل سريع قوى • لقد انتقل فى الحال الى « كانتون » فى الجنوب حيث كانت مركزا رئيسيا لهذه التجارة غير المشروعة ، وأمر كل التجار الأجانب

هناك أن يسلموه كل ما عندهم من أفيون . ورفض هؤلاء التجار أن يطيعوا هذا الأمر أولا ، ولكن « لين » أجبرهم على اطاعته بعزلهم في مصانعهم ، وبحمل عمالهم وخدمهم الصينيين على أن يتركوهم ، وبمنع الطعام من الوصول اليهم من الخارج . وازاء هذه الشدة والصرامة وهذا التصرف المحكم لم يسع التجار الأجانب الا أن يسلموا مكرهين للمستولين الصينيين عشرين ألف صندوق من الأفيون . وقد أخذ « لين » هذه الكميات الهائلة التي كانت معدة للتهديب وأتلفها . ولم يكتف « لين » بهذا ، بل أخبر التجار الأجانب بأنه لن يسمح لأى سفينة بالدخول الى كانتون حتى يعطى ضابطها تعهدا بأنه لا يحمل أفيونا عليها . فاذا نقض هذا التعهد فان الحكومة الصينية تكون فى حل من مصادرة السفينة بما عليها . ومما لاشك فيه أن « لين » كان شخصا كفئا . وأنه قام بما أسند اليه من عمل خير قيام ، ولكنه لم يدرك أن نتائج تصرفاته ستعود بالوبال على الصين .

وتتلخص هذه النتائج فى اشتباك الصين مع بريطانيا فى حرب ، وفى هزيمة الصين فى هذه الحرب . وتوقيعها معاهدة مذلة ، وفى دفع الأفيون الذى حاولت الحكومة الصينية تحريمه الى حلق الصينيين كرها . وسواء أكان الأفيون خيرا أو شرا للصينيين فان هذا لم يكن أمرا مهما . انما كان المهم هو أن تهريب الأفيون كان عملا مربحا للتجار البريطانيين ، وأن بريطانيا لم تكن مستعدة لأن تتسامح فى ضياع هذا الدخل .

ولما كان معظم الأفيون الذى أتلفه « لين » يخص التجار البريطانيين فان بريطانيا اشتبكت عام ١٨٤٠ فى حرب مع الصين باسم الدفاع عن الشرف الوطنى ، وقد سميت هذه الحرب بحق «حرب الأفيون» . لانها حوربت وكسبت بغية الوصول الى حق فرض الأفيون على الصين .

ولم تستطع الصين أن تفعل شيئاً ضد الأسطول البريطاني الذي حاصر كانتون وموانئ أخرى . وقد اضطرت الصين بعد حرب دامت عامين أن تستسلم . وفي عام ١٨٤٢ وقعت معاهدة نانكين التي نصت على وجوب فتح خمس موانئ صينية للتجارة الأجنبية ، وهذا يعنى بوجه خاص فتحها لتجارة الأفيون حينئذ . وهذه الموانئ الخمس هي كانتون ، وشنغهاي ، وأموي ، وننجيو ، وفوتشو . وقد سميت هذه بموانئ المعاهدة . ولم تكف بريطانيا بذلك ، بل استولت أيضاً بمقتضى المعاهدة على جزيرة هونكونج بالقرب من كانتون ، واغتصبت عنوة مبالغ طائلة كتعويض لأفيون تجارها الذي أتلّف ، ولتكاليف الحرب التي فرضتها فرضاً على الصين .

وهكذا حقق البريطانيون انتصار الأفيون . وقد بعث امبراطور الصين بالتماس خاص الى الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا وقتئذ مبينا لها في أدب واحترام الآثار الشنيعة المنكرة الناشئة من فرض تجارة الأفيون على الصين . ولكنه لم يتلق أى جواب من الملكة على التماسه . فما أعظم الفرق بين هذا الالتماس المهذب وبين الرسالة الشامخة التي بعث بها منذ نحو خمسين سنة أحد أسلافه الامبراطور « تشين لون » الى ملك الانجليز جورج الثالث !

هذا كان بدء متاعب الصين ومشاكلها مع دول الغرب الاستعمارية . لقد انتهى عصر عزلتها ، وصار عليها أن تقبل التجارة الأجنبية ، وأن تقبل ، بالاضافة الى ذلك ، المبشرين المسيحيين الذين لعبوا دورا هاما في الصين ، هو دور الطليعة في جيش الاستعمار .

ومعظم متاعب الصين التي تلت كان لها اتصال بالمبشرين . فكثيرا ما كان مسلك هؤلاء وتصرفهم وقحا مثيرا ، ولكن لم يكن من المستطاع محاكمتهم أمام المحاكم الصينية ، لأن معاهدة نانكين الجديدة نصت على عدم محاكمة الأجانب الغربيين الموجودين في الصين أمام المحاكم

الصينية ، أو بمقتضى قوانين الصين ، وإنما يحاكمون أمام محاكمهم الخاصة ، وقد سمي هذا بـ « الامتياز الخاص » ولا يزال هذا الامتياز قائما (١) حتى الآن على شدة حنق الصينيين عليه . ومن العجيب أن الصينيين الذين تحولوا الى مسيحيين على أيدي المبشرين ادعوا لأنفسهم هذه « الحماية الخاصة » . . . وهؤلاء لم يكن لهم بأى حال من الأحوال حق فى هذه الحماية الخاصة ، ولكن هذا لم يغير من الموقف فى شيء ، لأن المبشرين الكبار الذين يمثلون الشعب الاستعماري القوي كانوا يقفون من ورائهم .

وكان المبشرون أحيانا يؤلبون قرية ضد قرية أخرى ، وكان القرويون وغيرهم ، اذا بلغ بهم الغيظ والسخط أقصاه ، يثورون ويهجمون على المبشرين . وفى بعض الأحيان كانوا يقتلونهم . عندئذ كانت الدولة الاستعمارية التى تقف من خلف هؤلاء المبشرين تنقض على الثوار وتأخذ منهم ما تشاء من تعويض .

وقد استغلت الدول الأوروبية الى أقصى الحدود بعض حوادث القتل التى وقعت فى الصين على المبشرين من أجناسهم ، فجعلت منها فرصا لمطالبة الصين بمزيد من الامتيازات والحصول عليها .

وثورة « تايبن » التى تعتبر من أفظع وأبشع الثورات التى ظهرت فى الصين قد بدأها أيضا مرتد اعتنق المسيحية على أيدي المبشرين . وقد قام بها عام ١٨٥٠ شخص نصف مجنون يدعى «هن شو تشوان» . . . فهذا المجنون الدينى نجح نجاحا بعيد المدى وانطلق فى كل مكان يدعو الى الحرب صائحا : « اقتلوا عبياد الأوثان » . ونتيجة لذلك

(١) كتبت هذه الرسالة عام ١٩٣٢ أى منذ ربع قرن . وقد ألغى هذا الامتياز بعد ذلك من الصين .

« المترجم »

قتلت جموع كثيرة • وقد خربت هذه الثورة أكثر من نصف الصين،
وقدر عدد من راحوا ضحيتها خلال اثني عشر عاما تقريبا بنحو عشرين
مليوناً من السكان • وليس من العدل في شيء أن نحمل المبشرين
المسيحيين والدول الأجنبية وزر هذه الثورة ومن قتلوا بسببها ،
وإذا كان يبدو أن المبشرين باركوها في أول الأمر فإنهم فيما بعد
أنكروا « هن شوتشوان » •

ولكن الحكومة الصينية ظلت على أية حال تعتقد أن المبشرين
المسيحيين مسئولون عنها • وهذا الاعتقاد يجعلنا ندرك مدى سخط
الصينيين على نشاط المبشرين وقتذاك وبعد ذاك • فالمبشرون في نظر
الصينيين لم يقدوا إلى بلادهم كرسى دين ودعاة خير وسلام ، وإنما
وقدوا إليها كعملاء للاستعمار ، أو كما قال كاتب انجليزى : « المبشر
أولاً ، ثم السفينة الحربية ، ثم احتلال البلاد وخطفها » • هكذا تنظر
العقليات الصينية إلى موكب الحوادث • وجدير بك أن تتذكرى هذا لأن
المبشر كثيراً ما يتسلل أكثر مما ينبغى في شئون الصين ومشاكلها •

ومن الغريب المدهش أن ثورة يقودها متعصب دينى مجنون يتاح
لها كل هذا النجاح قبل القضاء عليها نهائياً • والسبب الحقيقى فى
هذا هو أن النظام القديم فى الصين كان قد بدأ فى التدهار والانهيار •
وأذكر أنى أخبرتك فى آخر رسالة عن الصين عن عبء الضرائب فيها ،
وعن أحوالها الاقتصادية المتغيرة ، وعن ضجر الشعب المتزايد •
فالجمعيات السرية كانت تثور ضد حكومة المانشو فى كل مكان ،
وكانت بؤابر التمرد والثورة العامة تلوح فى الجو •

وما من شك فى أن التجارة الأجنبية ، وتجارة الأفيون والسلع
الأخرى قد زادت الأحوال سوءاً • لقد كانت التجارة الأجنبية ترد
طبعاً إلى الصين فى الماضى ، ولكن الأحوال كانت قد تغيرت فى
العصر الذى نتحدث عنه •

فمصانع الغرب الحديثة الآلات بدأت تنتج فى سرعة كثيرا من السلع التى لا يمكن بيعها كلها فى بلادها • لهذا كان على الدول الغربية أن تجد لمنتجات مصانعها أسواقا فى أماكن مختلفة من العالم • فهذه المنتجات وبخاصة الأفيون قلبت نظم التجارة القديمة رأسا على عقب ، ومن ثم زاد الاضطراب الاقتصادى سوءا على سوء • وكما حدث فى الهند بدأت أسعار السلع فى الأسواق الصينية تتأثر بالأسعار العالمية • وكل هذا زاد من بؤس الصينيين وضجرهم وقوى من ثورة « تابين » •

تلك كانت الأوضاع فى الصين عندما بدأت الدول الغربية تتدخل فى شئونها وتدخل عليها بقوتها وعظمتها • فليس عجيبا إذن أن ترى الصين نفسها غير قادرة على الصمود أمامهم ورفض مطالبهم • ولم تكد الدول الغربية - واليابان حديثا جدا كما سنرى فيما بعد - يرون ما عليه الصين من حيرة واضطراب وما تعانيه من متاعب وقلقل حتى استغلوا هذه الفرصة السانحة كل الاستغلال ، بالاستيلاء على امتيازات جديدة منها واغتصاب أجزاء من أراضيها أيضا •

وكان من الممكن حقا أن تسير الصين فى نفس الطريق التى سارت فيها الهند فتصبح امبراطورية لليابان ولدولة أو أكثر من الدول الغربية لولا ما كان بين هذه الدول من المنافسة والتحاسد والغيرة المتبادلة •

لقد حدثت عن حالة الصين العامة خلال القرن التاسع عشر ، كما حدثت عن انهيارها الاقتصادى ، وعن ثورة « تابين » ، وعن المبشرين والاعتداء الغربى عليها • وأشعر أنى بذلك قد انحرفت عن مجرى القصة الرئيسى ، ولكن يجب على الانسان أن يعرف شيئا عن هذا حتى يستطيع أن يتتبع بفهم سرد الحوادث • أقول ذلك لأن حوادث التاريخ لا تقع كالمعجزات ، وإنما تحدث لأن أسبابا شتى تتضافر

على وجودها ، وكثيرا ما تختفى هذه الأسباب وتكمن تحت سطح
الحوادث .

ولا بد أن حكام الصين الذين كانوا الى عهد قريب في غاية القوة
والعظمة قد اعترتهم الدهشة للتغيير المفاجيء الذى طرأ على عجلة الحظ
بالنسبة لهم . ولعلمهم لم يتبينوا أن جذور انهيارهم تمتد بعيدا في
ماضيهم ، ولعلمهم أيضا لم يقدرُوا تقدم الغرب الصناعى ونتائجه
الخطيرة على نظام الصين الاقتصادى .

ولم يملكوا ازاء كل ذلك إلا أن يحنقوا كل الحنق على هجمات
الاجانب « البرابرة » واعتداءاتهم عليهم . ويروى أن امبراطور الصين
فى ذاك العصر استعمل فى معرض الاشارة الى هذه الهجمات
والاعتداءات تعبيرا لطيفا من تعابير اللغة الصينية الفصحى معناه أنه
« لا يسمح لأحد أن يغط ويشخر بالقرب من سريره » ! ولكن حكمة
اللغات القديمة أو فكاهتها لا تستطيع ، مع ما تعلمه من ثقة مطمئنة
وشجاعة فائقة وضبط للنفس فى ساعات المحن والشدائد ، أن تصد
الاجنبى وترده .

لقد فتحت معاهدة نانكين الباب لبريطانيا فى الصين ، ولكن
بريطانيا ما كان ليسمح لها أن تفوز بأطايب الغنيمة وحدها ، ففرنسا
والولايات المتحدة دخلتا الصين أيضا وأكرهتاها على توقيع
معاهدة تجارية معهما . لقد كانت الصين وقتئذ ضعيفة مغلوبة على
أمرها ، ولكن هذا الاكراه الذى فرض عليها لم يجعلها تحب الأجانب
أو تحترمهم . أجل ، كان حنقها وسخطها شديدين على وجود هؤلاء
« البرابرة » بين ظهرانيها ، بيد أن الأجانب كانوا أبعد ما يكونون
عن الرضا بما ظفروا . فشهورتهم فى استغلال الصين قد بدأت تنمو
وتقوى ، وكانت بريطانيا أسبق الدول الأخرى فى هذا المضمار .

وقد كان هذا الوقت مناسباً جداً للأجانب لتحقيق ما يريدون منها، فقد كانت مشغولة بثورة « تايبن » ، ومن ثم لم يكن في مقدورها أن تقاوم هؤلاء الدخلاء . وحدث في عام ١٨٥٦ أن قبض والى كانتون على بحارة صينيين بتهمة القرصنة . وكانت السفينة التى يعمل فيها هؤلاء البحارة سفينة صينية لا صلة لها بالدول الأجنبية ، ولكنها كانت ترفع العلم البريطانى بتصريح من حكومة هونكونج ، ومع أن هذا التصريح كانت مدته قد انتهت فان الحكومة البريطانية ممثلة دور الذئب والحمل فى القصة المشهورة ، اعتبرت هذا الحادث عذراً كافياً للحرب .

لهذا أرسلت بريطانيا جنودها الى الصين ، ولكن حدث وقتئذ أن قامت فى الهند ثورة ١٨٥٧ فحولت بريطانيا هؤلاء الجنود من الصين الى الهند ، واضطرت حرب الصين أن تنتظر حتى تفرغ بريطانيا من القضاء على ثورة الهند .

وفى عام ١٨٥٨ بدأت حرب الصين الثانية ، وقد اكتشفت فرنسا فى مقتل مبشر فرنسى فى مكان ما فى الصين تكأة وعذراً لها للاشتراك فى هذه الحرب . ولهذا انقض الانجليز والفرنسيون على الصينيين الذين كانوا مشغولين بمكافحة ثورة « تايبن » .

وحاولت حكومتا انجلترا وفرنسا أن تستميلا روسيا والولايات المتحدة الامريكية للاشتراك أيضا فى هذه الحرب ، ولكنهما لم توافقا، وان كان لم يكن لديهما مانع من المشاركة فى الغنائم والأسلاب !

وقد اضطرت الصين أن تنزل فى النهاية على ارادة هذه الدول الأربعة فتوقع معها معاهدات جديدة أكرهت بمقتضاها على أن تعطيهم امتيازات أكثر من قبل ، وعلى أن تزيد فى عدد الموانئ الصينية المفتوحة أمام التجارة الأجنبية .

ولكن قصة حرب الصين الثانية لم تنته بعد الى هذا الحد ، فقد كان لا يزال هناك فصل آخر من المأساة آثاره ونتائجه أشد ايجاعا وايلاما . فالعادة عند ما تعقد معاهدات بين الحكومات أن تصدق عليها أو تؤكدها الدول المتعاقدة ، ولهذا اتفق عند عقد هذه المعاهدات الجديدة أن يتم التصديق عليها بين الصين من جهة ، وانجلترا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى فى مدينة بكين . فلما حان موعد هذا التصديق حضر ممثل روسيا مباشرة الى بكين بطريق البر ، بينما حضر ممثلو الدول الثلاث الأخرى بطريق البحر . وقد أرادوا أن يحضروا بسفنهم الى بكين عن طريق نهر البيهو Peiho الذى أقيمت عليه وقتذاك استحکامات وتحصينات دفاعا عن هذه المدينة التى كانت مهددة بشوار تابن .

من أجل ذلك طلبت الحكومة الصينية الى ممثلى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة أن يتفادوا الحضور الى بكين عن طريق النهر وأن يحضروا اليها عن طريق البر . ولم تكن الصين فى طلبها هذا متعنتة أو غير معقولة .

وقد استجاب ممثل أمريكا لهذا الطلب ، أما ممثلا بريطانيا وفرنسا فرفضاه وحاولا أن يشقا طريقهما بالقوة فى نهر البيهو الى بكين غير عابئين بوجهة نظر الحكومة الصينية . عندئذ أطلق الصينيون النيران على سفنهما وأكرهوهما على العودة بعد خسائر فادحة .

ولكن حكومتى بريطانيا وفرنسا المتعجرفتين المتغترستين اللتين لم تقبلا حتى مجرد الاصغاء الى التماس الحكومة الصينية لم تستطيعا أن تغتفرا لها هذا التصرف أو تحتملاه منها . ولهذا أرسلتا فرقا كثيرة من جنودهما للانتقام . وفى عام ١٨٦٠ زحفت هذه الجنود على مدينة بكين القديمة ، وتمثل انتقامهما فى صورة تدمير ونهب وحرق لمبنى من أجمل وأعجب المباني فى المدينة . ذلك المبنى هو قصر الصيف الامبراطورى، المعروف باسم «يوان مين يوان» Yuen-Ming-Yuen

والذى أكمل بناؤه فى عهد « تشين لون » . لقد كان هذا القصر حافلا
بذخائر الفن والأدب النادرة ، وبأعمال قديمة من البرونز ذات جمال
فائق ، وبقطع فنية من الخزف الصينى التى تستولى على الأبواب ،
وبمخطوطات وصور نادرة . وعلى الاجمال كان حافلا بكل لون من
ألوان الفنون وبأرفع وأرقى ما أنتجته الصين واشتهرت به منذ ألف
سنة .

فهؤلاء الجنود البريطانيون والفرنسيون ، أو هؤلاء الونداليون
الجهلة المغرمون بتخريب الآثار القديمة وأعمال الفن النادرة قد نهبوا
من هذه الذخائر القيمة ما نهبوا ثم دمروا ما بقى منها وأضرموا فيه
النيران التى ظلت مشتعلة أياما كثيرة !

فهل يكون أمرا عجبا أن ينظر الصينيون ، ومن خلفهم ثقافة آلاف
السنين ، الى هذه الوندالية بألم مبرح فى قلوبهم ، وأن يعتبروا
هؤلاء المحطمين جهلة برابرة لا يعرفون الا كيف يقتلون ويخربون ؟
ولا بد أن ذكريات الهون Huns والمغول وكثيرين غيرهم من المخربين
وبرابرة العصور القديمة قد عادت اليهم .

ولكن البرابرة الأجانب لم يهتموا أى اهتمام برأى الصينيين
فيهم . لقد شعروا بالحماية والأمن فى ظل سفنهم الحربية ومع أسلحة
الحرب الحديثة . وماذا يهمهم اذا كانت الذخائر الثمينة النادرة التى
جمعت خلال مئات السنين لم يعد لها وجود أى وجود ؟ وماذا يعنيه
من أمر الفن الصينى والثقافة الصينية ؟ وكأنى بهم يتمثلون بقول
القائل : « مهما يحدث فقد حصلنا على حكمة المدفع ، أما هم فلم
يحصلوا على هذه الحكمة ! » .

١٣١ — تقدم الديمقراطية

١٠ فبراير سنة ١٩٣٣

حاولت في رسالتي الماضية أن أعطيك لمحة عن تقدم العلم في القرن التاسع عشر . والآن دعينا ننظر الى مظهر آخر من مظاهر هذا القرن ، وأعني بذلك ظهور فكرة الديمقراطية .

ولعلك تذكرين أنى حدثت عن حرب الأفكار في فرنسا القرن الثامن عشر ، تلك الحرب التي شنها فولتير أكبر مفكر وكاتب في عصره ، والتي اشترك معه فيها غيره من مفكري فرنسا وكتابها . فهؤلاء قد تحدوا كثيرا من الأفكار الدينية والاجتماعية القديمة ، وطلعوا في جراءة وشجاعة على الناس بنظريات جديدة .

وهذا التفكير السياسي كان في جملته قاصرا على فرنسا في ذاك الوقت . وفي ألمانيا شغل فلاسفتها أنفسهم بأعوص قضايا الفلسفة وأعمقها . أما في إنجلترا فقد كانت الصناعة والتجارة في ازدياد وانتشار ، ولم يكن أكثر الناس فيها ميالين الى التفكير الا اذا فرضت الظروف عليهم ذلك فرضا .

وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر بإنجلترا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كتاب مشهور هو كتاب آدم سميث المسمى « ثروة الشعوب » . لم يكن كتابا عن السياسة بمفهومها العام ، وإنما كان كتابا عن الاقتصاد السياسي . فهذا الموضوع ، ككل الموضوعات الأخرى في ذاك العصر ، كان مختلطا بالدين والأخلاق ، ومن ثم كان هنا كثير من سوء فهمه والخيرة في شأنه .

وقد عالج آدم سميث بطريقة علمية غير عابئة بكل المشاكل الخلقية ، وحاول أن يجد قوانين طبيعية تضبط الاقتصاد وتنظمه . والاقتصاد ، كما يحتمل أن تعرفي ، يعالج سياسة دخل الأفراد والدول وصرفهم من حيث ما ينتجون ويستهلكون ، ومن حيث صلاتهم بعضهم ببعض وبالدول والشعوب الأخرى .

وفي رأي آدم سميث أن كل هذه العمليات المعقدة تقريبا قد حدثت بناء على قوانين طبيعية محددة أوردتها في كتابه . وفي رأيه أيضا أن الحرية الكاملة يجب أن تعطى من أجل تنمية الصناعة فلا يتدخل شيء في هذه القوانين أو يعترض سبيلها .

كان هذا بدء مذهب سياسة السماح للأشياء بأن تأخذ طريقها الطبيعي وسياسة عدم التدخل في المشروعات الخاصة ، هذا المذهب الذي حدثتك قليلا عنه من قبل .

وكتاب آدم سميث لا علاقة له بالأفكار الديمقراطية الجديدة التي نمت وانتشرت في فرنسا وقتئذ . ولكن محاولته التي تمثلت في المعالجة العلمية لمشكلة من أهم المشاكل التي أثرت في الناس والشعوب تظهر أن الناس كانوا يسرون في اتجاه جديد بعيد عن الاتجاه اللاهوتي القديم ، وعن نظراته إلى كل شيء . ويعتبر آدم سميث واضع علم الاقتصاد ، وكثيرون من علماء الاقتصاد الانجليز في القرن التاسع عشر قد أستوحوا نظرياته ، وتأثروا بأفكاره .

وكان علم الاقتصاد الجديد قاصرا على أساتذة الجامعات وبعض الكتاب المشهورين . ولكن أفكار الديمقراطية الجديدة كانت في الوقت ذاته آخذة في الانتشار ، وقد أعطتها الثورتان الأمريكية والفرنسية شعبية وذيوعا هائلين . فالألفاظ والتعابير الخلاصة التي اشتمل عليها اعلان الاستقلال الأمريكي و اعلان الحقوق الفرنسي هزت الناس وبلغت إلى

الاعماق من نفوسهم وقلوبهم • كذلك حملت الى الملايين من المستعبدين والمستغلين نشوة الامل ورسالة الانقاذ والخلاص •

فكلا الاعلانين تحدث عن الحرية والمساواة ، وعن السعادة التى هى حق طبيعى لكل انسان • ولكن هذا الاعلان المشتمل على هذه الحقوق القيمة لم يؤد الى حصول الناس عليها • ويمكن القول بأنه حتى الآن وبعد مرور قرن ونصف قرن على هذين الاعلانين لا يتمتع بهذه الحقوق الا القليل • ولكن حتى اعلان هذه المبادئ وحده كان أمرا غير عادى وباعثا على الامل •

وكانت الفكرة القديمة فى أوربا وغيرها من الأماكن ، وفى المسيحية وغيرها من الأديان ، هى أن الخطيئة والشقاء قضاء محتوم على الانسان عامة ، ويبدو أن الدين أعطى مكانة دائمة بل وموقرة أيضا للفقير والبؤس فى هذه الدنيا • فكل ما وعد به الدين ومنى به الانسان من خير وثواب كان ليلقاه فى الحياة الأخرى ، وفى هذا يأمرنا الدين أن نحتمل كل ما هو مقدر علينا فى استسلام ، وألا نبغى أو ننشد أى تغيير جوهرى • ومن ثم شجع الاحسان والتصدق على الفقير دون التفكير فى القضاء على الفقر أو على النظام الذى أدى اليه • بل ان فكرة الحرية والمساواة ذاتها كانت تتعارض مع النظرة الاستبدادية للكنيسة والمجتمع •

والديمقراطية طبعاً لم تزعم أن كل الناس فى حقيقة أمرهم متساوون • لم تستطع الديمقراطية أن تزعم هذا ، لأن من الواضح أن هناك فروقا بين مختلف الناس • فهناك عدم المساواة الجثمانية التى تؤدى الى أن يكون بعض الناس أقوى من بعض • وهناك عدم المساواة العقلية التى تؤدى الى أن يكون من الناس من هم أكفأ وأكثر عقلا وحكمة من الآخرين • وهناك عدم المساواة الخلقية التى تؤدى الى أن يكون بعض الناس أنانيين وبعضهم مؤثرين غير أنانيين •

ومن الجائز أن كثيرا من ألوان عدم المساواة ناتج من اختلاف النشأة واختلاف التعليم ، أو عدم التعليم . فإذا أخذنا اثنين متساويين في الاستعداد والقدرة والمهارة ، وعلمنا أحدهما تعليما حسنا ولم نعلم الآخر أى تعليم ، فانتا نرى بعد سنوات أن الفرق بينهما شاسع . وإذا غدينا أحدهما تغذية صحية ، والآخر تغذية رديئة ناقصة فان الأول يشب قويا صحيحا على حين ينشأ الثانى هزيلا مريضا قليل النمو . ولهذا فالنشأة والبيئة والتعليم والتدريب من شأنها أن تحدث فرقا كبيرا بين انسان وانسان . ومن يدرى فلعلنا اذا أعطينا نفس الظروف والفرص للجميع أن يكون عدم المساواة بين الناس أقل بكثير مما هو عليه الآن . وعندى أن هذا أمر محتمل جدا .

ولكن اذا نظرنا للموضوع من وجهة نظر الديمقراطية فاننا نرى انها فى الوقت الذى تسلم فيه بأن الناس فى الواقع غير متساوين ، تقرر أن كل انسان يجب أن يعامل على أن له مثل ما لآى انسان آخر من قيمة سياسية واجتماعية متساوية . فاذا قبلنا هذه النظرية فى جملتها فان الامر ينتهى بنا الى كل نوع من أنواع النتائج الثورية .

ولسنا بحاجة الى الخوض فى هذه النتائج فى هذه المرحلة ، ولكن نتيجة واحدة من هذه النتائج هى أن كل شخص يجب أن يكون له صوت فى انتخاب ممثل أو نائب للبرلمان . فالصوت هو رمز القوة السياسية ، ومفروض أنه اذا كان لكل شخص صوت ، فانه يكون له نصيب مساو لنصيب غيره فى القوة السياسية . ولهذا فان التوسع فى حق الانتخاب كان أحد المطالب الرئيسية للديمقراطية خلال القرن التاسع عشر . فحق الانتخاب لكل من بلغ سن الرشد يعنى أن كل واحد من هؤلاء يجب أن يكون له صوت فى الانتخاب . ولعهد طويل كان غير مسموح للنساء بالانتخاب . وحديثا جدا قامت النساء ، ولا سيما فى بريطانيا ، بصخب شديد من أجل المطالبة بحقهن الانتخابى .

وفى معظم الدول التقدمية قد أعطى الآن حق الانتخاب لكل من بلغ سن الرشد من الرجال والنساء على السواء .

والعجيب فى هذا الموضوع هو أن معظم الناس عندما حصلوا على حق الانتخاب وجدوا أنه لم يحدث فرقا كبيرا بالنسبة لهم . فعلى الرغم من اكتسابهم هذا الحق لم يكن لهم قوة أى قوة فى الدولة ، لأن إعطاء الحق فى الانتخاب لرجل جائع أمر عديم الجدوى والنفع .

فالرجال ذوو القوة والسلطة الحقيقية يستطيعون استغلال جوعه ويجعلونه يؤدي أى عمل يعود عليهم بالمنفعة . وعلى هذا فالقوة السياسية التى افترض تولدها من حق الانتخاب وجد أنها بدون قوة اقتصادية خيال بلا حقيقة ، كما أن الأحلام الجريئة التى حلم بها الديمقراطيون الأوائل من أن المساواة ستتلو حق الانتخاب لم تتحقق .

على أية حال ان هذا كان تطورا حديث العهد جدا . ففى نهاية القرن الثامن عشر ، وبداية القرن التاسع عشر كان هناك تحمس شديد بين صفوف الديمقراطيين . فالديمقراطية كان ينظر اليها على أنها ستجعل كل انسان مواطنا حرا متساويا مع غيره ، وأن حكومة الدولة ستعمل من أجل سعادة كل انسان .

كذلك وجد رد فعل شديد ضد استبداد ملوك وحكومات القرن التاسع عشر ، وضد اساءة استعمال سلطتهم المطلقة . وقد أدى هذا بالناس الى المناذاة بحقوق الأفراد فى تصريحاتهم . ولا شك أن ما نادى به الاعلانان الأمريكى والفرنسى من حقوق للأفراد دون ربطها بالتزاماتهم ازاء المجتمع كان نقطة ضعفهما . فليس بالأمر السهل فى المجتمع المعقد أن تفصل الأفراد وتعطيهم حرية كاملة . فمصالح الفرد

والجماعة قد تتصادم ، بل انها تتصادم فعلا . ومهما يكن من أمر فقد ناصرت الديمقراطية الحرية الفردية الى حد كبير .

فانجلترا التى كانت فى القرن التاسع عشر متخلفة فى الأفكار السياسية قد تأثرت تأثرا كبيرا بالثورتين الأمريكية والفرنسية . وكان رد الفعل الأول فيها هو الخوف من الأفكار الديمقراطية الجديدة ، ومن احتمال وقوع ثورة اجتماعية ، ومن ثم أصبحت طبقاتها الحاكمة أكثر محافظة ورجعية .

ولكن مع ذلك انتشرت الأفكار الجديدة بين المثقفين . فتوماس بين Thomas Paine كان من الشخصيات الانجليزية فى هذا العصر . لقد كان فى أمريكا ابان حرب الاستقلال وساعد الأمريكيين ، ويبدو أنه كان مسئولا الى حد ما عن اعتناق الأمريكيين لفكرة الاستقلال التام ، وقد ألف عند عودته الى انجلترا كتاب « حقوق الانسان » دفاعا عن الثورة الفرنسية التى كانت قد بدأت .

ففى هذا الكتاب هاجم الملكية ودافع عن الديمقراطية ، وقد اعتبرته الحكومة الانجليزية بسبب ذلك مجرما خارجا عن حماية القانون ، فاضطر عندئذ أن يفر الى فرنسا . وفى فرنسا سرعان ما أصبح عضوا فى المجلس القومى ، ولكن اليعاقة سجنوه فى عام ١٧٩٣ لمعارضته فى اعدام لويس السادس عشر .

وفى سجن باريس كتب كتابا آخر هو « عصر العقل » انتقد فيه النظرة الدينية . وقد أفرج عنه بعد وفاة روبسبير . ولأنه كان خارج انجلترا حكمت المحاكم الانجليزية بالسجن على الناشر الانجليزى لكتابه « عصر العقل » ، الذى اعتبر كتابا خطرا على المجتمع ، لافتراض أن الدين ضرورى للابقاء على الفقراء فى مكانهم . كذلك حكم بالسجن على بعض ناشرين من بينهم نساء ، تجرؤوا على طبع كتاب « بين » .

وانه لأمر ذو بال أن نرى شيلي الشاعر يرسل خطاب احتجاج الى
القاضى .

وتعتبر الثورة الفرنسية فى أوروبا أم الأفكار الديمقراطية التى
انتشرت أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر . وفى الحقيقة
ان أفكار هذه الثورة استمرت فعالة على الرغم من الأحوال التى كانت
تتغير تغيرا سريعا . فهذه الأفكار الديمقراطية كانت رد الفعل الذكى
الواعى ضد الملوك والسلطة الاستبدادية ، كما كانت مؤسسة على
أحوال سابقة لدور التصنيع .

ولكن الصناعة الجديدة واستخدام البخار والآلات الضخمة الكبيرة قد
قلبت النظام القديم رأسا على عقب . ومن الغريب مع هذا أن التقدميين
والديمقراطيين فى أوائل القرن التاسع عشر تجاهلوا هذه التغيرات
والتطورات واستمروا يتكلمون بعبارات الثورة الخلافة وبلغة اعلان
حقوق الانسان . وربما كانت هذه الأشياء بالنسبة لهم مجرد أمور
مادية ، لم تؤثر فى مطالب الديمقراطية العليا من روحية وخلقية
وسياسية .

بيد أن الأمور المادية لها طريقة ترفض بها أن تكون متجاهلة ،
ومن المهم أن نعرف مدى صعوبة تخلى الناس عن الأفكار القديمة
واعتناق الأفكار الجديدة . فهم يغمضون أعينهم ويقفلون
عقولهم ويرفضون أن يروا . وهم يقاتلون من أجل القديم متمسكين
به حتى ولو آذاهم وأضر بهم . ويكادون يفعلون أى شئ الا أن يتقبلوا
الأفكار الجديدة وأن يوفقوا بين أنفسهم وبين الأحوال الجديدة ، ذلك
لأن قوة المحافظة قوة كبيرة غير عادية .

فالتقدميون الذين يتخيلون أنفسهم أسرع من غيرهم فى فهم الجديد
وتقبله ، كثيرا ما يتمسكون بالقديم الزائف ويقفلون أعينهم عن

الأحوال المتغيرة • فلا عجب أن يكون التقدم بطيئاً ، وأن يحدث تخلف كبير بين الأوضاع الحقيقية ، وبين أفكار الناس ، مما يؤدي الى مواقف ثورية •

ولهذا كانت الديمقراطية لعشرات السنين استمراراً لتقاليد الثورة الفرنسية وأفكارها ، ففشل الديمقراطية في أن توفق وتوائم بين نفسها وبين الأوضاع الجديدة أدى الى ضعفها قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، والى انكار كثيرين من الناس لها فيما بعد في القرن العشرين • وفي الهند اليوم لا يزال كثير من ساستنا التقدميين يتكلمون بلغة الثورة الفرنسية وحقوق الانسان غير مقدرين أن أشياء كثيرة قد حدثت منذ قيام هذه الثورة •

وقد آمن الديمقراطيون الأوائل بالمذهب العقلي الذي يحكم العقل وحده ويرفض ما عداه • فمطالبتهم بحرية الفكر وحرية القول قلما يمكن التوفيق بينها وبين علم اللاهوت والدين الجازم القاطع • وهكذا انضمت الديمقراطية مع العلم في اضعاف موقف العقائد اللاهوتية • وقد بدأ الناس يتجرءون على النظر في التوراة بعين مجردة كما لو كان كتاباً عادياً وليس شيئاً يجب أن يتقبلوه قبولاً أعمى وبدون نظر واختبار •

فهذا النقد للتوراة سمي « النقد الأسمى » ، وقد انتهى النقاد الى أن التوراة مجموعة أعمال كتبها أشخاص مختلفون في عصور مختلفة • وكان من رأيهم أيضاً أن المسيح لم يقصد أن يؤسس ديانة • وقد تزعزعت بسبب هذا النقد كثير من المعتقدات القديمة •

ولما كان تقدم العلوم وانتشار الأفكار الديمقراطية قد أخذوا يعملان على اضعاف أسس الديانة القديمة، فان محاولات بذلت لتشكيل فلسفة تحل محل الديانة القديمة • ومن هذه المحاولات محاولة

الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت الذى عاش من ١٧٩٨ الى ١٨٥٧ .

فهذا الفيلسوف الفرنسى شعر بأن فلسفة الالهيات القديمة والاديان العقيدية قد استنفدت زمنها ، ولكنه كان مقتنعا بأن نوعا ما من الدين ينبغي أن يبقى كضرورة اجتماعية . من أجل ذلك اقترح « دين الانسانية » وسماه « الايجابية » . وقوام هذا الدين هو الحب والنظام والتقدم ، ولم يكن فى هذه الفلسفة الدينية شىء خارق للعادة لأنها أسست على العلم .

وفكرة تقدم الجنس البشرى كانت من وراء هذه الفلسفة كما كانت حقيقة من وراء كل أفكار القرن التاسع عشر الشائعة تقريبا .

وقد ظلت ديانة « كونت » عقيدة قلة من المثقفين ، ولكن تأثيره العام على الفكر الأوروبى كان تأثيرا كبيرا . ويقال انه هو أول من بدأ دراسة علم الاجتماع الذى يعالج المجتمع الأنسانى والثقافة الانسانية .

وكان يعاصر كونت ، وأن كان قد عاش سنوات كثيرة بعده ، الفيلسوف والاقتصادي الانجليزى جون ستيوارت ميل ، ١٨٠٦ - ١٨٧٣ . وقد تأثر ميل بتعاليم كونت وأفكاره الاجتماعية ، وحاول أن يعطى توجيهها جديدا لمدرسة الاقتصاد السياسى الانجليزية التى نشأت على تعاليم آدم سميث وأدخلت بعض المبادئ الاجتماعية على التفكير الاقتصادى .

ولكن ميل معروف أكثر كزعيم لمذهب المنفعة الذى يقول بأن سعادة الانسان هى أمنية الفضيلة وممرهاها . فهذا المذهب كان نظرية جديدة بدأت مبكرة قليلا فى انجلترا ، ولكن الفضل يرجع الى ميل فى ابرازها ولفت الأنظار اليها . وفلسفتها الموجهة ، كما يوحى اسمها ، هى المنفعة أو المصلحة . « فأكبر قدر ممكن من السعادة لا أكبر عدد

ممکن من الناس « كان المبدأ الاساسى لا تباع مذهب المنفعة ،
والمقياس الوحيد عندهم للخطأ والصواب .

فالأعمال يحكم عليها بالصواب بالنسبة الى ما تحدثه عادة من
سعادة ، ويحكم عليها بالخطأ بالنسبة الى ما تحدثه عادة من عكس
السعادة . وقد نادى أتباع هذا المذهب بتنظيم المجتمع والحكم على
أساس وجهة النظر هذه ، أى احداث أكبر قدر ممكن من السعادة
لأكبر عدد ممكن من الناس .

فهذا المذهب مخالف تماما للمذهب الديمقراطي الذى يدعو الى
حقوق متساوية لكل الناس . فأكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر
عدد ممكن من الناس يستوجب بصورة مدركة التضحية بأقل عدد
منهم وعدم سعادتهم . لقد أردت فقط أن أبين لك هذا الفرق دون
التعرض الى درسه أو تفصيله هنا . وهكذا أصبحت الديمقراطية
تعنى حقوق الأغلبية .

وكان جون ستيورت ميل مدافعا كبيرا عن الفكرة الديمقراطية
القائلة بحرية الفرد . وقد ألف كتابا صغيرا اشتهر فيما بعد
سماه « عن الحرية » . ولكى تأخذى فكرة عن هذا الكتاب وآراء صاحبه
أقدم اليك هنا نبذة منه عن حرية القول وحرية التعبير عن الرأى .
قال :

« . . . ان كم الأفواه عن القول ومنعها من التعبير عن الرأى يعتبر
شرا غريبا ، انه نوع من سرقة الجنس البشرى فى الجيل الحاضر والأجيال
القادمة . فاذا كان الرأى صوابا فان الناس محرومون من فرصة
استبدال الصواب بالخطأ . واذا كان الرأى خطأ فانهم يفقدون ما يكاد
يكون نفعاً كبيراً ، ألا وهو الادراك الأوضح والاثر الأشد للحقيقة
الناشئة من اصطدامها بالخطأ . ولا نستطيع أن نكون متأكدين من

أن الرأي الذى تسعى جهدنا لخنقه رأى خاطيء • وحتى اذا كنا متأكدين من خطئه فان خنقه شر أيضا •

فموقف كهذا لا يستطاع التوفيق بينه وبين الديانة العقيدية والاستبداد ، ولا يعدو موقف فيلسوف ينشد الحقيقة ويسعى وراءها •

لقد أعطيتك أسماء بعض أعلام المفكرين فى أوربا الغربية خلال القرن التاسع عشر لتظهر طريق تطور الأفكار ولتكون معالم فى دنيا الفكر • ولكن تأثير هؤلاء المفكرين والديمقراطيين الأوائل عامة كان مقصورا تقريبا على الطبقات المثقفة • والى حد ما تسرب هذا التأثير من المنقفين الى غيرهم •

ومع أن التأثير المباشر على الجماهير كان تأثيرا ضئيلا فان التأثير غير المباشر للتصور الديمقراطي كان تأثيرا كبيرا • وحتى التأثير المباشر فى بعض الأمور كالمطالبة بحق الانتخاب كان تأثيرا كبيرا •

وعند ما اقترب القرن التاسع عشر من نهايته كانت حركات وأفكار أخرى قد تطورت ، كحركة الطبقة العاملة وفكرة الاشتراكية • فهذه أثرت على الأفكار الديمقراطية الشائعة وتأثرت بها •

ومن الناس من نظر الى الاشتراكية على أنها بديل للديمقراطية ، ومنهم من اعتبرها جزءا ضروريا منها • وقد رأينا تشبع الديمقراطيين بأفكار الحرية والمساواة وحق كل انسان فى السعادة على قدم المساواة مع غيره • ولكن سرعان ما أدركوا أن السعادة لا تتحقق بمجرد كونها حقا أساسيا • واذا صرفنا النظر عن أشياء أخرى فان قدرا معيننا من الحياة الحسنة أمر ضرورى ، فالشخص الذى يتضور جوعا لا يحتمل أن يكون سعيدا •

وقد قادهم هذا الى أن يفكروا فى أن السعادة تعتمد على حسن توزيع الثروة بين الناس ، وهذا النحو من التفكير يدخل فى الاشتراكية التى سأحدثك عنها فى رسالتى القادمة .

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر انضمت الديمقراطية الى القومية واتحدتا معا فى كل قطر يخضع لحكم قطر آخر أو حيث الشعوب تقاتل من أجل الحرية . فمازىنى الايطالى كان مثالا لهذا النوع من القومية الديمقراطية .

وفى أواخر هذا القرن فقدت القومية طابعها الديمقراطى تدريجا وأصبحت أشد اعتداء وسلطاناً وزعامة . فالدولة أصبحت الإله الذى يجب أن يعبد كل فرد فيها .

وكان رجال الأعمال الانجليز هم زعماء الصناعة الجديدة ، وهؤلاء لم يهتموا أو يبالوا كثيرا بالمبادئ الديمقراطية السامية ، ولا بحق الناس فى الحرية . ولكنهم اكتشفوا أن اعطاء أكبر قسط من الحرية من شأنه أن يعود على أعمال التجارة والصناعة بالنفع والخير والازدهار . كما اكتشفوا أن الديمقراطية رفعت من مستوى العمال وأوهمتهم أن لهم بعض الحرية ، وجعلتهم أكثر كفاية فى أعمالهم . وكان نشر التعليم الشعبى لازما أيضا للكفاية الصناعية .

وعند ما أدرك رجال الأعمال والصناعة ما فى ذلك من نفع وغنى لهم وافقوا فى تقى وورع على أن يمنحوا الشعب هذه المنن والهبات . وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر انتشر بسرعة نوع من التعليم بين الجماهير فى انجلترا وغرب أوروبا .

١٣٢ — ظهور الاشتراكية

١٣ فبراير ١٩٣٣

كُتبت اليك عن تقدم الديمقراطية ، ولكن تذكرى أنه كان تقدما
وليد حرب شاقة . فمن لهم مصالح من الناس فى نظام قائم لا يريدون
التغيير ، ويقاومونه بكل ما أوتوا من قوة .

ومع هذا فالتقدم أو الترقى يعنى التغيير ، فأى نظام أو أسلوب
للحكم محتوم عليه أن يفسح المكان لما هو خير منه . وهؤلاء الذين
يرغبون فى تقدم من هذا القبيل يتحتم عليهم بالضرورة أن يهاجموا
النظم والعادات القديمة ، ومن ثم يقودهم طريقهم الى الانكار الدائم
للأوضاع القائمة والى الاصطدام بمن ينتفعون منها .

فالتطبقات الحاكمة فى أوروبا الغربية قاومت كل تقدم خطوة خطوة .
ففى انجلترا لم يستسلموا ويدعنوا الا عند ما وجدوا أن الرفض قد
يؤدى الى ثورة عنيفة . وسبب آخر لتقدمهم ، كما ذكرت من قبل ،
هو الشعور بين رجال المال والأعمال بأن بعض الديمقراطية فيه غنم
لهم ، وأنه يعود على التجارة والصناعة بالرواج والازدهار .

وأود هنا أن أعود فأذكرك بأن هذه الأفكار الديمقراطية كانت
خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر مقصورة الى حد كبير على

المثقفين • وقد تأثر العمال تأثرا قويا بنمو الصناعة ، واضطروا تبعا لذلك أن يهجروا الأرض الى المصانع • ثم أخذت طبقة من العمال الصناعيين تظهر وتتكدس فى مدن للمصانع قبيحة غير صحية ، وعلى مقربة من مناجم الفحم عادة •

وكان هؤلاء العمال يتطورون تطورا سريعا ، ويكشفون عن عقلية جديدة ، كما كانوا يختلفون كل الاختلاف عن العمال الزراعيين وأرباب الحرف ممن ازدحموا على المصانع مدفوعين بدافع الجوع • ولما كانت انجلترا أسبق من غيرها فى إقامة هذه المصانع ، فانها كانت أيضا أول قطر ظهرت فيه طبقة العمال الصناعيين هذه •

وكانت الأحوال فى المصانع مرعبة مفرعة ، وأسىء من ذلك كانت بيوت العمال وأكواخهم ، وبين العمال كان يتفشى البؤس المؤلم الشديد • وكان الأحداث الصغار والنساء يشتغلون ساعات طوالا لدرجة لا يكاد العقل يصدقها •

ومع هذا فكل المحاولات التى بذلت لتحسين أحوال المصانع ومساكن العمال عن طريق التشريع قد باءت بالفشل لمعارضة أرباب المصانع لها معارضة قوية ، فهؤلاء كانوا يردون على كل محاولة للإصلاح بأنها تدخل فاضح فى حقوق الملكية واعتداء صارخ عليها • وحتى محاولة ادخال المرافق الصحية على المنازل اجباريا قد عورضت أيضا على أساس أنها تدخل فى حقوق الملكية •

وكان العمال الانجليز الفقراء يموتون من الجوع البطيء والارهاق فى العمل ، فبعد الحروب النابليونية كانت انجلترا مجهدة منهكة ، تعاني انهيارا اقتصاديا ، ويقاسى العمال فيها أكثر من أى طبقة أخرى • والنتيجة الطبيعية لذلك أن العمال أرادوا أن يكونوا جمعيات ليحموا أنفسهم ويقاثلوا من أجل الوصول الى أحوال خير من الأحوال

التي كانوا عليها • نعم ، كان لديهم من قبل نقابات من أرباب الحرف والعمال المهرة ، ولكن هذه كانت شيئا مختلفا تمام الاختلاف ، ولا بد أن ذكرى هذه النقابات كانت اغراء لعمال المصانع بأن يكونوا جمعيات خاصة بهم ، ولكنهم منعوا من عمل ذلك •

فالتطبيقات الانجليزية الحاكمة قد أقلقتها الثورة الفرنسية وأفزعتها الى حد بعيد ، ولهذا أصدرت قوانين تقضى بمنع العمال الفقراء من اجتماع بعضهم ببعض لبحث مشاكلهم وأسباب متاعبهم • وقد أدت دائما دعوى المحافظة على « القانون والنظام » فى إنجلترا، وكما تؤدي الآن فى الهند خدمة نافعة جدا فى تحقيق ماآرب الطبقة الحاكمة القليلة العدد ، ومرء جيوبها •

ولكن اصدار قوانين تحرم اجتماع العمال لم تحسن من أحوالهم • بل على العكس استثارت غضبهم وجعلتهم بسبب فقدان الأمل على أهبة الخروج عن طورهم • ومن أجل ذلك كونوا جمعيات سرية ، وأخذ بعضهم على بعض الموائيق والعهود التي تحتم التزام السرية والاجتماع فى غلس الظلام وفى أماكن نائية بعيدة عن الأنظار • وكانوا ، اذا خانهم أحد أو انكشف أمرهم ، يقدمون الى القضاء فيوقع عليهم أفظع العقوبات • وفى حالات غضبهم حدث أحيانا أن خربوا الآلات التي كانوا يعملون عليها ، وأشعلوا النيران فى المصانع ، حتى لقد قتلوا بعض أسيادهم •

وأخيرا ، وعلى التحديد فى عام ١٨٢٥ ، رفعت القيود جزئيا عن جمعيات العمال ، فبدأت اتحاداتهم تتشكل وتظهر بواسطة العمال ذوى المهارة الفنية والأجور المرتفعة • أما الغالبية العظمى من العمال غير المهرة فقد ظلوا غير منظمين لمدة طويلة • وهكذا أخذت حركة العمال شكل اتحادات تكونت لتحسين أحوال العمال عن طريق المساومة الجماعية •

وكان سلاح العمال الوحيد الفعال هو حق الاضراب عن العمل الذى كان يترتب عليه تعطيل المصانع وشل حركتها . ولا شك أن هذا كان سلاحا قويا ، ولكن كان فى يد أرباب المصانع سلاح أقوى وهو القدرة على اماتتهم جوعا حتى يدعنوا ويستسلموا . وهكذا استمر كفاح الطبقة العاملة مع توضيحات كثيرة من جانب العمال ومكاسب ضئيلة بالنسبة لهم . ولما كانوا لم ينالوا بعد حق الانتخاب فإنه لم يكن لهم تأثير مباشر على البرلمان . ولائحة قانون الانتخاب المعدلة التى صدرت عام ١٨٣٢ ، والتى لقيت معارضة قوية ، لم تعط حق الانتخاب الا لاغنياء الطبقة الوسطى فقط ، أما الطبقة العاملة وفقراء الطبقة الوسطى فلم يكن لهم بمقتضى هذه اللائحة حق فى الانتخاب .

وفى هذه الاثناء ظهر من بين أرباب المصانع فى مدينة مانشستر رجل انسانى تألم لأحوال العمال البائسة المحزنة . ذلك الرجل المحب للخير العام هو « روبرت أوين » Robert Owen وكان أول ما قام به هو أنه أدخل اصلاحات كثيرة على مصانعه وحسن من أحوال عماله هو . ولم يقف عند هذا الحد وإنما أثار حركة وضجة قوية بين صفوف طبقته من أرباب المصانع محاولا أن يقنعهم عن طريق الحجة بضرورة معاملة العمال معاملة حسنة . ويرجع الفضل اليه نسبيا فى موافقة البرلمان الانجليزى على أول قانون لحماية العمال من طمع أرباب المصانع وأنانيتهم . وقد صدر هذا القانون الذى سمي بقانون المصانع عام ١٨١٩ . وكان من نصوص هذا القانون نص يحرم اشتغال الأطفال البالغين من العمر تسع سنوات أكثر من اثنتى عشرة ساعة يوميا . فهذا النص فى ذاته يعطيك فكرة عن الأحوال السيئة الشنيعة التى كان العمال مضطرين الى الخضوع والاذعان لها .

ويقال ان روبرت أوين هو أول من استعمل كلمة « الاشتراكية » حوالى عام ١٨٣٠ . وطبيعى ان فكرة التقريب بين مستوى الأغنياء والفقراء ، وتوزيع الملكية توزيعا متساويا تقريبا لم تكن فكرة جديدة ،

فكثيرون من الناس قد آيدوا هذه الفكرة وحبذوها فى الماضى • وقد ظهر حتى فى مجتمعات العصور الأولى نوع من الشيوعية حيث كانت الأرض وغيرها ملكا شائعا بين كل أفراد القرية أو الجماعة • وهذا يسمى بالشيوعية البدائية ، وقد وجدت فى أقطار كثيرة منها الهند •

ولكن الاشتراكية الجديدة كانت شيئا أكثر جدا من الرغبة الغامضة فى التسوية بين الناس • لقد كانت أكثر تحديدا ، كما قصد بها أن تطبق على نظام الانتاج فى المصانع • ومن ثم كانت وليدة النظام الصناعى •

وكانت فكرة أوين تتلخص فى تكوين جمعيات تعاونية للعمال وفى أن يكون لهم حصة أو نصيب فى المصانع • وقد أسس مصانع ومستعمرات نموذجية فى انجلترا وأمريكا كان لها حظ من النجاح • ولكنه فشل فى استمالة الحكومة أو اخوانه من أرباب المصانع الى وجهة نظره • على أية حال لقد كان تأثيره كبيرا فى حياته ، كما يرجع اليه الفضل فى شيوع كلمة الاشتراكية التى استهوت أفئدة الملايين من الناس •

وفى كل هذا الوقت كانت الصناعة الرأسمالية تنمو وتزداد ، وكلما سجلت نجاحا اثر نجاح تزايدت مشكلة الطبقة العاملة • وقد أدت الرأسمالية الى انتاج أكثر فأكثر • وبسبب هذا ازداد تعداد السكان بسرعة هائلة حيث أصبح فى مقدور أكثر الناس أن يعملوا ويتغذوا • وقد أنشئت مؤسسات تجارية وصناعية ضخمة عن طريق التعاون المعقد بين الطبقات المختلفة • وفى نفس الوقت قضى على منافسة المؤسسات التجارية والصناعية الصغيرة •

وقد أخذ الغنى والثراء يتدفق على انجلترا ، ولكن كثيرا من هذا الغنى والثراء استخدم فى انشاء مصانع جديدة أو طرق حديدية أو غير ذلك من مشروعات الاستثمار • وحاول العمال أن يحصلوا على

امتيازات وشروط أفضل عن طريق الاضرابات ، ولكن هذه فشلت.
فى العادة فشلا ذريعا . عندئذ لم يجد العمال أمامهم الا أن ينضموا الى
حركة الاصلاح التى ظهرت عام ١٨٣٧ ، ولكن حركة الاصلاح هذه
انهارت فى عام ١٨٤٨ المعروف بعام الثورة .

وقد أذهل نجاح الرأسمالية الناس وبهر أبصارهم ، ولكن كان
لا يزال هناك بعض التقدميين والانسانيين الذين لم يشعروا بالسعادة.
ازاء منافسة الرأسمالية القاتلة ، وازاء الآلام التى سببتها للعمال على
الرغم من ازدياد غنى الدولة و ثرائها .

فهؤلاء التقدميون والانسانيون الذين ظهروا فى انجلترا وألمانيا
وفرنسا نظروا فى أمور شتى يصح أن يكون كل واحد منها بديلا
للرأسمالية ، واقترحوا بعض حلول للمشكلة . وقد انضوا جميعا
تحت علم الاشتراكية أو التعاونية أو الديمقراطية الاجتماعية ، وهذه
الكلمات الثلاث تكاد كل واحدة منها تكون مرادفة للأخرى .

وكان هناك اتفاق عام بين هؤلاء المصلحين على أن التعب أو الخلل
يكمن فى الملكية الخاصة وتحكم الصناعة . فإذا كانت الدولة هى التى
تملك وتتحكم بدل الرأسماليين ، أو على الأقل اذا كانت تملك وسيلة
الانتاج الأساسية كالأرض والمصانع الرئيسية فان خطر استغلال
العمال لا يمكن عندئذ أن يكون .

من أجل ذلك بحث الناس بحثا مبهما تقريبا عن بديل للنظام
الرأسمالى ، ولكن النظام الرأسمالى لم تكن لديه النية على الانهيار ،
بل كان ينتقل من قوة الى قوة .

وأول من دعا الى هذه الأفكار الاشتراكية ونادى بها هم المثقفون
ورجال الفكر ، وان كان قد انضم اليهم فى هذا واحد من أرباب المصانع

هو روبرت أوين . أما حركة اتحادات العمال فقد نمت وانتشرت لمدة ما على سياسة مختلفة هي المطالبة بأجور مرتفعة وبأحوال من المعيشة والمعاملة خير من الأحوال التي كان عليها العمال ، ولكن هذه الاتحادات تأثرت طبيعيا بهذه الأفكار ثم أثرت هي بدورها تأثيرا كبيرا في حركة الاشتراكية . .

وكانت أكثر الدول الأوروبية تقدما في الصناعة هي إنجلترا والمانيا وفرنسا . ففي كل دولة من هذه الدول الثلاث نمت الاشتراكية نموا مختلفا على حسب قوة الطبقة العاملة وشخصيتها في كل دولة . وعلى الأجمال كانت الاشتراكية الانجليزية اشتراكية محافظة تؤمن بطرق التطور والتقدم البطيء . أما اشتراكية أوروبا فكانت أكثر تقدمية وثورية . وفي أمريكا كانت الأوضاع مختلفة جدا ، نظرا لاتساع القارة وقلة الأيدي العاملة ، ومن ثم لم تظهر فيها حركة عمالية قوية لعهد طويل .

وظلت السيادة للصناعة الانجليزية في العالم لمدة ثلاثين سنة تقريبا ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر ، وتبعاً لذلك تدفق الشراء على إنجلترا من أرباح الصناعة ومن استغلال الهند وغيرها من المستعمرات . وقد تسرب جزء من هذا الشراء حتى إلى العمال ، وارتفع مستوى معيشتهم إلى درجة لم يعرفوها من قبل . ولما كان الرخاء والثورة لا يلتقيان فإن روح العمال الانجليز الثورية قد اختفت . وحتى الاشتراكية الانجليزية أصبحت أكثر أنواع الاشتراكية اعتدالا ، وسميت بالفابية نسبة إلى « فابْيوس » القائد الروماني القديم الذي رفض أن يلتحم مع هانيبال عدوه في معركة مباشرة ، وإنما أتعبه وأنهكه حتى قضى عليه شيئا فشيئا (١)

وفي عام ١٨٦٧ أدخلت تعديلات على حق التصويت في الانتخابات . وبمقتضى هذه التعديلات صار لبعض عمال المدن حق الانتخاب . وقد

(١) أنظر ص ٢٣

كان مسلك اتحادات العمال مسلكا حميدا ، لما كانت عليه من رخاء
ويسر ، حتى لقد انتخب العمال حزب الأحرار البريطانى .

وبينما كانت انجلترا راضية عن نفسها ومدلة بيسرها وراثتها كان
مذهب جديد ينتشر فى أوربا ويجد تأييدا حارا وانعطافا . ذلك هو
المذهب « الفوضوى » . وهذه كلمة تخيف وتفزع كثيرين ممن لا يعرفون
شيئا عنها . فالفوضوية تعني مجتمعا بدون حكومة مركزية ما أمكن
ومع قدر كبير من الحرية الفردية .

فالمثل الأعلى للفوضوى كان مرتفعا ارتفاعا عجيبا مخالفا للمألوف .
فقد كان « يؤمن بفكرة حكم جمهورى قائم على الايثار والاحسان
والتضامن واحترام حقوق الآخرين عن طوعية واختيار » .

وفى نظره أنه ينبغي أن يكون هناك اكراه أو اجبار من جانب
الدولة . وقد قال ثورو الأمريكى : « ان أحسن حكومة لدى الفوضويين
هى التى لا تحكم مطلقا . والحكومة التى يريدونها ويقبلونها هى التى
يكون الناس مهينين لها » .

فهذا التصور للحكم يبدو مثلا رقيقا جدا . فالحرية الكاملة لكل فرد ،
واحترام الناس بعضهم بعضا ، وعدم الأنانية ، والتعاون المنبعث عن
الارادة ، كل هذه أشياء جميلة . ولكن دنيا اليوم بكل أنانياتها وعنفها
بعيدة كل البعد عن تلك التصورات .

ولا بد أن أمل الفوضويين فى عدم وجود حكومة مركزية أو فى وجود
الحد الأدنى من حكومة قد نشأ كرد فعل للحكم الفردى الاستبدادى
الذى عانى الناس منه طويلا . فالحكومات فى نظرهم قد حطمت الناس
واستبدت بهم ، ولهذا فلا ينبغي وجود الحكومات .

وقد شعر الفوضويون أيضا أن الدولة فى ظل بعض صور من

الاشتراكية ، وبحكم أنها صاحبة كل وسائل الانتاج قد تصبح هي نفسها طاغية مستبدة . من أجل ذلك كان الفوضويون اشتراكيين في صورة ما يعلقون أهمية عظمى على الحرية الفردية والمحلية . ومن ناحية أخرى كان كثيرون من الفوضويين مستعدين للموافقة على أن المذهب الفوضوى مثل أعلى ، ولكنهم كانوا يرون أن الضرورة تقتضى أن تكون للدولة لمدة ما حكومة مركزية قوية أساسها الاشتراكية . ولهذا فمع ما كان من فرق كبير جدا بين الاشتراكية والفوضوية فانه كانت هناك ظلال كثيرة من كليهما يتلاقى ويتداخل بعضها في بعض شيئا فشيئا .

وقد أدت الصناعة الحديثة الى ظهور طبقة منظمة من العمال . والمذهب الفوضوى ما كان يمكن بطبيعته أن يكون حركة منظمة تنظيما حسنا . ولهذا كانت الفرصة ضئيلة جدا أمام انتشار الأفكار الفوضوية فى الدول الصناعية حيث كانت اتحادات العمال وما أشبهها آخذة فى النمو والظهور . ونتيجة لذلك لم يكن فى انجلترا أو المانيا عدد كبير من الفوضويين . أما فى جنوب أوروبا وشرقها المتخلفين فى حركة التصنيع فان التربة كانت أكثر خصوبة لنمو الأفكار الفوضوية . وكلما انتشرت الصناعة الحديثة فى جنوب أوروبا وشرقها أصبح المذهب الفوضوى أضعف فأضعف . ويكاد يكون اليوم مذهباً ميتاً ، ولكنه حتى الآن ممثلاً الى درجة ما فى بعض الأقطار غير الصناعية كاسبانيا .

والمذهب الفوضوى كمثلاً أعلى قد يكون فكرة رفيعة جداً ، ولكنه قدم ملجأ لا الى الساخطين والناقمين فحسب ، وانما للأنانيين أيضاً ممن حاولوا منفعة أنفسهم تحت ستار المثل الأعلى . وقد قادهم هذا المذهب الى نوع من العنف الذى أصبح مرتبطاً ومقترناً فى ذهن كل انسان بكلمة « الفوضوية » والذى أدى الى فقدان الايمان بما فى هذه الكلمة من حقيقة . ولما رأى بعض الفوضويين عجزهم عن القيام بأى

عمل كبير لتغيير المجتمع كما أرادوا ، فقد قرروا الدعاية لمذهبهم بأسلوب طريف . ولم يكن ذلك غير « الدعاية بالفعل لا بالقول » . وبالتأثير بالمثل الشجاع ، وبالأعمال الجريئة ، وبمقاومة الطغيان والاستبداد ، والتضحية بالنفس .

وقد قامت ثورات مشبعة بهذه الروح فى أماكن مختلفة ، وهؤلاء الذين اشتركوا فيها لم يتوقعوا أى نجاح فى ذاك الوقت . وعن طواعية واختيار عرضوا حياتهم للخطر بالاقدام على هذا النوع الطريف من الدعاية لقضيتهم . وبطبيعة الحال أخضعت هذه الثورات وقمعت ، وعندئذ بدأ بعض الفوضويين يلجأون الى الارهاب والقاء القنابل وقتل الملوك والموظفين الكبار . وهذا العنف الأحمق دل بوضوح على يأسهم وضعفهم المتزايد ، وقبيل نهاية القرن التاسع عشر أخذت الفوضوية كحركة فى الزوال شيئاً فشيئاً . وكثيرون من زعماء الفوضويين لم يستحسنوا القاء القنابل والدعاية بالفعل لا بالقول ، ولهذا أنكروها وتبرءوا منها .

ويجدر بى الآن أن أعطيك أسماء بعض أعلام الفوضويين . ومن المفيد أن تلاحظى أن معظم هؤلاء الزعماء الفوضويين كانوا نبلاء مثاليين محبوبين فى حياتهم الخاصة .

وأقدم الزعماء الفوضويين بيير برودون الفرنسى الذى عاش من ١٨٠٩ الى ١٨٦٥ . وأصغر قليلا منه النبيل الروسى ميخائيل باكونين، زعيم عمال أوربا المحبوب ولا سيما فى الجنوب . وقد دخل فى صراع مع ماركس الذى طرده هو وأتباعه من الاتحاد الدولى الذى أسسه . والاسم الثالث الذى ينقلنا الى عصرنا الحاضر هو روسى آخر ونبيل يدعى بطرس كروبباتكن Peter Kropatkin ، وقد ألف بعض كتب مهمة عن المذهب الفوضوى وعن موضوعات أخرى . والاسم الرابع والأخير الذى سأذكره هنا هو مالاتيستا الايطالى Enencó Malatesta

الذى بلغ من العمر أكثر من ثمانين سنة • وهو آخر أثر من كبار
الفوضويين الذين ظهوروا فى القرن التاسع عشر •

وهناك قصة طريفة عن مالاتيستا يجب أن أقصها عليك • لقد حوكم
أمام محكمة فى إيطاليا • وقد ادعى مدعى الحكومة العام أن تأثير
مالاتيستا على عمال المنطقة كان تأثيرا كبيرا • وأن هذا التأثير قد غير من
أخلاقهم تغييرا كليا ، ووضع نهاية للجريمة والجرائم حتى لقد أصبحت
نادرة • فإذا امتنعت الجرائم فماذا تكون وظيفة المحاكم ؟ ولهذا ينبغي
أن يسجن مالاتيستا ! ونتيجة لذلك سجن مالاتيستا ستة أشهر !

ومن سوء الحظ أن المذهب الفوضوى اقترن أكثر مما ينبغي فى
الأذهان بالعنف ، وقد نسى الناس أنه فلسفة ومثل أعلى استهوى
كثيرين من الرجال الممتازين • وكمثل أعلى لا يزال بعيدا جدا عن
دنيانا الحاضرة غير الكاملة • وهيهات أن تجدى أدويته البسيطة فى
علاج مدينتنا المعقدة غاية التعقيد •

١٣٧ — الحرب الأهلية في أمريكا

٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣

ان العالم القديم بحروبه ومؤامراته ، وملوكه وثوراته ، وأحقاده وقومياته قد استبد بجزء كبير من وقتنا • ولهذا دعينا نعبّر الآن المحيط الأطلسى ونزور عالم أمريكا الجديد ، لنرى ماذا كان حظه ومصيره بعد أن طوح بقبضة أوروبا بعيدا عنه •

والولايات المتحدة على وجه الخصوص تستحق اهتمامنا وانتباهنا • فهذه الولايات التى بدأت صغيرة قد نمت وكبرت حتى ليبدو اليوم أنها تسود العالم وتتحكم فى مصيره •

ولم يعد لانجلترا فى العصر الحاضر مكانة مرموقة ، فهى ليست دائنة العالم الآن ، وانما هى دولة بائسة مدينة مثل كل الدول الأوربية الأخرى ، تلتمس من الولايات المتحدة معاملة كريمة رحيمة •

فدور الدائن أو مقرض المال قد وقع على عاتق أمريكا ، حيث الشراء يتدفق عليها ، وحيث تنبت أرباب الملايين فى كثرة مذهلة • ولكن لمسها للذهب ، كما هو الحال فى قصة ميداس القديمة ، لم يدخل عليها كثيرا من الفرح والسعادة ، وان عامة الناس فيها ليقاسون اليوم من الحاجة والفقر على الرغم من أرباب ملايينها •

فالثلاث عشرة ولاية التي على الشاطئ والتي انفصلت عن إنجلترا عام ١٧٧٥ كان تعدادها يقل كثيرا عن أربعة ملايين نسمة . واليوم يبلغ تعداد مدينة نيويورك وحدها نحو ضعف هذا العدد ، كما يبلغ تعداد كل سكان الولايات المتحدة مائة وخمسين مليون نسمة .

وقد ازداد الآن عدد الولايات المنضمة الى الاتحاد ، واتسعت رقعتها حتى وصلت الى المحيط الهادى . وقد شهد القرن التاسع عشر نمو هذا القطر الشاسع الأطراف ، لافى المساحة وتعداد السكان فحسب ، ولكن فى الصناعة الحديثة والتجارة ، والشراء والنفوذ أيضا .

وواجهت الولايات المتحدة صعابا ومشاكل كثيرة ، واشتبكت مع أوروبا فى بعض الحروب . ولكن أشد ما عانتها من محن وشدائد قد نشأ من الحرب الأهلية المريعة المخربة التى نشبت بين ولايات الشمال وولايات الجنوب .

وحدث بعد أن استقلت أمريكا وتحررت بسنوات قليلة أن قامت الثورة الفرنسية وتلتها حروب نابليون . وحاول كل من إنجلترا و نابليون أن يقضى كلاهما على تجارة الآخر ، وفى سبيل تحقيق هذا الغرض دخلا فى صراع مع الولايات المتحدة .

فنتيجة للتنافس بين فرنسا وإنجلترا أصيبت تجارة أمريكا الخارجية بالشلل ، وهذا بدوره أدى الى حرب أخرى مع إنجلترا عام ١٨١٢ . ولم تسفر هذه الحرب التى دامت سنتين عن أى شئ يستحق الذكر . وفى خلال هذه الحرب ، وعلى التحديد عندما نفى نابليون الى جزيرة البا ، أصبحت إنجلترا حرة طليقة اليد ، ولهذا نجحت فى الاستيلاء على مدينة واشنطن العاصمة ، وأحرقتها ، وخربت كل المرافق العامة بما فيها « الكبيتول » مبنى مجلس الشيوخ الأمريكى ،

والبيت الأبيض ، مسكن رؤساء الجمهورية • ولكن الانجليز على الرغم من كل ذلك هزموا فيما بعد •

وقد أضافت الولايات الى رقعتها ، حتى قبل هذه الحرب ، مساحات كبيرة فى الجنوب • وتمثل هذا فى لويزيانا المستعمرة الفرنسية القديمة التى باعها نابليون للولايات عندما أصبح غير قادر على أن يحميها ويدفع عنها شر هجمات الاسطول البريطانى • وبعد ذلك بسنوات قليلة باعت أسبانياا للولايات فى عام ١٨٢٢ ولاية فلوريدا ، وفى عام ١٨٤٨ وعلى اثر حرب ناجحة مع المكسيك انضمت الى الولايات المتحدة بعض ولايات أخرى فى الجنوب الغربى بما فيها ولاية كاليفورنيا • وكثير من أسماء المدن فى هذا الجزء الجنوبى الغربى لا يزال اسبانيا ، ويذكرنا بالأيام التى كان الحكم فيها للاسبان أو للمكسيكيين الذين يتكلمون اللغة الاسبانية •

وبينما كانت أوربا تعاني من المحاولات المتكررة للثورة وقمع الثورة استمرت الولايات فى التوسع غربا • وقد ساعد قمع الثورات فى أوربا على الهجرة ، كما جذبت قصص الاراضى الشاسعة والاجور المرتفعة الكثيرين من الأقطار الأوروبية • وبانتشار السكان غربا نشأت ولايات جديدة انضمت الى الاتحاد •

وكان بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية اختلاف كبير من البدء • فالولايات الشمالية كانت صناعية تنتشر فيها بسرعة المصانع التى تعتمد على الآلات الكبيرة الحديثة ، أما فى الولايات الجنوبية فكانت تنتشر المزارع الكبيرة التى كان يعمل فيها عمال من العبيد •

فالعبودية فى الجنوب كانت مشروعة قانونا • ولكنها لم تكن محبوبة أو ذات أهمية فى الشمال • وكان العبيد طبعاً من زنوج افريقية ، أما الجنس الابيض فلم يكن منه عبيد • نعم لقد تضمن اعلان الاستقلال

المبدأ القائل « كل الناس قد ولدوا متساوين » • ولكن هذا يطبق على
البيض فقط ، لا على السود •

وقصة جلب الزنوج من افريقية قصة بالغة الاسى والحزن • فتجارة
العبيد بدأت فى أوائل القرن السابع عشر وظلت مستمرة بانتظام حتى
عام ١٨٦٣ •

ففى أول الأمر كانت سفن البضائع التى تمر بساحل افريقية
الغربى ، والذى لا يزال جزء منه يسمى « ساحل العبيد » ، تختطف
الافريقيين وتلتقطهم كلما أمكن ذلك وتنقلهم الى أمريكا • وكلما كان بين
الافريقيين أنفسهم عبودية ، ولم يعاملوا أحدا معاملة العبيد غير أسرى
الحرب والمدينين ممن لم يوفوا ديونهم • وقد وجد أن عملية نقل
الافريقيين هذه الى أمريكا وبيعهم هناك كانت تجارة رابحة جدا ، ولهذا
نمت واتسعت تجارة الرقيق • وكانت انجلترا واسبانيا والبرتغال
فى مقدمة الدول التى مولتها على أنها مصدر من مصادر الغنى والشراء •

وقد بنى تجار الرقيق لهذا الغرض سفنا خاصة ذات غرف عديدة ،
وكان الزنوج البؤساء يزج بهم فى هذه الغرف مصفدين فى السلاسل ،
وقد قيد كل اثنين منهم بقيد واحد • وكانت الرحلة عبر المحيط
الاطلسى تستغرق أسابيع كثيرة وأحيانا أشهر ، وفى أثناء هذه
الأسابيع والاشهر كان الزنوج ينامون فى هذه الغرف الضيقة مقيدين
معا ، وكان المكان المسموح به لكل واحد منهم لا يزيد على خمسة أقدام
ونصف قدم طولا ، وقدم وثلث قدم عرضا !

وعلى أساس تجارة الرقيق أصبحت ليفربول مدينة كبيرة • وفى
معاهدة السلام التى وقعت فى مدينة « أوترخت » الهولندية عام ١٧١٣
انتزعت انجلترا من اسبانيا امتياز نقل الرقيق بين افريقيا وأمريكا
الاسبانية • وحتى قبل هذا كانت انجلترا تزود الممتلكات الانجليزية

فى أمريكا بالرقيق • وهكذا بذلت محاولة فى القرن الثامن عشر لجعل
تجارة الرقيق بين افريقية وأمريكا احتكارا انجليزيا •

وفى عام ١٧٣٠ كان لمدينة ليفربول خمس عشرة سفينة تشتغل فى
هذه التجارة ، ثم أخذ عدد هذه السفن فى التزايد حتى بلغ فى عام
١٧٩٢ مائة واثنين وثلاثين سفينة • وقد أدت الثورة الصناعية فى
مطلعها الى تقدم كبير فى غزل القطن بلانكشير فى انجلترا ، وهذا بدوره
أدى بالولايات المتحدة الى طلب عدد أكثر من الرقيق • ذلك لأن القطن
المستعمل فى مغازل لانكشير كان يرد اليها من مزارع القطن الشاسعة
فى الولايات الجنوبية • ولما كانت مزارع القطن فى هذه الولايات
تمتد وتتسع بسرعة ، فقد استدعى الأمر استيراد أفواج أكثر وأكثر
من رقيق افريقية • ولما اشتد الاقبال على هذه السلعة الآدمية بذل
تجار الرقيق أقصى الجهود فى تربية الزنوج والاكثر من نسلهم ! وفى
عام ١٧٩٠ كان عدد العبيد فى الولايات المتحدة ٦٩٧٠٠٠ عبد ، ثم
أخذ هذا العدد فى التزايد حتى بلغ عام ١٨٦١ أربعة ملايين •

وفى أوائل القرن التاسع عشر وافق البرلمان الانجليزى على قوانين
مشددة ضد الرق والعبودية ، وتبع انجلترا فى ذلك أمريكا وبعض
الأقطار الأوربية • ومع أن تجارة الرقيق قد حرمتها هذه الدول فان
عملية نقل الزنوج من افريقية الى أمريكا ظلت قائمة مستمرة ، مع فارق
واحد هو أن رحلتهم صارت أشد وأقسى مما كانت عليه قبل التحريم •
فهؤلاء الزنوج البؤساء لم يعودوا ينقلون علنا ، وانما أصبحوا ينقلون
خفية على ألواح خشبية منفصلة بعضها فوق بعض • وكما ينبئنا كاتب
أمريكى كانوا أحيانا يكسسون الواحد فى حجر الآخر وسيقانهم مدلاة ،
كما يفعل الراكبون على مراكب الانزلاق على الجليد •

ومن الصعب أن يتخيل المرء مدى الهول والشناعة فى كل هذا •
فالأحوال على سفن نقل الرقيق كانت على غاية من القذارة ، حتى أن

بعضها كان من شدة الوباء والقذارة يهجر ويتخلى عنه بعد أربع أو خمس رحلات . ولكن الأرباح كانت هائلة ضخمة ، وعندما بلغت هذه التجارة ذروتها في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان ينقل سنويا نحو مائة ألف عبد من ساحل العبيد الإفريقي . وهنا أود أن أتذكر أن نقل هذا العدد الهائل من البشر كان يعنى قتل عدد أكبر منه في الغارات التي كان يشنها تجار الرقيق على الزنوج الأسرى والأسبيلاء عليهم .

وقبيل القرن التاسع عشر ، أو في أوائله ، حرمت الدول الكبرى ، وكذلك الولايات المتحدة ، تجارة الرقيق وعدتها عملا غير مشروع . ولكن مع تحريم هذه التجارة فان العبودية نفسها ظلت مشروعة ، بمعنى أن العبيد القدامى استمروا عبيدا ، كما استمرت تجارة الرقيق على الرغم من تحريمها . وعندما أنهت بريطانيا الرق والعبودية أصبحت نيويورك الميناء الرئيسى لتجارة الرقيق .

ومع أن نيويورك كانت الميناء لهذه التجارة حتى منتصف القرن التاسع عشر فان الولايات الشمالية كانت ضد الرق والعبودية . أما الولايات الجنوبية فكانت بحاجة الى هؤلاء العبيد للعمل بالمزارع . وقد ألغى بعض الولايات الرق ، وأبقى عليه البعض الآخر . وكثيرا ما فر الزنوج من الولايات التي يمارس فيها الرق الى الولايات التي لا يمارس فيها . وكان هذا الفرار والتسلسل مدعاة الى النزاع والخلاف بين الولايات .

وكانت مصالح الشمال والجنوب الاقتصادية مختلفة تمام الاختلاف . وقد حدث نحو عام ١٨٣٠ أن نشأ احتكاك بين الجانبين بشأن ضرائب الصادرات والواردات والضرائب الجمركية . ثم بدأت نغمة التهديد بالانفصال من الاتحاد تظهر وتعلو ، لأن الولايات كانت متحمسة

لحقوقها وغيورا عليها ، ولم ترتج لكثرة تدخل الحكومة الاتحادية فى شئونها .

ونتيجة لكل ذلك ظهر فى أمريكا حزبان : أحدهما ينادى بسيادة الولاية ، والاخر يدعو الى حكومة مركزية قوية . وقد أحدث اختلاف وجهات النظر هذا انقساما بين الشمال والجنوب وباعد بين أحدهما والاخر . وكلما انضمت ولاية جديدة الى الاتحاد كان يتجدد موضوع : الى أى الجانبين تنضم الولاية الجديدة وتؤيد وجهة نظره .

ولكن الى أى الجانبين كانت الأغلبية تنتمى ؟ لقد كان سكان الشمال فى تزايد سريع مستمر بسبب الهجرة من أوربا ، وكان طبيعيا أن تخيف هذه الظاهرة أهل الجنوب ، لأن استمرارها كان يعنى بالنسبة لهم قرب اليوم الذى يرجحهم فيه أهل الشمال عددا ، وبالتالي ينالون فيه أصواتا أكثر عند الاقتراع على كل مشكلة تكون مدار بحث . من أجل ذلك ازدادت العلاقات توترا بين الشمال والجنوب .

وفى أثناء ذلك اشتدت الحملات فى الشمال مطالبة بإبطال الرق ابطلا تاما . وكان المنادون بذلك يسمون « الابطاليين » أى المعتنقين فكرة ابطال الاسترقاق ، وكان زعيم هؤلاء يدعى وليام لويد جاريسون William Lloyd Garrison . وفى عام ١٨٣١ أصدر جاريسون جريدة أسماها « المحرر » أو « المعتق » the Liberator لتؤيد دعواه وحملته ضد الرق والعبودية . وفى العدد الأول من هذه الجريدة أوضح أنه لن يقبل حلا وسطا لهذه المشكلة ، ولن يكون معتدلا ازاءها . وبعض الجمل التى عبر فيها عن رأيه فى العدد الأول من جريدته أصبحت مشهورة ، ولهذا أقدمها لك هنا . قال :

« سأكون قاسيا كالحق ، ومنصفا كالعدل

وعن هذا الموضوع « الرق » لا أبغى أن أفكر ، أو أتكلم ، أو أكتب
باعتدال .

كلا ! كلا !

- قل للرجل الذى يحترق بيته أن يستنجد صائحا باعتدال .
- وقل له أن يستنقذ زوجته من يدي مغتصبها باعتدال .
- وقل للأم التى سقط ابنها فى النار أن تخلصه منها شيئا فشيئا .
- ولكن لا تتطلب منى اعتدالا فى قضية كقضية الساعة .
- انى جاد كل الجد .
- لن أوارب أو أداجى .
- ولن أسامح أو أغتفر .
- ولن أراجع قيد أنملة .
- ولا بد أن يسمع صوتى » .

على أية حال كان هذا الموقف الجريء الشجاع قاصرا على قلة قليلة ،
أما معظم معارضى الرق فلم يشاءوا التدخل فيه حيث يمارس فعلا .
ومع ذلك فقد ازدادت العلاقات توترا بين الشمال والجنوب بسبب
اختلاف مصالحهم الاقتصادية التى تعارضت ولاسيما من جهة الضرائب
المفروضة على الصادرات والواردات المتبادلة بين الولايات الشمالية
والجنوبية .

وفى عام ١٨٦٠ انتخب ابراهام لنكولن رئيسا للولايات المتحدة ،
فكان انتخابه ايذانا للجنوب بالانفصال عن الاتحاد . لقد كان لنكولن

معارضاً للرق والعبودية ، ولكنه على الرغم من معارضته هذا أعلن عدم التدخل فيه حيثما وجد . بيد أنه لم يكن مستعداً لأن يراه يمتد الى ولايات جديدة أو لأن يجيز مشروعيته . ولم يقتنع الجنوب بهذا التأكيد أو يطمئن اليه ، ولهذا أخذت ولاياته تنشق على الاتحاد وتنفصل عنه ولاية بعد ولاية .

هكذا أخذت الولايات المتحدة تتفرق وتتفتت ، وكان هذا هو الموقف العصيب الذى واجه الرئيس الجديد . وقد بذل محاولة أخرى لكسب الجنوب ومنعه من الانفصال . ذلك أنه أعطاهم كل التأكيدات والضمانات بأن يسمح للرق بالبقاء والاستمرار ، حتى لقد قال انه مستعد أن يجعله حيثما وجد جزءاً من الدستور ليعطيه صفة الدوام . وفى الحق كان لنكولن مستعداً لأن يذهب تقريبا الى أبعد الحدود من أجل السلام . ولكن كان هناك شئ واحد لم يكن ليوافق عليه ألا وهو القضاء على الاتحاد . فقد أنكر انكاراً مطلقاً حق أى ولاية فى الانسحاب من الاتحاد .

ومع ذلك فقد فشلت جميع المحاولات التى بذلها لنكولن لكى يتجنب الحرب الأهلية . فالجنوب قد قرر الانفصال ، وقد انفصلت فعلاً إحدى عشرة ولاية ، وتعاطفت معها أيضاً بعض الولايات الأخرى التى على الحدود . وقد سميت الولايات المنفصلة نفسها « الولايات المتحالفة » ، وانتخبوا رئيساً خاصاً لهم هو جيفرسون دافيز Jefferson Davis

وفى أبريل من عام ١٨٦١ بدأت الحرب الأهلية واستمرت أربع سنوات بطيئة مجهدة قاتل فيها الأخ أخاه والصديق صديقه . وكلما استطالت الحرب كبرت الجيوش عدة وعتادا وعددا .

وكان الشمال يفوق الجنوب ويمتاز عليه بأشياء كثيرة : فقد كان أكبر من الجنوب سكانا وأكثر غنى • ولكونه منطقة صناعية كان أكثر موارد وامكانيات ، وأرقى من حيث الطرق الحديدية •

ولكن الجنوب كان أحسن جنودا وقوادا ولاسيما القائد «لى» Lee وكانت الانتصارات الأولى فى جانب الجنوب أكثر منها فى جانب الشمال • ولكن الجنوب أدركه فى النهاية الكلل والاجهاد والملال •

وقد قطع أسطول الولايات الشمالية الجنوب قطعا تاما عن سوقه فى أوربا ، وبهذا لم يستطع أن يصدر قطنه أو تبغ • وهذا بدوره أصاب الجنوب بالعجز ، كما كان له أيضا نتيجة مشئومة على لانكشير، حيث توقف كثير من مصانعها ومغازلها عن العمل لعدم ورود القطن، وحيث عانى عمالها المتعطلون غاية الهم والضيق •

وكان الرأى العام فى انجلترا بشأن هذه الحرب منعطفًا بوجه عام مع الجنوب ، أو على الأقل كان هذا هو رأى الطبقات الأكثر غنى ويسارا فيها •

ولم يكن الرق هو السبب الرئيسى للحرب الأهلية ، لأن لنكولن ، كما أخبرتك ، قد أعطى كل التأكيدات والضمانات بأن يحترم الرق حيثما وجد • انما نشأ الاضطراب الحقيقى من اختلاف مصالح الشمال والجنوب الاقتصادية وتعارضها تقريبا • وقد اضطر لنكولن أخيرا أن يحارب محافظة على بقاء الاتحاد وسلامته • ولم يصرح لنكولن أي تصريح واضح عن الرق ، حتى بعد أن بدأت الحرب ، خوفا من إثارة غضب الكثيرين من أهل الشمال ممن كانوا يؤيدون ابطال الاسترقاق •

وقد دفعه استمرار الحرب الى أن يكون أكثر وضوحا وتحديدا .
وكانت أول خطوة في ذلك أن اقترح على مجلس الشيوخ ضرورة
تحرير العبيد . بعد تعويض أسيادهم ومواليهم . ثم تخلى عن هذه
الفكرة فيما بعد . وأخيرا أصدر في سبتمبر عام ١٨٦٢ اعلان
التحرير الذي صرح فيه بأن العبيد في كل الولايات الثائرة ضد
الحكومة يصبحون أحرارا ابتداء من أول يناير ١٨٦٣ ، وفيما بعد هذا
التاريخ .

وربما كان السبب الرئيسي لاصدار هذا الاعلان هو الرغبة في
اضعاف الجنوب في الحرب ، لأنه أدى الى تحرير أربعة ملايين من
العبيد ، ولا شك أنه كان يرجى من هؤلاء أن يخلقوا المتاعب والصعاب
للولايات المتحالفة .

ثم انتهت الحرب الأهلية عام ١٨٦٥ بعد أن أنهك الجنوب انهاكا
تاما . والحرب في أي وقت شيء شنيع فظيع ، ولكن الحرب الأهلية
أكثر شناعة وفضاعة . وقد وقع عبء هذا الصراع الهائل الذي دام
أربع سنوات على عاتق الرئيس لنكولن أكثر من غيره ، وكانت النتيجة
في جملتها ناشئة عن اصراره الهادئ على المثابرة رغم الكوارث وخيبة
الآمال .

ولم يكن هدفه مجرد كسب الحرب فحسب ، وإنما كان الهدف أن
يكسبها بأقل فقد ممكن ، فلعل الاتحاد الذي قاتل من أجله يصبح
اتحاد قلوب لا اتحاد اكراه والزام . ولهذا لم تكد الحرب تنتهى حتى
بدأ يكون كريما مع الجنوب المهزوم . ولم تمر أيام قليلة على هذا حتى
اغتاله رجل متطرف .

وابراهيم لنكولن بطل من أبطال أمريكا العظام . وقد تبوأ أيضا
مكانه بين كبار عظماء العالم . لقد كانت نشأته الأولى نشأة

متواضعة ، وكان حظه من التعليم ضئيلا . وقد اكتسب معظمه عن طريق تحصيله الخاص ، ومع هذا استطاع بذاته أن يكون سياسيا عظيما وخطيبا عظيما . وأن يدير دفة الأمور في بلاده ادارة رشيدة أثناء أزمة عظمى .

ولم يكن مجلس الشيوخ الأمريكى بعد وفاة لنكولن كريما مع البيض من سكان الجنوب بمقدار ما كان يتوقع منه . فهؤلاء البيض الجنوبيون عوقبوا بصورة أو بأخرى ، وكثيرون منهم حرموا من حق الانتخاب الذى كان قد أعطى لهم . ومن ناحية أخرى أعطى الزنوج كل حقوق المواطنين . وهذا أصبح جزءا من الدستور الأمريكى . وقد نص أيضا على أنه لاحق لأى دولة فى حرمان أى رجل من حقه الانتخابى بسبب جنسه أو لونه أو عبوديته السابقة .

لقد أصبح الزنوج الآن بمقتضى القانون أحرارا ولهم حق الانتخاب . ولكن هذا لم يعد بنفع كبير عليهم ، لأن حالتهم الاقتصادية ظلت كما كانت عليه من قبل . فكل الزنوج العتقاء أو الأحرار كانوا على العموم بدون ملكية ، وأصبحت مشكلة أن يعرف المرء ماذا يفعل بهم . من أجل ذلك هاجر بعضهم الى المدن الشمالية .

أما معظمهم فبقوا حيث هم رهن إشارة أسيادهم ومواليهم القدامى فى الجنوب . لقد اشتغلوا عمالا فى المزارع القديمة بأى أجر يومية يعطيه لهم مستخدموهم البيض . كذلك نظم البيض الجنوبيون أنفسهم على أن يخضعوا الزنوج لارادتهم فى جميع الأحوال بالارهاب . وقد تكونت منظمة نصف سرية اسمها « كوكلو كس كلان » وكان أعضاؤها ينتشرون مقنعين فى وجوه مستعارة لارهاب الزنوج ومنعهم من الادلاء بأصواتهم فى أوقات الانتخابات .

وفى أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر تقدم الزنوج بعض الشئ : فكثيرون منهم صاروا من ذوى الملكيات ، وأصبحت لهم بعض المعاهد الراقية التى يتعلمون فيها ، ولكنهم ما زالوا العنصر الخاضع خضوعا تاما . ويوجد منهم الآن فى الولايات المتحدة نحو اثنى عشر مليوناً ، أى نحو عشرة فى المائة من مجموع السكان العام .

وحيثما وجدوا فى أعداد صغيرة ، كما هو الحال فى أجزاء من الشمال ، فانهم يحتملون ، أما اذا وجدوا فى أعداد كبيرة فانهم يحقرون ويعاملون معاملة مذلة للكبرياء ، معاملة تجعلهم يشعرون بأنهم أحسن قليلا من العبيد القدماء . وفى كل مكان ترينهم منفصلين عن البيض . ترين ذلك فى الفنادق ، والمطاعم ، والكنائس ، والكليات ، والمتنزهات العامة ، وشواطئ الاستحمام ، والترام ، وحتى فى الدكاكين والمتاجر ! وفى قطر السكة الحديدية لهم عربات خاصة تسمى عربات « جيم كراو » "Jim Crow" . والزواج بين الابيض والزنجى محرم قانونا . وحوالى عام ١٩٢٦ صدر قانون فى ولاية فرجينيا يحرم جلوس الأبيض والملون فى مكان واحد !

ويحدث أحيانا شغب عنصري فظيع بين البيض والزنوج . وكثيرا ما تحدث فى الجنوب حالات قصاص يغير فيها السوق والغوغاء على أى شخص يشتبهون فيه بأنه أساء الى أحدهم أو بعضهم ويقتلونه .

وفى جميع أرجاء أمريكا ، ولا سيما فى الولايات الجنوبية لا تزال أغلبية الزنوج تحيا حياة شاقة . وكثيرا ما يحدث فى بعض ولايات الجنوب عندما يقل وجود العمال أن يزج ببعض الزنوج الأبرياء فى السجن بتهمة ملفقة ، ثم يؤجر العامل المتهم لبعض المقاولين والمتعهدين . وهذا فى حد ذاته عمل سيئ قبيح ، ولكن ما يصحبه

من أحوال أشد سوءا وقبحا • وهكذا ترين أن الحرية التي حولها
القانون للزواج لاتعنى كثيرا جدا بعد كل ما ذكرناه •

وبعد ، فهل قرأت أو سمعت عن كتاب « كوخ العم ثوم » للكاتب
هاريت بيتشر ستاو Harriet Beecher Stowe ؟ فهذا الكتاب
يعالج موضوع الزواج العبيد القدماء ويقص حياتهم الفاجعة الحزينة •
لقد ظهر هذا الكتاب قبل اندلاع نار الحرب الاهلية بعشر سنوات ،
وكان له أثر كبير فى اثارة نفوس الامريكيين ضد الرق والعبودية •

١٣٨ — إمبراطورية أمريكا الخفية

٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣

ان الحرب الأهلية التي نشبت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية كان ثمنها بالنسبة لأمريكا باهظا . فقد راح ضحية لها الكثيرون من الرجال والشبان ، كما خلفت لأمريكا دينا فادحا ثقيلا .

ولكن الولايات المتحدة كانت دولة شابة فتية ممتلئة بالنشاط ، ولهذا فلم تعق الحرب الأهلية استمرار نموها . والولايات المتحدة تتمتع بمصادر ثروة طبيعية هائلة ، وتمتاز بغناها بالمعادن . فالفحم والحديد والنفط (البترول) توجد لديها بوفرة . وهذه هي المواد الثلاث التي تكون أساس الصناعة والحضارة الحديثتين . وكان لديها وفرة من القوة المائية التي تتولد عنها القوة الكهربائية ، وشبكات نياجرا مثل من أمثلة هذه القوة المائية ، وبالإضافة الى ذلك فهي قطر شاسع الاطراف ، قليل السكان نسبيا ، يجد فيه كل شخص مكانا فسيحا له .

فالولايات المتحدة ، لهذا ، لديها كل امكانيات النمو والتطور التي تؤهلها لأن تكون قطرا صناعيا كبيرا ، وقد أخذت تفعل ذلك بخطى واسعة . وقبيل نهاية القرن التاسع عشر بدأت الصناعة الأمريكية تنافس الصناعة البريطانية وتزاحمها في الأسواق الأجنبية . وقد

وضعت أمريكا وألمانيا نهاية للتفوق السهل الذي تمتعت به بريطانيا لمدة قرن من الزمان في التجارة الخارجية .

وقد تدفق المهاجرون على الولايات المتحدة من كل أقطار أوروبا .
نزع اليها الكثيرون من الألمان والسويديين والنرويجيين
والدنمركيين والارلنديين والايطاليين واليهود والبولنديين وغيرهم .
وكثيرون من هؤلاء خرجوا من ديارهم فرارا من الارهاب السياسى ،
وكثيرون غيرهم هاجروا متطلعين الى أحوال من العيش أرقى وأفضل .
فأوروبا المزدحمة بالسكان لم تجد أمامها الا أن تلقى بالزائد من أبنائها
الى أمريكا .

لقد كان خليطاً عجيباً من الأجناس والقوميات واللغات والأديان .
ففى أوروبا كان يعيش كل هؤلاء منفصلين متباعدين ، وكان لكل منهم
دنياء الخاصة ، وكان قلب الواحد منهم مفعماً بالحقد على الآخرين ،
وبالكراهية والبغضاء لهم . أما هنا فى أمريكا فقد ألقى بهم جميعاً فى
جو جديد لاموضع فيه ولا قيمة للأحقاد القديمة . وسرعان ما أزال
نظام التعليم الاجبارى الموحد نزعاتهم القومية ، وهى الفرصة لظهور
النموذج الأمريكى من ثنايا هذا الخليط المشوش من الأجناس .

وهؤلاء الذين تحدروا منهم من الأصل السكسونى الانجليزى
يعتبرون أنفسهم النبلاء والزعماء الاجتماعيين . ويليههم ، وليس بعيداً
عنهم ، الأجناس التى نزحت من أوروبا الشمالية . أما الذين هاجروا
من أوروبا الجنوبية ، وخاصة من ايطاليا ، فقد كان الوافدون من أوروبا
الشمالية ينظرون اليهم نظرة احتقار وازدراء ويسمونهم « الملونين »
ثم يأتى الزنوج ، وهؤلاء كانوا فى أسفل السلم ولم يختلطوا بأى
جنس من أجناس البيض . وكان على شاطئ أمريكا الغربى بعض
الصينيين واليابانيين والهنود ممن نزحوا الى أمريكا عندما كانت

حاجتها الى العمال شديدة . وهذه الأجناس الأسيوية تحاشت الاندماج فى الأجناس الأخرى ، وبقيت فى معزل عنها .

وكان من أثر شبكة المواصلات اللاسلكية والحديدية الواسعة الامتداد والانتشار أن اتصلت أطراف هذا القطر الضخم وأجزاءه بعضها ببعض . وهذا الاتصال كان مستحيلا فى العصور القديمة عند ما كان السفر من شاطئ الى شاطئ يستغرق أسابيع وأشهرًا .

وقد رأينا أنه كثيرا ما قامت فى الماضى امبراطوريات فى آسيا وأوربا . ولكن هذه ما كان يمكن أن يتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بسبب صعوبة المواصلات ووسائل الانتقال . ومن ثم كان يمكن اعتبار أجزاء مختلفة من أى امبراطورية من هذه الامبراطوريات مستقلة تقريبا . فقد كانت تحيا حياتها الخاصة على طريقته الخاصة ، ولا يربطها بالامبراطورية غير الاعتراف بسيادة الامبراطور وتأدية فروض الطاعة والولاء له . ويمكن القول بأنها كانت عصبية غير متحدة من أقطار مختلفة تدين لرئيس واحد ، ولا تجمع بينها نظرة واحدة مشتركة .

ومهما يكن من الأمر ، فإن الولايات المتحدة استطاعت بفضل السكك الحديدية وطرق المواصلات الأخرى ونظام التعليم الموحد أن تنمى هذه النظرة المشتركة بين أجناسها المختلفة . وشيئا فشيئا تحولت الأجناس الى أصل واحد مشترك ، ولا تزال العملية مستمرة لم تتم بعد . وليس فى التاريخ مثل من أمثلة التحول على درجة كبيرة كهذه الدرجة .

وحاولت الولايات المتحدة أن تظل بمنأى عن الأحيال الأوربية

ومؤامراتها ، كما أرادت أن تبقى أوروبا بعيدة عن أمريكا في الشمال والجنوب . لقد أخبرتك من قبل عن « مذهب مونرو » : عن التصريح الذي أصدره رئيس الولايات المتحدة مونرو عند ما أرادت بعض الدول الأوروبية التي كان يتألف منها « الحلف المقدس » أن تتدخل في جنوب أمريكا ابقاء على امبراطورية اسبانيا .

فعندما همت هذه الدول بالتدخل صرح مونرو بأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تسمح بأي تدخل مسلح من جانب أى دولة أوروبية في أى جزء من أجزاء أمريكا . فهذا التصريح أنقذ جمهوريات أمريكا الجنوبية الناشئة من أوروبا . وكاد هذا التصريح أن يؤدي مرة أخرى الى حرب مع إنجلترا . ولكن أمريكا تمسكت ناجحة بهذه السياسة لمدة بلغت حتى الآن أكثر من مائة سنة .

وكانت أمريكا الجنوبية مختلفة جدا عن أمريكا الشمالية ، ولم يستطع مرور قرن من الزمان أن يقلل الفوارق والاختلافات التي بينهما . وبينما كانت كندا في الشمال تتأثر خطى الولايات المتحدة وتزداد أوجه الشبه بينهما أكثر فأكثر ، لم تكن الجمهوريات الجنوبية كذلك . وكما أخبرتك مرة أخرى ان جمهوريات أمريكا الجنوبية هذه بما فيها المكسيك التي تقع في أمريكا الشمالية هي جمهوريات لاتينية . فالحد ما بين الولايات المتحدة والمكسيك يفصل بين ثقافتين مختلفتين ونوعين من الناس مختلفين كذلك . فالسكان جنوبى هذا الحد ، وعبر أمريكا الوسطى ، وفي جميع أرجاء قارة أمريكا الجنوبية الكبيرة يتكلمون الاسبانية والبرتغالية . والاسبانية هي اللغة الغالبة . أما البرتغالية فتستعمل ، على ما أظن ، في البرازيل فقط . وقد أصبحت الاسبانية اليوم بسبب أمريكا الجنوبية إحدى لغات العالم الكبرى . ولا تزال أمريكا اللاتينية تولى وجهها شطر اسبانيا لتستمد منها وحيها الثقافي . ولم يكن للاختلافات العنصرية فيها

من الأهمية ما كان لها فى الولايات المتحدة ، وكندا • وقد تولد جنس مختلط نتيجة لتزاوج من تحدرُوا من أصل اسباني بالزنوج وبالهنود الحمر سكان البلاد الأصليين •

وعلى الرغم من مائة سنة من الحرية ، فإن جمهوريات الجنوب اللاتينية رفضت أن تستقر • وقد قامت فيها من وقت الى آخر ثورات وديكتاتوريات عسكرية ، وليس من السهل تتبع مجرى التغير الدائم فى سياستهم وحكوماتهم • والدول الثلاث الكبرى فى أمريكا الجنوبية هى الأرجنتين ، والبرازيل ، وشيلي • وتعتبر المكسيك التى هى فى أمريكا الشمالية من دول أمريكا اللاتينية الكبرى

أشرت آنفا الى أن الولايات المتحدة عن طريق تصريح مونرو قد منعت أوروبا من التدخل فى شئون أمريكا اللاتينية • ولكن الولايات المتحدة أخذت عندما ازداد غناها وثرائها ، تتطلع خارج حدودها الى ميادين جديدة للتوسع • وكان طبيعيا أن تقع أعين الولايات المتحدة أول ماتقع على أمريكا اللاتينية •

ولم تحاول الولايات المتحدة أن تستولى على أى قطر من هذه الأقطار بالقوة ، أى بالطريقة القديمة التى كانت تتبع فى بناء الامبراطوريات • وكل ما فعلته هو أنها أرسلت منتجاتها وسلعها الى أمريكا اللاتينية واستولت على أسواقها • ولم تقف الولايات المتحدة عند هذا الحد ، وانما استثمرت رؤوس أموالها فى انشاء السكك الحديدية ، واستغلال المناجم وغير ذلك من المشروعات الاقتصادية فى الجنوب • كذلك قدمت قروضا مالية للحكومات وأحيانا للأحزاب السياسية المتحاربة فى أوقات الثورات •

والذين قدموا هذه القروض هم أرباب المصارف (البنوك)

والرأسماليون الأمريكيون، ومن ورائهم الحكومة الأمريكية تشد أزرهم
وتؤيدهم . وشيئا فشيئا تحكم أرباب المصارف الأمريكية عن طريق
الأموال التي أقرضوها أو استثمروها في كثير من حكومات الجنوب
وأمریکا الوسطى . وقد بلغ سلطان أرباب المصارف ونفوذهم الى حد
أنهم كانوا من أجل مصالحهم يعملون على قيام الثورات بتقديم الأسلحة
والمساعدات المالية لحزب أو فريق دون آخر . ومن وراء أرباب
المصارف والرأسماليين كانت تقف حكومة الولايات المتحدة العظمى .
ولهذا فماذا كانت تستطيع أقطار الجنوب الصغيرة الضعيفة أن تفعل ؟
وقد حدث في بعض الأحيان أن أرسلت الولايات المتحدة جنودها فعلا
لمساعدة حزب خاص في بعض دول الجنوب بحجة المحافظة على النظام .

وبهذه الطريقة نجح الرأسماليون الأمريكيون في أن تكون لهم
رقابة فعالة على سياسة أقطار الجنوب الصغرى ، وفي أن تتول إليهم
إدارة مصارفها وطرقها الحديدية ومناجمها ، واستغلال كل ذلك
استغلالا يعود عليهم خاصة بالمنفعة والربح . فللرأسماليين
الأمريكيين ، حتى في دول أمريكا اللاتينية الكبرى ، نفوذ عظيم
بسبب رؤوس أموالهم المستثمرة فيها وبسبب الرقابة المالية .

ومعنى هذا أن الولايات المتحدة ضمت إليها ثروة هذه الاقطار أو
الجزء الأكبر من ثروتها . وهذه الظاهرة تستحق اعمال النظر
والانتباه ، لأنها تشير الى نوع جديد من الامبراطوريات . فهي تسيطر
اللاثام عن الامبراطورية الاقتصادية الخفية غير المنظورة التي تستغل
وتسيطر بدون أى مظاهر خارجية واضحة . فجمهوريات أمريكا
الجنوبية هي من الناحية السياسية والدولية جمهوريات مستقلة
حرة . وهي على الخريطة أقطار شاسعة الأطراف ، وليس هناك
ما يدل على أنها غير مستقلة في أى معنى من المعانى ، أو أية صورة من
الصور . ومع هذا فان معظم هذه الاقطار تتسلط عليها الولايات
المتحدة وتتحكم فيها تحكما تاما .

وقد رأينا فى لمحاتنا التاريخية ألوانا شتى من الاستعمار فى عصور مختلفة • فى البدء كان انتصار شعب على شعب آخر فى الحرب يعنى أن يتصرف المنتصرون كما يشاءون فى الشعب المنهزم وأرضه • لقد كان الشعب المنتصر يضم إليه أرض عدوه بسكانها ، وبهذا يصبح الشعب المنهزم كله عبيدا • هذه كانت السنة أو العادة المألوفة • وفى التوراة ، يقرأ المرء عن أخذ اليهود أسرى لانهزامهم فى الحرب أمام البابليين ، كما يقرأ عن أمثلة أخرى كثيرة •

وشيئا فشيئا زال هذا الاستعمار وأُخلى مكانه لاستعمار آخر يضم فيه الشعب المنتصر أرض عدوه المنهزم إليه دون أن يحيل سكانها الى عبيد • وإذا كان هذا الاستعمار لم يحل الناس عبيدا فلائنه قد اكتشف بلا شك أن من الأسهل أن يربح ويشترى على حسابهم عن طريق فرض الضرائب عليهم وغير ذلك من طرق الاستغلال الأخرى •

ولا يزال أكثرنا يفكرون فى امبراطوريات من هذا النوع كالامبراطورية البريطانية فى الهند التى لها السلطة السياسية الحقيقية فى البلاد (١) ، والتى لولاها ، على ما نظن ، لكانت الهند حرة •

ولكن هذا النوع من الامبراطوريات قد أخذ يختفى ويحل مكانه نوع آخر أكمل وأكثر تقدما • وهذا النوع الكامل المتقدم هو أحدث أنواع الامبراطوريات ، وهو لا يعنيه أن يضم إليه أرضا أو سكانا ، بل ان ما يعنيه هو أن يضم إليه الثروة أو عناصر انتاج الثروة فى القطر فقط ، وهو بعمله هذا يستطيع أن يستغل القطر استغلالا كاملا لمنفعته الخاصة ، ويستطيع أن يتحكم فيه ويسيطر على شئونه الى حد كبير • ثم هو فى الوقت ذاته لا يتحمل مسئولية حكم ذاك القطر وتخلفه ، أو التعرض لسخط أبنائه وفورات غضبهم • ومعنى ذلك كله أن تسيطر مثل هذه الامبراطورية على الأرض وسكانها معا بأقل قدر ممكن من المتاعب •

(١) كان هذا وقت كتابة هذه الرسائل •

بهذه الطريقة أكمل الاستعمار نفسه على مر العصور ، وأصبحت
الامبراطورية الاقتصادية الخفية غير المنظورة أحدث أنواع
الامبراطوريات .

وعندما أبطل الرق ، وفيما بعد عندما قضى على عبودية نظام
الاقطاع كان الظن أن الناس قد صاروا أحرارا . ولكن سرعان ما تبين
أن الناس لا يزال يستغلهم ويسيطر عليهم من يملكون قوة المال
ويتحكمون فيها . وإذا كان الناس قد تخلصوا من الرق والعبودية
فانهم أصبحوا عبيد الأجر ، وأصبحت الحرية بالنسبة لهم أمرا بعيد
المنال .

وهكذا الحال أيضا بالنسبة للشعوب والأقطار . فالناس يتخيلون
أن العلة الوحيدة لكل ما يعانونه ويقاسون منه هي في تحكم قطر في
قطر آخر والتسلط عليه سياسيا . كما يتخيلون أن زوال هذا التحكم
يعنى عودة الحرية اليهم آليا . ولكن الامر ليس كذلك ، لأننا نستطيع
أن نرى أقطارا حرة سياسيا ، وفي الوقت ذاته خاضعة خضوعا تاما
لأقطار أخرى بسبب السيادة الاقتصادية . والامبراطورية البريطانية
في الهند أوضح مثل على ذلك .

فبريطانيا تتحكم في الهند سياسيا ، وبجانب هذه الامبراطورية
المنظورة وكجزء منها تتحكم بريطانيا في الهند اقتصاديا . ومن الممكن
أن ينتهى حكم بريطانيا السافر للهند قريبا ، ومع هذا فقد يبقى
تحكمها الاقتصادى كامبراطورية خفية غير منظورة . فاذا حدث هذا
كان معناه أن استغلال بريطانيا للهند سيظل مستمرا .

والاستعمار الاقتصادى هو أقل صور الاستعمار تعبأ بالنسبة
للدولة المستعمرة ، فهو كسيطرة سياسية لا يسبب سخطا وحقدًا

لأن عامة الناس لا يلحظونه ، ولكن عند ما تحس قرصته وثقل وطأته
يبدأ الناس يفهمونه وينقمون عليه .

وفي أمريكا اللاتينية الآن لا يوجد حب كثير للولايات المتحدة ،
وقد بذلت جهود كثيرة لخلق معسكر من الشعوب الأمريكية اللاتينية
لتعارض سياسة أمريكا الشمالية وسيطرتها وغلبتها ، وليس من
المحتمل أن ينجحوا كثيرا في محاولتهم هذه حتى يتغلبوا على عادة
ثورات حكامهم الكثيرة ، وعلى خصوماتهم ومشاجراتهم المتبادلة .

وامبراطورية الولايات المتحدة المرئية الظاهرة تمتد الى جزائر
الفلبين . وأظنك تذكرين أنى حدثتك فى رسالة سابقة كيف استولت
أمريكا على هذه الجزائر على اثر الحرب التى نشبت بينها وبين اسبانيا
عام ١٨٩٨ بسبب جزيرة كوبا فى المحيط الأطلسى . وكوبا وهايتى
خاضعتان لأمريكا .

ومنذ اثنى عشرة سنة أى فى عام ١٩٢١ افتتحت قناة بنما فى
قطاع أمريكا الوسطى الضيق ، وهى تصل المحيط الأطلسى بالمحيط
الهادى . وقد وضع فرديناند دى ليسبس الذى أنشأ قناة السويس
تصميم قناة بنما منذ أكثر من خمسين سنة ، ولكن الأمريكين هم
الذين أنشئوها . وقد واجهتهم أثناء انشائها صعوبات كثيرة من
الملاريا والحمى الصفراء ، ولكنهم نجحوا فى مكافحة هذين المرضين
والتغلب عليهما . لقد قضوا على كل المصادر التى يتولد منها بعوض
الملاريا وغيره من الحشرات وناقلات الأمراض ، وجعلوا من منطقة
القناة منطقة صحية .

وتقع القناة فى جمهورية بنما الصغيرة ، ولكن الولايات المتحدة
تتحكم فيها كما تتحكم فى الجمهورية الصغيرة . وقناة بنما بالنسبة

لأمريكا مصدر دخل كبير ، ولولاها لاضطرت السفن أن تتخذ سبيلها الى المحيطين بالطواف حول جنوب أمريكا ، ولكن قناة بنما لا تبلغ أهميتها أهمية قناة السويس .

وهكذا استمرت الولايات المتحدة تزداد قوة وغنى وتنتج فيما تنتج أرباب الملايين وناطحات السحاب . وقد وصلت الى ما وصلت اليه أوروبا من نواح كثيرة وتقدمت عليها . وفى ميدان الصناعة أصبحت أسبق الشعوب جميعا ، كما أصبح مستوى معيشة عمالها أعلى منه فى أى مكان آخر .

وبسبب ما تتمتع به من يسر ورخاء شبيه بما كانت عليه انجلترا فى القرن التاسع عشر نرى أن النظريات الاشتراكية والتقدمية لا تجد فيها تأييدا . فالعمال الأمريكيون، الا القليل، أكثر اعتدالا ومحافظه . وهم يتقاضون أجورا أعلى نسبيا ، فلماذا يقامرون براحتهم ورفاهيتهم الحاضرة من أجل حياة أفضل مشكوك فيها ؟ وغالبية هؤلاء العمال من الايطاليين وغيرهم ممن كانوا يسمون باحتقار «الملونين» ، والعمال المهرة من ذوى الأجور المرتفعة يعتبرون أنفسهم طبقة أخرى منفصلة عن طبقة هؤلاء « الملونين » .

وفى محيط السياسة الأمريكية ظهر حزبان سياسيان هما : الحزب الجمهورى ، والحزب الديمقراطى . ويمثل هذان الحزبان ، كما فى انجلترا وربما أكثر مما فى انجلترا ، نفس الطبقات الغنية الموسرة . وليس بينهما اختلاف كبير من حيث المبادئ والأهداف .

تلك كانت الحال عند ما نشبت الحرب العالمية (١) التى امتصت أمريكا فى النهاية وقذفت بها فى دوامة الصراع العالمى .

(١) يقصد الحرب العالمية الأولى .

١٤٥ — نهاية عصر تاريخي



٢٢ مارس سنة ١٩٣٣

القرن التاسع عشر ! ما أطول الوقت الذي شغلنا فيه أنفسنا بأحداث هذه السنين المائة ! لقد أنفقت أربعة أشهر في الكتابة لك عن هذه الفترة ، حتى بدأت أشعر قليلا بالتعب منها . ومن يدري ، ربما تشعرين أنت أيضا بالتعب عند قراءة هذه الرسائل . .

لقد حدثتك أول ما حدثتك عن هذا القرن بأنه فترة من الزمن فاتنة ساحرة ، ولكن كل شيء حتى الفتنة والسحر يحول بعد قليل .

ونحن في عرضنا التاريخي هذا قد تجاوزنا القرن التاسع عشر الى القرن العشرين . . وكان آخر ما وصلنا اليه هو عام ١٩١٤ . ففي ذاك العام أطلقت كلاب الحرب من عقالها ، كما يقول المثل ، على أوروبا وعلى العالم . فهذا العام يعتبر نقطة التحول في التاريخ ، كما يعتبر نهاية عصر تاريخي وبداية عصر آخر .

عام ١٩١٤ ! كان هذا العام قبل مولدك ، وقد مضى عليه الآن أقل من تسعة عشر عاما ، وهذه ليست بالفترة الطويلة اذا قيست بعمر الانسان ، وهي أقل كثيرا اذا قيست بعمر التاريخ .

ولكن الدنيا منذ عام ١٩١٤ حتى اليوم قد تغيرت تغيرا كبيرا ، ولا تزال تتغير حتى تبدو هذه الفترة بأحداثها عصرا برمتيه • وان عام ١٩١٤ والأعوام التي سبقته لتدخل فى عداد التاريخ الطويل ، وتصبح أجزاء من ماض بعيد نقرأ عنه فى الكتب ، ومختلف كل الاختلاف عن عصرنا الحاضر • وسوف أحدثك عن شىء من هذه التغيرات الكبيرة فيما بعد •

وقبل كل شىء ، أرى لزاما على أن أنذكرك انذارا • ذلك أن الجغرافيا التى تتعلمينها فى المدرسة تختلف تمام الاختلاف عن الجغرافيا التى كان على أن أتعلّمها عندما كنت فى المدرسة قبل عام ١٩١٤ • ومن الجائز أن كثيرا من الجغرافيا التى تتعلمينها اليوم قد تضطرين ألا تتعلميها فيما بعد ، كما كان الحال معى •

فالحدود الجغرافية القديمة والاقطار القديمة قد اختفت فى دخان الحرب وحلت محلها أقطار جديدة يصعب على المرء أن يتذكر أسمائها •

فمئات المدن قد تغيرت أسماؤها ما بين عشية أو ضحاها • فمدينة سانت بطرسبرج St. Petersburg أصبحت بيتروجراد ، ثم أصبحت بعد ذلك لينينجراد ، والقسطنطينية تدعى الآن استانبول ، وبيكين تعرف الآن باسم بيبينج Peiping ، وبراغ التى كانت إحدى مدن يوهيميا أصبحت براها Praha إحدى مدن تشيكوسلوفاكيا •

وفى رسائلّى اليك عن القرن التاسع عشر قد عالجت بالضرورة قارات وأقطارا على حدة ، كما بحثت جوانب شتى وحركات مختلفة على حدة أيضا • ولكنك ستتذكرين طبعاً أن كل هذا كان فى وقت واحد تقريبا ، وأن التاريخ قد زحف فى جميع أرجاء الدنيا بأقدامه الألف معا •

فالعلم والصناعة ، والسياسة والاقتصاد ، والغنى والفقر ،

والرأسمالية والاستعمار ، والديمقراطية والاشتراكية ، ودارون وماركس ، والحرية والعبودية، والمجاعة والطاعون، والحرب والسلام، والحضارة والبربرية - كل هذه جميعا قد احتلت مكانها في هذا البناء أو النظام الغريب ، وأثر كل منها في الآخر وتأثر به . فاذا أردنا أن نكون صورة في أذهاننا عن هذه الفترة أو أى فترة أخرى ، فلا بد أن تكون صورة مركبة متغيرة متحركة دائما كالكايدوسكوب Kaleidoscope^(١) وان كانت أجزاء كثيرة من الصورة لا تسر المرء أن يتأملها ويتأملها .

فالمظهر الغالب على هذه الفترة قد تجلى ، كما رأينا ، فى نمو الصناعة الرأسمالية عن طريق الانتاج الهائل الضخم ، أو الانتاج بمساعدة بعض القوى الآلية كالقوى المائية أو البخارية أو الكهربائية .

وقد أحدث ذلك آثارا مختلفة فى أجزاء شتى من الدنيا ، وكانت هذه الآثار مباشرة وغير مباشرة معا . وهكذا أثر انتاج المنسوجات بواسطة الأنوال الآلية فى مقاطعة لانكشير بانجلترا على الأحوال فى القرى الهندية النائية ، وقضى على كثير من الحرف والمهن هناك .

فالصناعة الرأسمالية كانت قوية ، وبطبيعتها الذاتية أخذت تزداد نموا على نمو، وقلما اكتفت أو أشبعت نهمها . وكان طابعها المميز هو الاكتساب ، فالصناعة الرأسمالية قد وجدت لتكتسب ولتستحوذ على ما تكتسب دائما ، ثم لتكتسب ثانيا . وكذلك حاول الأفراد وحاولت الشعوب . ولهذا يسمى المجتمع الذى نما فى ظل هذا النظام مجتمعا مكتسبا .

(١) آلة يتمكن بها الناظر من مشاهدة أشكال شتى على نظام بديع .

وكان الهدف دائما هو أن تنتج المصانع أكثر فأكثر ، وأن تستغل ثروتها الزائدة الناتجة هذه في بناء مزيد من المصانع والطرق الحديدية، وما أشبه ذلك من مشروعات الانتاج ، وكل هذا من شأنه أن يزيد بطبيعة الحال من ثراء أرباب هذه المصانع . ومن أجل تحقيق هذا الهدف ضحى بكل شيء آخر .

فالعمال الذين أنتجوا غنى المصانع و ثراءها لم ينتفعوا من ذلك إلا بالقليل . وقد اضطر أولئك العمال ، بما فيهم النساء والأطفال، أن يمروا بأوقات عصيبة قبل أن تتحسن أحوالهم بعض الشيء . كذلك ضحى بالمستعمرات والمحميات والتوابع ، كما استغلت كل هذه من أجل مصلحة الصناعة الرأسمالية ومصلحة شعوبها .

ولهذا مضت الرأسمالية في طريقها ، عمياء ضارية قاسية ، تاركة وراءها الكثيرين من الضحايا . وعلى الرغم من ذلك فقد أحرزت انتصارا وتقدما . فبمساعدة العلم لها نجحت الرأسمالية في أشياء كثيرة ، وهذا النجاح خطف أبصار العالم وبدأ كأنه تكفير عن شرورها ومساوئها . وكذلك نجحت عرضا وبدون خطة مقصودة في انتاج الكثير من الأشياء الحسنة في الحياة ، ولكن هذا السطح اللامع البراق كان يخفى تحته كثيرا من الفساد . أجل كان هناك الفقر القاتل والثراء الفاحش ، وكان هناك الأحياء الفقيرة القذرة وناطحات السحاب ، ثم كان هناك الامبراطوريات والمستعمرات المستغلة . وكانت أوروبا هي القارة ذات السلطان والسيادة ، بينما كانت آسيا وأفريقية هما القارتين المستغلتين .

وكانت أمريكا معظم هذا القرن بمعزل عن تيارات الأحداث العالمية ، ولكنها كانت تتقدم تقدما سريعا في بناء مصادر ثروتها واستغلالها . وفي أوروبا كانت انجلترا هي زعيمة الرأسمالية المزهوة بنفسها وغناها وامبراطوريتها .

على أن طبيعة الصناعة الرأسمالية قد بلغت بالأمر إلى حال استوجبت التدخل ، وأدت إلى المعارضة والاضطراب ، ثم إلى فرض بعض القيود في النهاية حماية للعمال . فنظام المصنع في أيامه الأولى كان يعنى استغلال العمال استغلالا قاسيا شنيعا ، ولا سيما النساء والاطفال منهم . فهؤلاء النساء والاطفال كانوا يفضلون في العمل على الرجال ، لضالة أجورهم بالقياس إلى أجور الرجال ، ولأنه كان يفرض عليهم أن يشتغلوا أحيانا ثمانى عشرة ساعة يوميا في أسوأ الأحوال وأبغضها وأقذرها .

ولم تجد الدولة مفرا إزاء ذلك إلا أن تتدخل في النهاية ، وتصدر قوانين سميت بتشريعات المصانع ، حددت فيها ساعات العمل اليومية ، وأصرت على أحوال أرقى وأفضل . وقد حمت هذه القوانين النساء والاطفال بوجه خاص ، ولكن استصدارها كان نتيجة كفاح طويل مرير بسبب المعارضة العنيفة من أرباب المصانع .

وأكثر من ذلك أن الصناعة الرأسمالية قد أدت إلى أفكار اشتراكية وشيوعية ، وبينما اعترفت هذه الأفكار بالصناعة الحديثة ، نراها تتحدى أساس الرأسمالية . كذلك تطورت نقابات العمال واتحاداتهم ومنظماتهم الدولية ، التي تنادى بأن الأرض ومصادر الثروة الطبيعية ووسائل الإنتاج يجب أن تملكها الدولة وتتحكم فيها من أجل خير الجميع ورفاهيتهم .

وقد قادت الرأسمالية إلى الاستعمار ، كما أدى اصطدام الصناعة الرأسمالية الغربية بالأوضاع الاقتصادية القديمة في الاقطار الشرقية إلى الخراب والدمار فيها . وحتى في هذه الاقطار الشرقية نرى الصناعة الرأسمالية قد تأسست فيها وأخذت في النمو شيئا فشيئا . كذلك ظهرت فيها روح القومية كتحد للاستعمار الغرب .

وهكذا هزت الرأسمالية العالم ، وعلى الرغم مما أحدثته من بؤس
انسانى فظيع فانها كانت فى جملتها حركة نافعة على أقل تقدير للغرب .
لقد جرت فى أذيالها تقدما ماديا عظيما ، ورفعت كثيرا من مستويات
الناس ، وأصبح الرجل العادى بسببها أهم وأعظم شأنًا مما كان عليه
من قبل .

فمن الناحية العملية لم يكن لرأيه وزن كثير فى أى شىء ، على الرغم
مما كان يتمتع به من صوت انتخابى وهمى ، ومن الناحية النظرية زاد
اعتباره فى نظر الدولة ، كما زاد مع ذلك احترامه لنفسه . وهذا ينطبق
بطبيعة الحال على الدول الغربية ، حيث الصناعة الرأسمالية قد أسست
نفسها

لقد تكاثرت المعرفة الى حد كبير ، وصنع العلم العجائب ، كما أن
استخدامه فى شتى مناحى الحياة جعل الحياة على الناس أيسر وأسهل .

فالطب ، ولا سيما الطب الوقائى والارتقاء بالمستوى الصحى ، كان
لهما الفضل فى إيقاف واستئصال كثير من الأمراض التى كانت لعنة على
الانسان . وعلى سبيل المثال نذكر اكتشاف أصل الملاريا وطرق الوقاية
منها . ومما لا شك فيه أن من المستطاع الآن استئصالها والقضاء عليها
فى أية منطقة ، اذا اتخذت الخطوات الضرورية لهذا . واذا كانت الملاريا
لا تزال توجد ويروح ضحيتها ملايين من البشر فى الهند وغيرها ، فان
ذلك لا يعنى خطأ العلم ، وانما يعنى اهمال الحكومات وجهل الناس .

ولعل أبرز مظاهر هذا العصر هو تقدم وسائل النقل والمواصلات .
فالطرق الحديدية ، والسفن البخارية ، والبرق (١) ، والسيارات قد

(١) التلغراف .

غيرت الدنيا تغييرا شاملا ، وجعلتها بالنسبة لكل ضروب النشاط الانساني مكانا مختلفا تمام الاختلاف عما كانت عليه دائما . فالدنيا بفضل هذه المخترعات قد انكششت ، واقترب سكانها بعضهم من بعض ، واستطاعوا أن يتعارفوا أكثر من قبل ، وبالمعرفة المتبادلة قضى على كثير من الحواجز التي أقامها الجهل . ثم بدأت الأفكار العامة المشتركة تزدح وتنتشر وتحدث نوعا من الوحدة الفكرية في جميع أرجاء الدنيا .

وفي نهاية العصر الذي ندرسه ظهر اللاسلكى والطيران ، ولكن استعمالهما أصبح الآن شائعا ، وقد ركبت الطائرة وسافرت بها عدة مرات دون أن تفكرى فيها كثيرا . وتطور اللاسلكى والطيران وانتشارهما يمت الى القرن العشرين والى عصرنا الحاضر .

فالناس كثيرا ما طاروا فى مناطيد ، ولكن لم يرتفع أحد من قبل على شىء أثقل من الهواء اللهم الا على البساط الطائر فى الأساطير القديمة ، كما فى قصص ألف ليلة وليلة ، والا على « اليورانخاتولا » Urankhatola كما فى قصصنا الهندية .

والاخوان الأمريكان « ولبور » Wilbur و « أورفيل رايت » Orville Wright هما أول من نجح فى اعتلاء الجو فى آلة أثقل من الهواء . وهذه الآلة هى أصل الطائرة الحديثة . فهذان الأخوان استطاعا فى ديسمبر ١٩٠٣ أن يطيرا بآلتهما فى الجو الى ارتفاع أقل من ثلثمائة ياردة ، ولكن مع قصر هذه المسافة ، فانهما قد فعلا ما لم يستطع أحد قبلهما أن يفعله .

وقد استمرت بعد ذلك محاولات الطيران فى الجو تتقدم ، وانى لا أذكر الدهشة التى سرت فى العالم عام ١٩٠٩ عندما تمكن « بليريو » Blériot الفرنسى من الطيران فوق القنال الانجليزى من فرنسا الى

انجلترا • وقد رأيت بعد ذلك بقليل أول طائرة تطير فوق برج ايفل
فى باريس • وبعد ذلك بعدة سنوات ، وعلى التحديد فى مايو ١٩٢٧ ،
كنت أنا وأنت فى باريس عندما قدم « شارل لنديبرج »
Charles Lindbergh كالسهم الفضى المتلألئ عبر المحيط الأطلسى
ثم هبط فى لى بورجيه Le Bourget مطار باريس •

كل ذلك يعد من حسنات هذا العصر ، عندما كان للصناعة
الرأسمالية السيادة والسلطان • ومما لاشك فيه أن الانسان قد أتى
خلال هذا القرن بأشياء عجيبة •

وهناك شيء آخر يضاف الى جانب الحسنات • ذلك أن ازدياد شراهة
الرأسمالية وشحها أدى الى ظهور الحركة التعاونية لتحد من هذه
الشراهة وهذا الشح • وهذه الحركة التعاونية تتمثل فى جماعة من
الناس قد اشتروا معا فى شراء أو بيع السلع العامة وتقسيم الارباح
فيما بينهم • وطريق الرأسمالية العادى هو طريق المنافسة القاتلة
حيث يحاول كل شخص أن يسبق الآخر • أما الطريق التعاونى فقائم
على أساس التعاون المتبادل ، ولا بد أنك رأيت كثيرا من الشركات
التعاونية • وقد نمت الحركة التعاونية وانتشرت انتشارا كبيرا فى أوروبا
فى القرن التاسع عشر ، ولعل الدانمارك الصغيرة هى الدولة التى
أحرزت فيها الحركة التعاونية أكبر نجاح •

ومن الناحية السياسية أخذت الأفكار الديمقراطية تظهر وتنمو
وتنتشر ، كما نالت الشعوب أكثر فأكثر حق انتخاب برلماناتها
ومجالسها النيابية • ولكن حق الانتخاب هذا كان قاصرا على الرجال ،
وأما النساء ، حتى القادرات وذوات الكفاءة منهن ، فحسب حرم من حقهن
الانتخابى على أساس أنه ليس من الخير أو الحكمة منحهن هذا الحق •
وقد استاء من هذا الموقف كثير من النساء ، وفى أوائل القرن العشرين

نظمت النساء فى انجلترا اضرابات ومظاهرات طالبن فيها بحقهن الانتخابى .

ولكن الرجال لم يأخذوا حركة المطالبة بحق المرأة الانتخابى مأخذ الجد ، وبالتالى لم يصغوا اليها أى اصغاء . ولهذا لجأت المرأة فى المطالبة بحقها الى طرق الشدة والعنف لجذب الانظار الى قضيتها ، ومن ذلك أن النساء الانجليزيات اقتحمن البرلمان وأحدثن شغباً فيه وشوشن على النواب فى عملهم . ومن ذلك أيضاً أنهن اعتدين على الوزراء الانجليز بالضرب حتى اضطر هؤلاء الوزراء الى التنقل فى حماية البوليس المستمرة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد وإنما زاد العنف المنظم وانتشر ، ونتيجة لكل ذلك زج بكثير من النساء فى السجن حيث أضربن عن الطعام . ثم أفرج عنهن ، حتى اذا استعدن صحتهن وقوتهن، زج بهن ثانية فى السجن .

وقد وافق البرلمان على قانون يجيز القبض على هؤلاء النساء وسجنهن ، وقد أسمى العامة هذا القانون « قانون القط والفأر » .

على أية حال ، لقد نجحت وسائل المطالبات بحق الانتخاب فى إثارة الاهتمام على صعيد واسع ، وفى كسب التأييد الشعبى ، ولم تمض سنوات قليلة بعد الحرب العالمية (الأولى) حتى اعترف للمرأة فى انجلترا بحقها الانتخابى .

ولم تقتصر حركة المرأة ، أو الحركة النسوية كما تسمى كثيراً ، على المطالبة بحق الانتخاب ، وإنما تعدت ذلك الى طلب المساواة بين الرجل والمرأة فى كل شئ .

وموقف المرأة فى الغرب كان الى عهد قريب سيئاً ، حيث لم تكن قد ظفرت الا بالقليل من حقوقها ، فالقانون لم يكن يخول المرأة الانجليزية مثلاً حتى حق التملك ، بينما كان يخول الزوج أن يستولى على كل شىء حتى دخل زوجته . أجل ، كانت المرأة الانجليزية بمقتضى القانون أسوأ حالا حتى من المرأة اليوم تحت القانون الهندى . وهذا يبين مدى ما كانت عليه المرأة الانجليزية من حال سيئة .

فالمرأة فى الغرب كانت فى حقيقة الأمر جنسا يدين بالخضوع والتبعية للرجل ، كما هو شأن المرأة الهندية اليوم فى أحوال كثيرة . وقد حدث قبل بدء الكفاح من أجل حق الانتخاب بزمان طويل أن طالبت المرأة بأن تعامل مع الرجل على قدم المساواة فى شئون أخرى .

وقد أعطيت المرأة الانجليزية قبيل نهاية القرن التاسع عشر بعض الحقوق ، كحق التملك ، ونجاحها فى اكتساب هذا الحق يرجع الى تحييد أرباب المصانع له ، معتقدين أن المرأة اذا مكنت من أن تحتفظ بدخلها لنفسها فان هذا من شأنه أن يستميلها الى العمل فى المصانع .

وعلى الاجمال ، اذا نظرنا الى كل جانب فاننا نلاحظ تغييرات كبيرة ، ولكن الأمر ليس كذلك اذا نظرنا الى أساليب الحكومات ، فالدول العظمى ظلت تتبع المؤامرات وضروب الخداع التى أوصى بها منذ عهد طويل مكيا فيلى الفلورنسى ، والتى أوصى بها من قبله عام ١٨٠٠ الوزير الهندى « تشانكيا » Chânakya .

فبين الدول العظمى كانت هناك منافسة لا تنقطع ، وكان هناك أحلاف ومعاهدات سرية ، وكانت كل دولة منها تحاول أن تسبق الدول الأخرى . وقد لعبت أوروبا ، كما رأينا ، الدور الايجابى العدوانى ، ولعبت آسيا الدور السلبى . أما دور أمريكا فى ميدان

السياسة الدولية فكان بالنسبة الى دور الدول العظمى الأخرى دورا صغيرا ، وذلك لانشغال بالها بشئونها الخاصة وانهماكها فيها .

ومع فكرة القومية تطورت فكرة تعصب الانسان لوطنه مصيبا أو مخطئا . كذلك مجدت الشعوب على اتيان أشياء ، لو أتاها الأفراد لكانت قبيحة خارجة على مبادئ الأخلاق .

وهكذا نشأت مفارقة غريبة بين أخلاق الأفراد وأخلاق الشعوب ، ووجد فرق شاسع بين الاثنين ، وأصبحت رذائل الأفراد فضائل الشعوب .

ولا جدال في أن الأنانية والطمع والشراسة والتعاطف والخسة والفظاظة أمور شائنة لا تغتفر في حالة الأفراد رجالا ونساء ، أما في حالة الجماعات والشعوب فقد اعتبرت أمورا تحمد وتشجع باسم حب الوطن وتحت رداء الوطنية النبيل .

وليس هذا فقط ، بل أصبح حتى الاغتيال والقتل أمرين جديرين بالثناء والمدح اذا ارتكبتهم الجماعات والشعوب الكبيرة ضد بعضها بعضا !

وقد قال كاتب حديث ، وهو على حق فيما قال : « لقد أصبحت المدنية وسيلة تقترب بها الجماعات آثام الأفراد » .

١٤٦ — الحرب العالمية (١) تبدأ

٢٣ مارس ١٩٣٣

فى ختام رسالتى السابقة أبنت لك مدى خبث الدول وفساد طويتها عند ما تعامل بعضها بعضا .

فكل دولة تعتبر من علامات استقلالها أن تتخذ ضد الآخرين موقفا هجوميا لا يفتقر ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، وأن تمارس سياسة من يعزف عن استعمال الشيء ، وفى الوقت ذاته لا تسمح لغيرها باستعماله .

وهل هناك قوة أو سلطة تستطيع أن تكره أى دولة على التزام آداب السلوك ؟ أوليست هذه الدولة أو تلك مستقلة ؟ ثم أليس أى تدخل على هذا النحو يقابل بالاستياء والحق والاستنكار ؟

ولعل الشيء الوحيد الذى يكبح من جماح الدول هو الخوف من النتائج والتبعات . ومن أجل ذلك احترمت الدول القوية الى حد ما واستذلت الدول الضعيفة .

(١) يقصد الحرب العالمية الأولى من ١٩١٤-١٩١٨

وهذه المنافسة القوية كانت فى الحقيقة نتيجة حتمية لنمو الصناعة الرأسمالية . وقد رأينا كيف أن الطلب المتزايد للأسواق والمواد الخام جعل الدول الرأسمالية الكبرى تتسابق حول العالم رغبة فى بناء امبراطوريات لها .

أجل تدافعت هذه الدول حول آسيا وافريقية للاستيلاء على أكبر ما يمكن الاستيلاء عليه من الارض واستغلاله . وعند ما احتلت المعمور من الدنيا ولم يعد هناك مجال آخر لتوسيعها ، بدأت الدول الرأسمالية الكبرى يحملق بعضها فى بعض ، وتطمع هذه فى ممتلكات تلك .

وكثيرا ما نشأ التصادم بين هذه الدول العظمى فى آسيا وافريقية وأوروبا ، وتأججت نيران الغضب بينها ، وبدأت الحرب معلقة فى الميزان .

ومن الدول العظمى من كانت أحسن حالا من الأخرى ، ولعل انجلترا بسبقها الصناعى وامبراطوريتها الشاسعة الأطراف كانت أكثر الجميع حظا . ومع ذلك فإن انجلترا لم تكن قانعة بما عندها ، ولا غرابة فى ذلك ، فكلما زاد ما لدى الإنسان كثر جشعه وتلهفه على طلب المزيد .

وقد ازدحمت زعوس بناء الامبراطورية الانجليزية بمشروعات للتوسع مساحة ونفوذا ، مشروعات تهدف الى امبراطورية افريقية تمتد بلا انقطاع من الشمال الى الجنوب ، ومن القاهرة الى رأس الرجاء الصالح .

وكانت انجلترا أيضا مضطربة منزعة من منافسة ألمانيا والولايات المتحدة لها فى ميدان الصناعة . فهاتان الدولتان كانت منتجتهما

الصناعية أرخص من منتجات إنجلترا ، ولهذا كانتا تسلبان إنجلترا أسواقها .

فاذا كانت إنجلترا المحظوظة غير قانعة ، فإن الدول الأخرى كانت بلا شك أقل منها قناعة ورضا ، ولاسيما ألمانيا التي لحقت متأخرة بركاب الدول العظمى ، ووجدت أن كل الثمار الناضجة الشهية قد ذهبت لغيرها .

فألمانيا كانت قد تقدمت تقدما عظيما في العلوم ، والتعليم ، والصناعة ، وبنت في الوقت ذاته جيشا هائلا . وفي ميدان الإصلاح الاجتماعي كانت قد سبقت الدول الأخرى بما فيها إنجلترا في ميدان التشريعات التي سنتها لعمالها .

وعلى الأجمال كانت الدنيا محتلة بالدول الاستعمارية الأخرى عندما ظهرت ألمانيا على مسرح الحوادث ورأت طرق الاستغلال محدودة . ولكنها على الرغم من ذلك أصبحت بالعمل الشاق وتنظيم نفسها أقوى وأكفا دولة في عصر الرأسمالية الصناعية .

فسفنها التجارية كانت تغطي كل ميناء ، وكانت هامبورج وبريمن Bremen الألمانيةتان معدودتين بين أكبر موانئ الدنيا ، ولم يحمل الاسطول التجارى الألمانى السلع والمنتجات الألمانية الى أقطار بعيدة فقط ، وإنما استولى أيضا على نقل تجارة الأقطار الأخرى .

لم يكن عجيبا إذن من ألمانيا الجديدة الاستعمارية هذه ، مع نجاحها وشعورها الكامل بالقوة ، أن تغضب وتثور على القيود التي فرضت عليها للحيلولة دون أطراد نموها وتقدمها .

وكانت بروسيا هي زعيمة الامبراطورية الألمانية ، ولم يعرف

أبدا عن مالك الأرض البروسى أو الطبقة العسكرية قبول الهوان والمذلة ، وإنما كانا مبادئين بالشر والاعتداء ومتباهيين به ، وقد وجدنا فى شخص القيصر ولهيلىم الثانى زعيما مثاليا تتجلى فيه روح الزهو والتعظيم والاعتداء .

فهذا القيصر طفق يعلن فى كل مكان وكل مناسبة أن ألمانيا فى طريقها الى زعامة العالم ، وأنها تريد لنفسها مكانا تحت الشمس ، وأن مستقبلها مرهون بالبحر ، وأن رسالتها هى أن تنشر ثقافتها فى جميع أرجاء الدنيا .

ومثل هذا القول رددته من قبله أناس آخرون وشعوب أخرى . قالتها انجلترا عندما ادعت أن رسالتها تتمثل فى الاضطلاع بعقب الرجل الأبيض ، وقالتها فرنسا حينما زعمت أن رسالتها هى نشر المدنية .

فانجلترا ادعت ، وكانت على حق فى دعواها ، أنها متفوقة بأساطيلها فى البحار . أما القيصر فقد ادعى لألمانيا وبأسلوب فج مبالغ فيه ما ادعاه كثير من الانجليز لانجلترا ، مع فارق واحد ، هو أن ما ادعته انجلترا كانت تملكه فعلا ، على حين ما ادعته ألمانيا كانت لا تملك منه شيئا .

ومع هذا فقد استفزت دعاوى القيصر الانجليز غاية الاستفزاز ، وأوغرت صدورهم . ففكرة أن يجروا أى شعب آخر حتى على مجرد التفكير فى أن تصير له زعامة العالم ، كانت فكرة بغیضة لدى الانجليز . ولم تكن كذلك فى نظرهم فحسب ، وإنما كانت بدعة من البدع ، وهجوما صريحا على انجلترا التى اعتبرت نفسها زعيمة الشعوب .

أما البحر فقد اعتبر أمرا من الأمور التي اختفظت بها إنجلترا لنفسها منذ هزيمة نابليون في موقعة الطرف الأغر منذ مائة سنة (١) ولهذا يرى الانجليز أنه لا يليق مطلقا بألمانيا أو بأي شعب آخر أن يتحدى هذا الموقف . فإذا لم تعد إنجلترا ذات قوة وسيادة في البحار فماذا يكون مصير امبراطوريتها الشاسعة الاطراف ؟

فتحدى القيصر وتهديده كانا في حد ذاتهما أمرا سيئا ، ولكن الأسوأ من ذلك أن يقوم القيصر فعلا بعد هذا التحدى والتهديد بزيادة أسطوله وتقويته وتدعيمه . لقد أزعج هذا الأمر الانجليز ونال من أعصابهم فاندفعوا يزيّدون من قوة أسطولهم . وهكذا بدأ تسابق بحري بين الدولتين ، وراحت صحافة البلدين تشن كل منهما على الأخرى حملات صاخبة ، وتزيد من حدة الحقد القومي ، وتطالب ببناء الكثير من البوارج الحربية .

هذه كانت منطقة من مناطق الخطر الكثيرة في أوروبا . وكانت فرنسا وألمانيا بطبيعة الحال منافستين قديمتين ، وكانت ذكريات الهزيمة المؤلمة التي أصابت فرنسا عام ١٨٧٠ تلتهب في عقول الفرنسيين ممن كانوا يحلمون بالانتقام . وكانت دول البلقان صندوق بارود ، حيث كانت تتصادم فيها مصالح شتى .

وقد بدأت ألمانيا أيضا تتوّد الى تركيا بقصد زيادة نفوذها في غرب آسيا . ومن ذلك أنها اقترحت انشاء طريق حديدي الى بغداد ، يصل هذه المدينة بالقسطنطينية وأوروبا . وكان هذا المشروع مرغوبا فيه جدا ، ولكن رغبة ألمانيا في أن تكون لها الرقابة على هذا الطريق الحديدي أثارت الغيرة القومية لدى بعض الدول .

(١) كتبت هذه الرسالة عام ١٩٣٣ .

وشيئا فشيئا بدأ الخوف من الحرب ينتشر في أوروبا ، ونتيجة لذلك بدأت الدول العظمى تنشد الأحلاف دفاعا عن نفسها . وقد انقسمت الدول العظمى الى معسكرين : معسكر يضم حلفا ثلاثيا من المانيا والنمسا وايطاليا ، ومعسكر آخر يضم حلفا ثلاثيا أيضا من انجلترا وفرنسا وروسيا .

وكانت ايطاليا عضوا فاطر الهمة عديم الجدوى في الحلف الالمانى ، وعندما نشبت الحرب نقضت عهدها وانضمت الى المعسكر الآخر . وكانت النمسا امبراطورية مفككة متداعية ، تبدو على الخريطة مساحة كبيرة ، وتشيع فيها العناصر غير المؤتلفة . وكانت عاصمتها « فينا » الجميلة هى خير ما فيها ، لأنها كانت مركزا كبيرا للعلوم والفنون والموسيقى . لهذا كان الحلف الثلاثى الذى تتزعمه المانيا لايعنى غير المانيا فقط ، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يعرف ، قبل قيام الحرب ، حقيقة كل من ايطاليا والنمسا .

وهكذا تحكم الخوف فى أوروبا ، والخوف أمر فظيع . فكل دولة مضت تستعد للحرب وتسليح نفسها الى أقصى حدود التسليح . لقد كان هناك سباق فى التسليح . والعجيب فى أمر هذا السباق أن الدول كانت تضطر ، عندما ترى احداها تستزيد من أسلحة الحرب ، الى أن تضاعف هى الأخرى من استعداداتها الحربية .

وكان طبيعيا أن تجنى المصانع الحربية الكبرى ثروات طائلة من وراء انتاج المدافع والبوارج والذخيرة وغير ذلك من ضروب العتاد الحربى . ولم يقف أرباب المصانع الحربية الخاصة عند حد انتاج أسلحة الخراب والدمار ، وانما ذهبوا الى أبعد من ذلك . فقد بدأوا فى الحقيقة يملأون قلوب الناس فزعا ورعبا من الحرب ، وذلك بقصد دفع الدول والأقطار لشراء مزيد من الأسلحة . وكانت هذه المصانع الحربية الكبرى غنية وقوية جدا ، وكثيرون من الوزراء وذوى المناصب

العالية فى انجلترا وفرنسا والمانيا وغيرها كانوا من المساهمين فيها ، وكان يهمهم أن تزدهر وتتضاعف أرباحها ، وازدهار مصانع الأسلحة يأتى عادة من نشر الخوف من الحرب ثم من الحرب الفعلية . فالموقف الغريب هنا هو أن الوزراء وأرباب المناصب الكبرى فى كثير من الحكومات كانت لهم مصلحة مالية فى قيام الحرب واشعال نيرانها !

وقد لجأت هذه المصانع الحربية الى طرق شتى لزيادة اعتمادات الحرب فى دول مختلفة . من ذلك أنها اشترت صحفا ومجلات لتؤثر عن طريقها فى الرأى العام ، وكثيرا ما رشت ذوى المناصب الحكومية الكبرى ، ونشرت أنباء كاذبة بقصد إثارة مشاعر الناس . فما أفضع وأشنع صناعة الأسلحة التى تحيا على موت الآخرين ، والتى لا تتردد فى تشجيع خلق الرعب فى الازدهان من أهوال الحرب كى تثرى وتربح على حساب ذلك ! لقد ساعدت هذه الصناعة الى حد ما على التعجيل بنشوب حرب عام ١٩١٤ ، ولا تزال هذه الصناعة حتى اليوم تلعب نفس الدور .

وبعد ، فأرى لزاما على وأنا فى معرض الحديث عن الحرب أن أحدثك عن محاولة غربية للابقاء على السلام . فقيصر روسيا نيقولا الثانى ، قام دون سائر الناس ، واقترح على الدول العظمى أن تجتمع لتمهد السبيل الى عصر من السلام العالمى . ذلك هو القيصر الذى حطم كل حركة تدعو الى الحرية فى امبراطوريته ، والذى ملأ سيبيريا بالسجناء والمنفيين الاحرار ! فدعوته للكلام عن السلام بعد ذلك تبدو كما لو كانت ضربا من الفكاهة والمزاح .

ومن الجائز أنه كان مخلصا فى دعوته ، فاستقرار السلام العالمى بالنسبة له كان يعنى دوام الأحوال القائمة فى امبراطوريته ، واستمرار حكمه الفردى الاستبدادى .

واستجابة لدعوته عقد مؤتمران في لاهاي بهولندا في عامي ١٨٩٩ و ١٩٠٧ ، ولكنهما لم ينجحا في الوصول الى أى شىء ذى بال • ولم تكن هذه النتيجة بالأمر المستغرب ، فالسلام لا يتنزل فجأة من السماء ، وانما يأتى فقط من استئصال أسباب الاضطراب والمشاكل من جذورها •

لقد حدثت كثيرا عن منافسات الدول العظمى ومخاوف بعضها من بعض • فالدول الصغيرة الفقيرة حظها التجاهل والاهمال دائما ، الا اذا ساء تصرفها • ففي شمال أوروبا توجد بعض الدول الصغيرة التى تستحق الاهتمام ، لأنها تختلف اختلافا بينا عن الدول العظمى البخيلة الجشعة • ومن هذه الدول الصغيرة النرويج والسويد والدنمارك •

فهذه الدول ليست بعيدة عن القطب الشمالى ، ومناخها بارد ، والحياة فيها قاسية ، ولا يستطيع أن يعيش على مافيها الا عدد قليل محدود من السكان • ولكونها تعيش خارج الدائرة التى يتركز فيها حقد الدول العظمى وغيرتها ومنافستها ، نراها تحيا حياة هادئة ، وتنفق جهودها فى سبيل من الحياة المتمدنية ، كما نرى العلوم والآداب ترقى وتزدهر فى ربوعها •

وحدث أن انضمت النرويج والسويد معا وكونتا دولة واحدة حتى عام ١٩٠٥ ، ثم قررت النرويج أن تنفصل وأن تمارس حياتها مستقلة • ولهذا اتفقت الدولتان أن تفصما عرى اتحادهما سلميا ، ومنذ ذلك الحين أصبحتا دولتين مستقلتين • ولم تنشب حرب بينهما ، ولم تحاول احدهما أن تكره الأخرى على مالا ترضى ، وانما استمرتتا تعيشان جارتين صديقتين ؟

وقد ضربت الدنمارك الصغيرة مثلا رائعا للدول الكبرى والصغرى

معا عندما ألغت جيشها وأسطولها • وشعب الدنمارك شعب زراعى ،
والفرق بين مزارعيه الأغنياء والفقراء ليس كبيرا • وهذه المساواة
التي يتمتع بها هذا الشعب ترجع فى جملتها الى تطور الحركة التعاونية
فيها ونموها نموا كبيرا •

ولكن ليس كل دول أوربا الصغرى نماذج للفضيلة تحتذى
كالدنمارك • فهولندة ، على صغرها ، تتحكم فى امبراطورية كبيرة فى
الهند الشرقية من جاوة ^(١) وسومطرة الخ ••

ويلي هولندة بلجيكا التى تستعمر الكنفو فى افريقية وتستغله •
وأهمية بلجيكا الحقيقية فى السياسة الاوربية تأتى من موقعها
الجغرافى ، فهى تكاد تكون على الطريق الرئيسى بين فرنسا والمانيا ،
وكل حرب تقوم بين هاتين الدولتين تجر بلجيكا اليها • وسوف
تذكرين أن « ووترلو » ^(٢) قريبة من « بروكسل » عاصمة بلجيكا •
ولهذا السبب كان يطلق على بلجيكا اسم « ميدان قتال ديوك أوربا » ،
وقد ائفقت الدول العظمى على احترام حياد بلجيكا فى حالة الحرب ،
ولكن هذا الاتفاق أو الوعد ، كما سنرى تبدد وتلاشى عندما قامت
الحرب •

على أن أكثر الدول الصغرى شجارا وشقاقا ، سواء فى أوربا أو
غيرها ، هى دول البلقان • فهذا الخليط المتنافر من الناس
والأجناس ، ومن ورائه عداوة ومنافسة أجيال ، يتفشى بينه الحقد
والصراع المتبادلان •

(١) كان ذلك قبل استقلال اندونيسيا •

(٢) الموقعة التى انهزم فيها نابليون •

فحروب البلقان في عامي ١٩١٢ و ١٩١٣ كانت حروبا دموية منكرة ، ومع أنها قامت لفترة قصيرة وكانت تدور رحاها في منطقة صغيرة فان خسائرها كانت فادحة . ويقال ان البلغار ارتكبوا ضد الأتراك المتفهمين واللاجئين جرائم فظيعة شنعاء . وقد حفل سجل الأتراك أنفسهم في السنوات الأولى بضروب شتى من القسوة والوحشية . والصرب التي هي الآن جزء من يوغوسلافيا اكتسبت سمعة شريرة في حوادث الاغتيال .

ففي الصرب تألفت عصبة سرية ممن يسمون أنفسهم بالوطنيين هدفها الاغتيال . وقد أطلق على هذه العصبة « اليد السوداء » . وكان من بين أعضائها بعض ذوي المناصب العليا في الدولة ، واليها يعزى ارتكاب بعض حوادث اغتيال بشعة .

فملك الصرب وملكته ، الملك اسكندر والملكة دراجا ، وأخوة الملكة ، ورئيس الوزراء وغيرهم ، قتلوا جميعا بطريقة تشير التقزز والاشمئزاز . وهذه كانت ثورة قصر فقط أريد بها افساح الطريق لشخص آخر ليتولى الملك .

هكذا بدأ القرن العشرون برعد وبرق في سماء أوروبا ، وعلى توالي السنين اكفهر هذا الجو واشتدت عواصفه . ثم زادت العراقيل والأحاييل ، وأصبحت حياة أوروبا مقيدة بعقد لا يمكن حلها أو قطعها في النهاية الا بالحرب .

وقد توقعت كل الدول العظمى حدوث حرب ، ولهذا غشيتهم حمى الاستعداد لها . ومن يدري ؟ فلعل أحدا من هذه الدول لم يكن راغبا فيها أو متلهفا عليها ، فجميعهم كانوا خائفين منها الى حد ما ، لأنه لم يكن في استطاعة أية دولة أن تتنبأ تنبؤا جازما بالنتائج التي تنتهي اليها الحرب ، ومع هذا فقد دفعهم الخوف من الحرب الى الحرب .

وكما أخبرتك من قبل ان معسكرى أوروبا قد تحالف أحدهما ضد الآخر . وقد أطلق على هذين المعسكرين « ميزان القوة » وكان فى الواقع ميزانا دقيقا حساسا جدا تكاد أى دفعة أو هبة أن تطوح به .

فاليابان على بعد ما بينها وبين أوروبا ، وعلى عدم اهتمامها الكثير بمشاكل أوروبا المحلية ، كانت طرفا فى أحد حلفيها أو فى ميزان القوة هذا . كانت اليابان حليفة انجلترا ، وقد قصد بهذا الحلف أن ترعى اليابان المصالح الانجليزية فى الشرق وبخاصة فى الهند . ويرجع هذا التحالف الانجليزى اليابانى الى أيام المنافسة بين روسيا وانجلترا ، وقد استمر هذا التحالف ، على الرغم من انضمام روسيا الى معسكر انجلترا . وكانت أمريكا هى الدولة الكبرى الوحيدة التى ظلت بمعزل عن نظام الأتحلاف الأوروبية وموازين قوتها .

هكذا كانت الأحوال عام ١٩١٤ . ولعلك تذكرين أن انجلترا فى هذا الوقت كانت تواجه متاعب كثيرة فى ايرلندة بسبب الحكم الداخلى فيها . فالستر Ulster كانت ثائرة ، والمتطوعون من أبنائها كانوا يتدربون على القتال فى الشمال والجنوب ، وكان هناك كلام عن حرب أهلية فى ايرلندة .

ومن المحتمل جدا أن الحكومة الألمانية قدرت أن الاضطراب الارلندى قد يشغل انجلترا فلا تتدخل اذا نشبت حرب أوروبية . ولكن الحكومة الانجليزية كانت ، فى الواقع ، قد التزمت سرا بالانضمام الى فرنسا فى حالة الحرب ، ولكن هذا الالتزام لم يكن أمرا معروفا .

وفى يوم ٢٨ يونية عام ١٩١٤ انطلقت الشرارة التى أشعلت نيران الحرب . فى هذا اليوم ذهب الأرشيدوق فرانسيس فردناند وارث عرش النمسا لزيارة « سيرا جيفو » Serajevo عاصمة البوسنة فى

البلقان • وكما أخبرتك من قبل ، كانت النمسا قد ضمت البوسنة الى امبراطوريتها قبل هذه الزيارة بسنوات قليلة ، وعندما كان الأتراك الذين تتألف منهم حركة « تركيا الفتاة » يحاولون التخلص من سلطانهم •

فبينما كان الأرشيدوق وزوجته يطوفان فى شوارع « سيراغيفو » فى عربة مكشوفة اغتالهما مجهول بإطلاق الرصاص عليهما •

لقد ثارت النمسا حكومة وشعبا لهذا الحادث ، واتهمت حكومة الصرب ، والصرب جارة البوسنة ، بالاشتراك فى هذه الجريمة ، ولكن حكومة الصرب بطبيعة الحال أنكرت ما نسب اليها •

وقد دلت التحريات والتحقيقات بعد وقوع الحادث بوقت طويل على أن حكومة الصرب ، ولو أنها غير مسئولة عن الحادث ، لم تكن جاهلة كل الجمل بالمؤامرات التى كانت تبث لارتكابه • فالمسئولية عن هذا الاغتيال يجب أن يقع الجزء الأكبر منها على عاتق منظمة « اليد السوداء » الصربية •

أما حكومة النمسا فقد وقفت موقفا عدائيا جدا ازاء الصرب ، وهى فى ذلك كانت مدفوعة بباعث الغضب الى حد ما ، وبباعث السياسة الى حد كبير • لهذا قررت أن تذلل الصرب اذلالا لا قيامة لها من بعده ، معتمدة فى ذلك على مساعدة المانيا القوية فى حالة نشوب حرب على صعيد أوسع • ومن ثم لم تقبل النمسا الاعتذارات الصربية ، وفى يوم ٢٣ يولية ١٩١٤ أرسلت انذارا نهائيا الى الصرب • وبعد هذا الانذار بخمسة أيام ، وعلى التحديد يوم ٢٨ يولية ، أعلنت النمسا الحرب على الصرب •

فى هذا الوقت ، كانت مقاليد السياسة النمساوية فى يد وزير
مغرور أحمق منطو على الحرب • وقد استميل الامبراطور المعمر
فرانسيس جوزيف الذى تبوأ عرش النمسا منذ عام ١٨٤٨ للموافقة
على الحرب ، كما فسر شبه وعده من المانيا على أنه تأكيد تام
بالمساعدة •

ومن المحتمل جدا أن لا أحد غير النمسا من الدول العظمى كان
راغبا فى الحرب وقتئذ • فألمانيا مع كل استعدادها وولعها بالقتال
لم تكن متلهفة على الحرب ، وقد حاول حتى القيصر ولهيلم الثانى الى
حد ما أن يمنع وقوعها • وكانت انجلترا وفرنسا غير متلهفتين
عليها • وكانت الحكومة الروسية تعنى القيصر ، وهو شخص أحمق
ضعيف تحيط به بطانة اختارها من الحمقى والمرائين والمحتالين
والمخادعين ، توجهه حسبما تريد ، وتؤرجحه هنا وهناك •

ومع هذا فكان معلقا فى يدي هذا الرجل مصير ملايين من الناس •
لقد كان هو نفسه معارضا للحرب غير ميسال للدخول فيها ، ولكن
مستشاريه خوفوه من نتائج التردد والتأخير وما زالوا به حتى وافق
على تعبئة الجيش • وقد عنت هذه « التعبئة » استدعاء الجنود للخدمة
العامة ، وكان طبيعيا أن تستغرق هذه العملية وقتا فى قطر شاسع
الأطراف كروسيا •

وربما كان الخوف من هجوم المانى هو ما عجل بعملية التعبئة
الروسية • وقد انزعجت المانيا لأنباء هذه التعبئة التى بدأت فى
٣٠ يولية ، ولهذا طالبت روسيا بضرورة ايقافها ، ولكن ما كان
يمكن وقتئذ ايقاف آلة الحرب الضخمة •

وفى اليوم الاول من شهر أغسطس عبأت المانيا قواها وأعلنت
الحرب على كل من روسيا وفرنسا ، وبدأت فى الحال جيوش المانية

تغزو بلجيكا لتنفذ منها الى فرنسا لسهولة هذا الطريق .

ومما لاشك فيه أن بلجيكا المسكينة لم تصب ألمانيا بأي ضرر أو أذى ، ولكن الشعوب عندما تحارب من أجل الحياة والموت لا تبالي بالعهود والوعود .

لقد طلبت الحكومة الألمانية من بلجيكا أن تصرح لجيوشها بالمرور عبر أراضيها ، ولكن بلجيكا بطبيعة الحال رفضت الاستجابة الى طلب ألمانيا في غيظ وغضب .

وقد قامت ضجة كبرى في إنجلترا وغيرها بسبب الاعتداء على حياد بلجيكا ، واتخذت إنجلترا من هذا تكأة لإعلان الحرب ضد ألمانيا . وفي الواقع ان اختيار إنجلترا كان قد تم منذ وقت طويل ، أما موضوع بلجيكا فقد جاء كعذر مناسب .

ويبدو الآن أن الجيش الفرنسي أيضا كان قد أعد خططا في سنوات ما قبل الحرب لارسال جيوش فرنسية عبر بلجيكا لمهاجمة ألمانيا اذا ما استدعى الأمر ذلك .

على أية حال لقد حاولت إنجلترا أن تصطنع موقف المدافع عن الحقيقة والحق ، وموقف الحامي للشعوب الصغيرة من شر ألمانيا التي قيل انها تقضت وعودها ومعاهداتها واعتبرتها « قصاصات من الورق »

وفي منتصف ليلة اليوم الرابع من شهر أغسطس أعلنت إنجلترا الحرب ضد ألمانيا ، ولكنها كانت قد احتاطت فأرسلت سرا حملة من جيوشها عبر القنال الانجليزي قبل اعلان الحرب بيوم واحد لتتفادى وقوع أي كارثة . وعلى هذا فبينما كان العالم يفكر فيما اذا كانت

انجلترا ستدخل الحرب ، أو لا تدخل ، كانت فرق من جيشها قد احتلت مواقعها على القارة الأوروبية .

وهكذا نرى النمسا ، وروسيا ، وفرنسا ، وانجلترا قد اشتبكت فى الحرب ، كما اشتبكت فيها أيضا الصرب ، هذه الدولة الصغرى التى كانت الى حد ما السبب المباشر لهذا الانفجار .

ولكن ماذا كان موقف ايطاليا ، حليفة النمسا والمسانيا ؟ لقد وقفت ايطاليا بمعزل . وأخذت ايطاليا ترقب لترى مع أى جانب تكون المنفعة . وساوحت ايطاليا . وأخيرا ، وبعد ستة أشهر من بدء الحرب ، انضمت ايطاليا نهائيا الى معسكر فرنسا وانجلترا وروسيا ضد حليفتيها القديمتين .

وهكذا شهدت الأيام الأولى من شهر أغسطس عام ١٩١٤ تجمع جيوش أوروبا وزحفها . وماذا كانت هذه الجيوش ؟ كانت الجيوش فى العصور القديمة تتألف من عدد من الجنود المحترفين ، وكانت جيوشا دائمة . ولكن الثورة الفرنسية ، على أية حال ، أحدثت تغييرا كبيرا . فعندما كانت الثورة فى خطر من هجوم أجنبى ، كان يدعى المواطنون العاديون ويدربون فى أعداد كبيرة .

ومنذ ذلك التاريخ فضاعدا ظهر فى أوروبا اتجاه يرمى الى أن يحل محل الجيوش المتطوعة المحترفة القليلة العدد ، جيوش أخرى تتألف من كل ذى جسم صحيح قوى فى القطر ، وهؤلاء تفرض عليهم الخدمة العسكرية اجباريا بحكم القانون . وعلى هذا فنظام الخدمة العسكرية الشائع اليوم ، والذي يعتمد على ذوى الأجسام القوية السليمة هو ربيب الثورة الفرنسية .

وقد انتشر هذا النظام العسكرى فى أوربا ، حيث كان على كل شاب أن يتلقى تدريباً عسكرياً لسنتين أو أكثر فى معسكر ما ، وأن يقوم بواجب الخدمة العسكرية عندما يدعى إليها . وعلى هذا فأى جيش أثناء الحرب يعنى فى الغالب كل شباب الشعب .

وكان هذا النظام معمولاً به فى فرنسا والمانيا والنمسا وروسيا ، والتعبئة فى هذه الأقطار تعنى استدعاء كل الرجال الشبان القادرين على حمل السلاح من بيوتهم فى المدن والقرى البعيدة .

ولم يكن فى انجلترا خدمة عسكرية عامة من هذا النوع عندما نشبت الحرب . ولاعتمادها على أسطولها البحرى القوى ، كان لديها جيش صغير نسبياً من المتطوعين الدائمين . بيد أنها اضطرت أثناء الحرب الى أن تجارى الدول الأخرى ، وتدخل على جيوشها نظام الخدمة العسكرية الاجبارية .

ونتيجة لهذه الخدمة العسكرية العامة كان الشعب كله مجنداً . وقد تأثرت بقوانين التعبئة العامة كل مدينة ، وكل قرية ، وكل أسرة . وفى الجزء الأكبر من أوربا توقفت الحياة فجأة فى الأيام الأولى من شهر أغسطس ، وهجر الرجال القادرون ملايين البيوت الى غير عودة . وكان فى كل مكان تحرك ، ووقع أقدام ، وهتافات للجنود ، ومظاهر من الحماسة الوطنية . وشد لأوتار القلوب وخفة روح ، ذلك لأن أهوال السنين القادمة وفظائعها ما كانت لتدرك على حقيقتها وقتئذ .

فهذه الوطنية الحادة الجارفة اكتسحت كل شخص أمامها . فالاشتراكيون الذين كانوا ينادون بمبدأ المصالح المشتركة بين الشعوب ، والمركسيون الذين دعوا عمال العالم للاتحاد ضد الرأسمالية عدوهم المشترك . كل هؤلاء انضموا كوطنيين متحمسين

الى هذه الحرب التي شنها الرأسماليون • وبعض هؤلاء ظلوا فى موقفهم ، ولكنهم كانوا يحقرون ويلعنون وكثيرا ما عوقبوا • وكثير من الناس ذهب بعقولهم الحق على العدو •

وبينما يقتل العمال الانجليز والالمان بعضهم بعضا ، كان المثقفون والعلماء ومفكرو هاتين الدولتين • وأمثالهم من أبناء الدول المتحاربة يلعن بعضهم بعضا ، ويصدق كل منهم أبشع القصص عن الآخر •

وهكذا انتهى بظهور الحرب دور القرن التاسع عشر ، وابتلعت فجأة دوامة الحرب نهر المدنية الغربية ، هذا النهر الفيض الهادئ العظيم • لقد انتهت الدنيا القديمة الى الأبد ، ثم تكشف هذه الدوامة عن شئ جديد بعد حرب عالمية دامت أكثر من أربع سنوات •

١٤٨ — حرب ١٩١٤ - ١٩١٨

٣١ مارس ١٩٣٣

ماذا أكتب اليك عن هذه الحرب ؟ ماذا أكتب اليك عن الحرب العالمية ، أو الحرب العظمى ، كما يسمونها ؟ ماذا أكتب اليك عن تلك الحرب التى دامت أكثر من أربع سنوات منيت فيها أوروبا وبعض بقاع آسيا وافريقية بالخراب والدمار ، وراح ضحيتها ملايين من الرجال فى ريعان شبابهم ؟

ان الحرب ليست موضوعا سارا شائقا يتملاه الانسان ويفكر فيه . انها شئ قبيح كريه ، ولكن كثيرا ما نجد من يمجدها ، ويصورها بألوان براقة خلابة .

ويقال : كما أن النار تصهر المعادن الكريمة وتطهرها وتنقيها من الشوائب ، كذلك الحرب تصهر وتقوى الشعوب الخائرة الكسلانة ، الشعوب التى ران عليها الفساد والرخاوة لكثرة ما هى عليه من ترف وبذخ وحب للحياة . وهناك من يعددون أمثلة من صور الشجاعة الفائقة والتضحيات المؤثرة التى تجلت عنها الحروب ، كأنما الحرب هى أصل هذه الفضائل .

لقد حاولت أن نتجربى معا بغض أسباب هذه الحرب : حاولت أن

نتحرى كيف أن جشع بعض الاقطار الصناعية الرأسمالية، ومنافسات الدول العظمى الاستعمارية اصطدم بعضها ببعض وجعل الحرب أمرا لا مفر منه . حاولنا أن نتحرى كيف أراد زعماء الصناعة فى كل هذه الاقطار فرصا أكثر ومناطق أوسع للاستغلال ، وكيف أراد رجال المال أن يضاعفوا من ثرائهم وغناهم ، وكيف أراد صناع الاسلحة أرباحا فوق أرباح .

من أجل ذلك كله انغمس هؤلاء الناس فى الحرب ، وبأمرهم وأمر السياسيين الكبار الذين يمثلونهم ويمثلون طبقتهم هب شباب الشعوب يمسك بعضهم برقاب بعض .

على أن الغالبية العظمى من هؤلاء الشباب ومن العامة فى الدول المتحاربة لم تعرف شيئا عن هذه الأسباب التى أدت الى الحرب . ولم يكن يهمهم فى الحقيقة معرفة الأسباب ، وسواء انتهت الحرب بالنصر أو الهزيمة فانهم الخاسرون على كلتا الحالين .

لقد كانت الحرب لعبة الرجل الغنى ، ولم يلعبها بنفسه وانما لعبها بأرواح العامة من الناس ولاسيما الشبان منهم . وما كان يمكن لأى حرب أن تقوم اذا لم يعد عامة الناس ويهيأوا لخوضها .

وكما أخبرتك ، كان فى جميع الاقطار الأوروبية خدمة عسكرية اجبارية ، وفى انجلترا جاء ذلك متأخرا بعد قيام الحرب . ولكن لايسطيع حتى الاجبار أن يكره الناس على أمر كهذا اذا كانوا فى جملتهم غير مريدين له ، ولهذا بذلت جهود جبارة فى جميع الدول المتحاربة لالهاب جماسة الجماهير واذكاء حبهم للوطن . وأخذ كلا الجانبين المتحاربين ينعت الآخر بأنه « المعتدى » ويدعى بأنه ، اذ يحارب ، انما يحارب دفاعا عن النفس فقط .

فألمانيا زعمت أنها مطوقة بطوق من الأعداء يحاولون خنقها .
واتهمت فرنسا وروسيا بالمبادأة بغزوها .

وانجلترا ادعت أنها دخلت الحرب للدفاع العادل عن بلجيكا
الصغيرة التي اعتدت ألمانيا اعتداء صارخا على حيادها . وهكذا وقفت
كل دولة من الدول المشتبكة في الحرب موقفا عادلا في نظر نفسها
وألقت باللائمة على عدوها .

وقد حاول الساسة في كل دولة أن يبلغوا بشعوبهم الى الاعتقاد
بأن حريتهم في خطر ، وأن عليهم أن يحاربوا دفاعا عن هذه الحرية .
كذلك لعبت الصحافة دورا كبيرا في خلق جو الحرب هذا في كل
مكان ، وهذا بدوره ولد الحقد المرير في نفوس أبناء كل دولة على
أعدائها .

وكانت موجة الجنون هذه قوية غاية القوة ، حتى لقد اكتسحت
كل شيء أمامها . ولم يكن سهلا عليها أن تستثير الانفعالات الجماهير
فحسب ، وانما استثارت أيضا ذوى الطباع الهادئة رجالا ونساء من
الكتاب والمفكرين والعلماء والأساتذة في كل الاقطار المتحاربة
وملاّتهم بشهوة الدم وبالحقد على شعوب الأعداء .

وكان رجال الدين الذين يفترض فيهم أنهم رجال سلام أشد من
غيرهم تعطشا الى الدماء . حتى أعداء الحروب والاشتراكيون فقدوا
عقولهم ونسوا مبادئهم . لقد فقدوا عقولهم ، ولكن ليس كلهم تماما ،
فقد كان هناك قلة قليلة من الناس في كل قطر أبوا أن يجنوا وأن
يسمحوا لأنفسهم بأن يصابوا بحمى الحرب هذه . لقد كانوا غرضا
للهزء والسخرية ، وكانوا يسمون بالجبناء ، وكثيرون منهم زج بهم
في السجون لرفضهم أداء أى خدمة حربية . وبعض هؤلاء كانوا
اشتراكيين ، وبعضهم كانوا رجال دين ، كجماعة « الكويكرز »

Quakers الذين تأبى ضمائرهم اجازة الحرب • وصدق من قال :
أن الحرب عند ما تندلع نيرانها يصاب جميع المشتبكين فيها بالجنون •

وقد اتخذت حكومات الدول المختلفة من اعلان الحرب تكأة لمنع
الحقائق عن شعوبها ، ولنشر كل أنواع الاكاذيب ، وللحجر على
حريات الافراد الشخصية • أما الجانب الآخر فقد كان ، بطبيعة
الحال ، مجهولا تماما ، فالناس ما كان يسمح لهم أن يعرفوا من
القضية الا جانبا واحدا ، مشوها مكذوبا الى حد كبير • وعلى الاجمال
لم يكن من الصعب استغلال الناس على هذا النحو •

وقد خدعت الناس حتى في زمن السلم أكاذيب الصحافة والدعاية
القومية الضيقة الأفق ، وهيأت أذهانهم للحرب •

كذلك مجدت الحرب • ففي ألمانيا ، أو على الأصح في بروسيا ،
أصبح تمجيد الحرب هذا هو الفلسفة المقررة للحكام من القيصر
فما دونه • وليس هذا فحسب ، وإنما ألقت كتب لتبرير الحرب
والبرهنة على أنها « ضرورة بيولوجية » بمعنى أنها ضرورية للحياة
الانسانية والتقدم •

وكثيرا ما سلطت أضواء الدعاية المغرضة على قيصر ألمانيا لما كان
يند عنه من أقوال وأفكار فجأة تدل على الصلف والتعاطف ، ولكن
أفكارا مماثلة لأفكار القيصر كانت تسمود الدوائر العسكرية والطبقة
العليا في إنجلترا وغيرها من الأقطار •

والكاتب الانجليزى « رسكين » Ruskin يعد من كبار الكتاب
الذين ظهروا في القرن التاسع عشر • وهو أحد المؤلفين الذين يفضلهم
غاندى • وربما تكونين قد قرأت بعض كتبه • وقد قال هذا الرجل
النبيل العقل بلا شك في أحد كتبه :

« لقد تبين لى على وجه الاجمال ، أن كل الشعوب الكبرى قد وعوا
ما فى كلماتهم من صدق ، وما فى أفكارهم من قوة ابان الحرب ،
وضيعوا ذلك فى وقت السلم ، وأن ما علمتهم الحرب اياه سلبه خداع
السلم منهم ، وأن ما اكتسبوه من مران بالحرب قد خانهم السلم
فيه . وفى كلمة واحدة لقد ولدوا فى الحرب وقضوا نحبهم فى
السلم » .

ولكى أريك مدى صراحة « رسكين » الاستعمارى أقتبس لك هنا
نبذة أخرى من كلامه ، قال :

« ذلك ما يجب على انجلترا أن تفعله أو يقضى عليها . يجب أن
تبني مستعمرات لنفسها . . يجب أن تغتصب كل قطعة من الأرض
مثمرة تستطيع أن تضع قدمها عليها . . وهناك يجب أن تعلم
المستعمرين من أبنائها أن هدفهم الأول هو فى أن يعلوا سلطان
انجلترا على الأرض وفوق البحار . . »

ودعيني أقتبس لك هنا أيضا نبذة من كتاب ألفه ضابط فى الجيش
الانجليزى . ففى هذا الكتاب يرى مؤلفه أن الانتصار فى الحرب
يكاد يكون مستحيلا « الا بالكذب المتعمد وباستخدام الكذب والتلفيق »
. . وبناء على رأيه ان أى مواطن « يرفض أن يعمل هذا . . انما يقوم
متعمدا بدور الخائن لرفقائه ومرءوسيه ، وأقل ما يمكن أن ينعت به
هو أنه أكثر الجبناء الحقراء جبنا واحتقارا » . ثم يقول : « وما قيمة
الأخلاق أو عدم الأخلاق بالنسبة للشعوب الكبيرة اذا كان مصيرها
معرضا للخطر ؟ ان أى شعب يجب أن يضرب ويضرب حتى يتلقى
خصمه الضربة القاضية على حياته » .

لست أدري ماذا كان يقول « رسكين » اذا سمع أو قرأ كل هذا ؟
لا تظنى أن هذا ، طبعا ، أنموذج عادل للعقل الانجليزى . ولا تظنى

أيضا أن أقوال القيصر الطنانة الجوفاء تمثل الالماني العاى . ولكن الكارثة هى أن الناس الذين يفكرون كثيرا ما تكون فى أيديهم مقاليد الحكم ، وهؤلاء يكادون يتقدمون دائما الصفوف فى أوقات الحرب .

ومثل هذه التصريحات والاعترافات الصريحة ليست فى العادة مما يقال علنا جهارا ، لأن السياسة يحاولون دائما أن يخلعوا على الحرب رداء القداسة .

وعلى هذا ، فبينما تشتعل نار مذبحة هائلة وقودها الرجال والنساء والأطفال ، على جبهة قتال مساحتها مئات الأميال فى أوربا وغيرها ، كان الزعماء والسياسة يصطنعون فى الداخل عبارات بليغة رنانة لتبرير القتل وتضليل الشعوب .

كان الناس يسمعون مثل هذه العبارات :

انها حرب من أجل الحرية والشرف . .

انها الحرب التى تنهى الحرب . .

انها الحرب التى تنقذ الديمقراطية . .

انها حرب تقرير المصير . .

انها حرب من أجل حرية الشعوب الصغيرة . . الخ

والغريب أن كثيرين من رجال المال والصناعة والأسلحة ممن جلسوا آمنين فى بيوتهم يرددون هذه العبارات اغراء للرجال على الالتقاء بأنفسهم فى أتون الحرب ، كانوا قد حققوا لأنفسهم هم أرباحا طائلة ، وصاروا من أرباب الملايين .

وقد حاول كلا المعسكرين المتحاربين أن يضم الى جانبه دولا محايدة

برشوتها سرا • ولو أن عروض الرشوة هذه قدمت علنا لقضت على المثل العليا والعبارات البليغة التي كانت تتردد من أعلى الأماكن •

وكانت قدرة انجلترا وفرنسا على استخدام الرشوة أكثر من قدرة المانيا ، ولهذا فمعظم الدول المحايدة التي استدرجت الى الحرب بالرشوة انضمت الى جانب انجلترا وفرنسا وروسيا •

فحلف انجلترا استطاع أن يضم اليه ايطاليا حليفة المانيا القديمة بعقد معاهدة سرية معها وعدت فيها ايطاليا ببقاع في آسيا الصغرى وفي جهات أخرى ، كذلك عقدت معاهدة سرية أخرى مع روسيا وعدت فيها بالاستيلاء على القسطنطينية • ولا شك أن تقسيم العالم فيما بينهم على هذا النحو كان عملا سارا لهم !

والعجيب أن هذه المعاهدات السرية كانت تتعارض تمام المعارضة مع التصريحات التي كان يدلى بها علانية زعماء الحلفاء وساستهم • ولو لم ينشر بلاشفة الروس هذه المعاهدات بعد توليهم مقاليد الحكم في روسيا ، لما كان من الممكن لأحد أن يعرف شيئا عن أمر هذه المعاهدات •

وقد انتهى الأمر الى أن يكون هناك اثنتا عشرة دولة أو أكثر تحارب على جانب الحلفاء • وعلى سبيل الاختصار دعينا نطلق منذ الآن على المعسكر الانجليزى الفرنسى اسم « الحلفاء » •

وهذه الدول هي : بريطانيا وامبراطوريتها ، وفرنسا ، وروسيا ، وايطاليا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وبلجيكا ، والصرب ، واليابان ، والصين ، ورومانيا ، واليونان ، والبرتغال • وربما كان هناك دولة أو دولتان أخريان لا أذكر اسمهما الآن •

وعلى الجانب الألماني كان هناك المانيا ، والنمسا ، وتركيا ،
وبلغاريا .

وقد دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فى سنتها الثالثة .
فاذا استثنينا الولايات المتحدة مؤقتا ، كان من الواضح أن موارد
الحلفاء أكثر بكثير من موارد الجانب الألماني ، فالحلفاء كانوا أكثر
رجالا ، وأكثر مالا ، وكانت مصانع أسلحتهم وذخيرتهم أكثر عددا .
وفوق كل هذا كان لهم السيادة على البحار ، وهذا بدوره يسر لهم
فرص الاستفادة من موارد العالم المحايد .

لهذا كان فى استطاعة الحلفاء أن يحصلوا على الأسلحة أو المواد
الغذائية ، وأن يقترضوا من أمريكا ، بفضل سيادتهم البحرية .

أما المانيا وحلفاؤها فقد أطبق عليهم الأعداء وطوقوهم . وكان
حلفاء المانيا شعوبا ضعيفة ، ومن ثم كانت مساعدتهم لها مساعدة
ضئيلة لا تكاد تذكر . وكثيرا ما كانوا عبثا ثقيلا عليها ، وبدل أن
يضيفوا الى قوتها قوة كانت تشدهى من أزرهم وتعينهم .

من ذلك نرى أن المانيا كانت تقف وحدها تقريبا فى الميدان ضد
معظم شعوب العالم . ومع أن هذا الصراع يبدو من جميع وجهات
النظر صراعا غير متكافىء ، فإن المانيا وقفت أمام العالم أربع سنوات
وكادت أكثر من مرة أن تنتصر .

لقد كان ذلك مجهودا عجيبا بالنسبة لشعب واحد ، ولكن الفضل
فى صمود المانيا كل هذا الصمود يرجع الى ما بنته لنفسها من قوة
عسكرية هائلة . حتى عندما هزمت المانيا هى وحلفاؤها نهائيا كان
الجيش الألماني لا يزال سليما ، وكانت معظم وحداته لا تزال محتلة
مواقعها فى أقطار أجنبية .

أما على جانب الحلفاء فقد وقع عبء الحرب على الجيش الفرنسى •
والفرنسيون هم الذين وقفوا أمام قوة المانيا العسكرية على حساب
تضحيات جسيمة هائلة فى الشباب ، وقد تمثلت مساهمة انجلترا
فى أسطولها وقوتها البحرية ، وفى سياستها ودعايتها •

أما المانيا المعجبة المدلة بجيشها فكانت سياستها مع الدول
المحايدة وأساليب دعايتها بينهم أبعد ما تكون عن الحق والمهارة •

ولا شك أن انجلترا هى الدولة الوحيدة التى حازت قصب السبق
من بين جميع الدول فى احكام دعاية الكذب وتشويه الحقائق أثناء
الحرب •

وكان دور روسيا وايطاليا وغيرهما من دول الحلفاء الأخرى فى
الحرب لا يعدو دورا صغيرا نسبيا • ومع ذلك فربما كانت خسائر
روسيا فى الحرب أكثر من خسائر أى دولة أخرى •

أما الولايات المتحدة الأمريكية التى دخلت الحرب قرب نهايتها
فقد قامت بالدور النهائى الفاصل فى تحطيم المانيا •

وفى الأشهر الأولى من بدء الحرب حدث توتر شديد فى العلاقات
بين انجلترا وأمريكا لدرجة كان يخشى معها من وقوع حرب بينهما •
وقد نجم هذا الخلاف بسبب تدخل انجلترا فى سفن أمريكا بحجة
الاشتباه فى أنها تحمل سلعاً وبضائع الى المانيا • ولكن سرعان
ما نشطت أجهزة الدعاية البريطانية ، وبذلت جهوداً جبارة لافى
تخفيف حدة التوتر القائم بين البلدين فحسب ، بل فى كسب أمريكا
أيضاً الى صفوف الحلفاء •

وكان أول ما عمل فى هذا السبيل هو حملة دعاية معادية للتشهير

بألمانيا ، ونشر قصص فظيعة عما كان يفعله الجيش الألماني المتوحش
فى بلجيكا .

وبعض هذه القصص كان له نصيب من الصحة ، كقصة تخريب
مكتبة وجامعة « لوفان » ، ولكن معظم هذه القصص لم تخرج عن كونها
مجرد اختراعات وتلفيقات . وكانت هناك قصة غريبة عن مصنع
للجثث قيل ان الالمان كانوا يديرونه ! ومع ذلك فقد بلغ حقد
الشعوب المتعادية بعضها على بعض حدا جعلهم على استعداد لتصديق
كل ما يقال عن أعدائهم .

وتستطيعين أن تكونى فكرة عن مدى ضخامة الدعاية البريطانية
عندما أخبرك أن بعثة الحرب الى أمريكا تألفت من خمسمائة من
الموظفين الرسميين ، وعشرة آلاف مساعد ! وبجانب هذا قام آخرون
بضروب من النشاط غير رسمية . وقد استخدمت كل الوسائل ،
شريفة أو غير شريفة ، فى هذه الدعاية . وفى استكهلم عاصمة
السويد افتتح البريطانيون رسميا صالة رقص للترفيه كى يظفروا
بعطف السويديين !

وقد نجحت هذه الدعاية ، كما نجح نشاط الغواصات الألمانية
فى استمالة أمريكا الى جانب الحلفاء . ولكن العامل الفاصل فى النهاية
كان هو المال .

ان الحرب تكاليفها باهظة . . باهظة جدا . فهى تبتلع جبالا من
المواد الغالية الثمينة ، ولا تعطى شيئا فى مقابل ذلك غير الخراب
والدمار . وهى تعطل ضروب النشاط التى تنتج الغنى والثراء
والرخاء ، كما تركز جهود الناس على التدمير والابادة والافناء .

فمن أين كان يأتى كل هذا المال ؟

إذا نظرنا الى جانب الحلفاء نرى دولتين غنيتين ، هما انجلترا وفرنسا . فهاتان لم تدفعا حصتهما فى تكاليف الحرب فقط ، وانما عاونتا حلفاءهما أيضا باقراضهم المال والعتاد .

على أن موارد فرنسا المالية لم تمكنها من المضى فى تحمل أعباء الحرب ونفقاتها . ولهذا مولت لندن وحدها الجانب الحربى للحلفاء ، ولكن لم تكد السنة الثانية من الحرب تنتهى حتى وجدت انجلترا نفسها فى نفس المأزق . وقبل نهاية عام ١٩١٦ كانت الموارد المالية لكل من انجلترا وفرنسا قد نضبت واستنزفت .

عندئذ سافرت الى أمريكا بعثة انجليزية من بعض كبار الساسة الانجليز لتلتمس العون المالى . وقد وافقت أمريكا على اقراض المال ، وبذلك أخذت أمريكا على عاتقها عبء تمويل الحرب معونة منها للحلفاء .

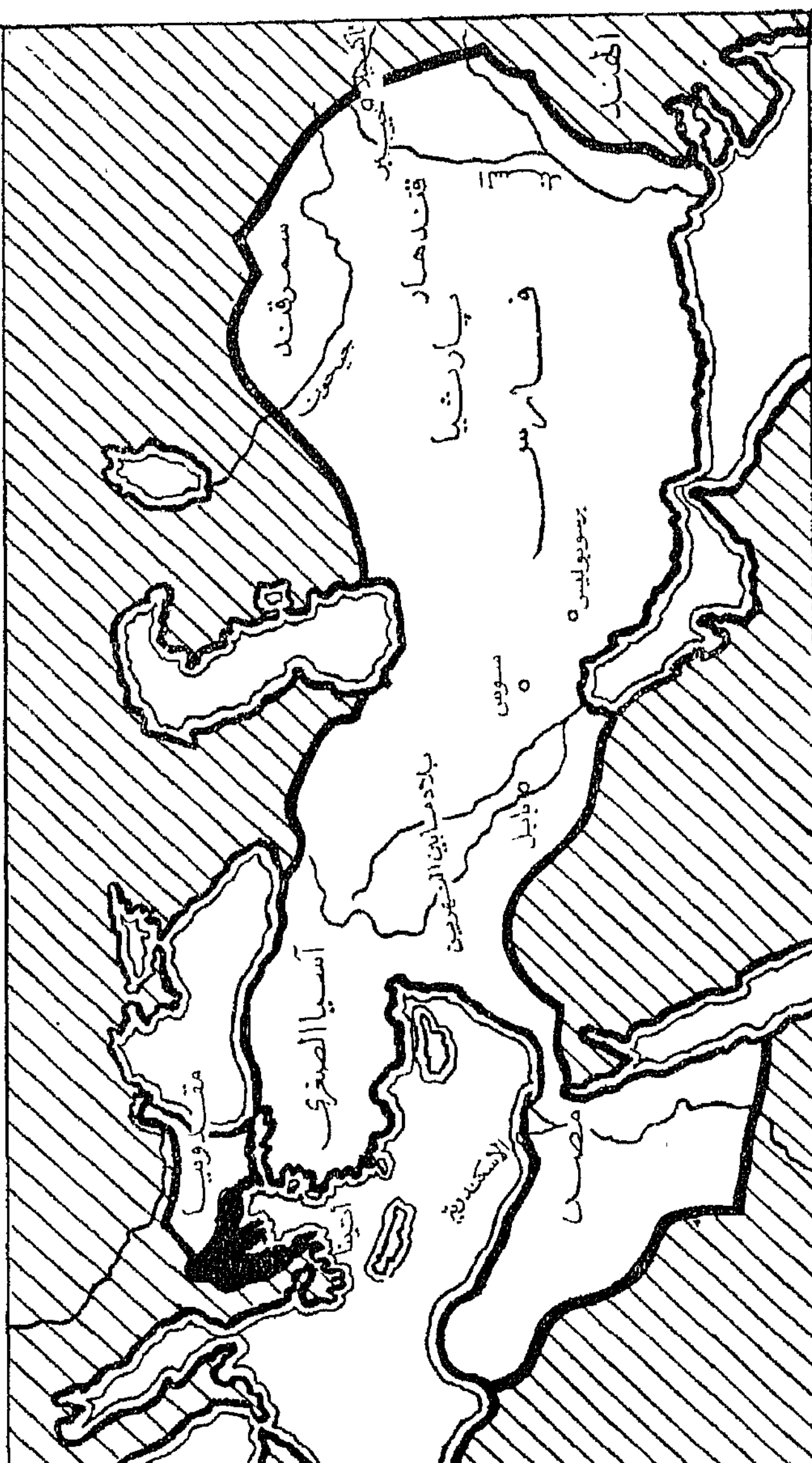
وقد بلغت ديون الحلفاء لأمريكا أرقاما هائلة ، وأخذت هذه الديون تتضاعف على مر الأيام ، وكان ذلك سببا فى أن المصارف الكبرى ورجال المال فى أمريكا ممن أقرضوا الحلفاء أخذوا يهتمون بأمر انتصار الحلفاء . وكان طبيعيا أن يظهر هذا الاهتمام منهم ، اذ ماذا كان يكون مصير الأموال الطائلة التى أقرضتها أمريكا للحلفاء اذا هزمتهم المانيا ؟ ان جيوب رجال المصارف الأمريكية كانت قد تأثرت ، ولهذا أخذ اهتمامهم بالحرب يزداد صيانة لمصالحهم . ومن أجل هذه المصالح نشطت الدعاية التى تحبذ انضمام أمريكا الى الحلفاء حتى دخلت أمريكا الحرب فى النهاية .

ونحن نسمع الآن كثيرا عن موضوع الدين الذى لأمريكا لدى الحلفاء ، والصحف مليئة بأخباره . فهذا الدين المعلق حول رقبتى

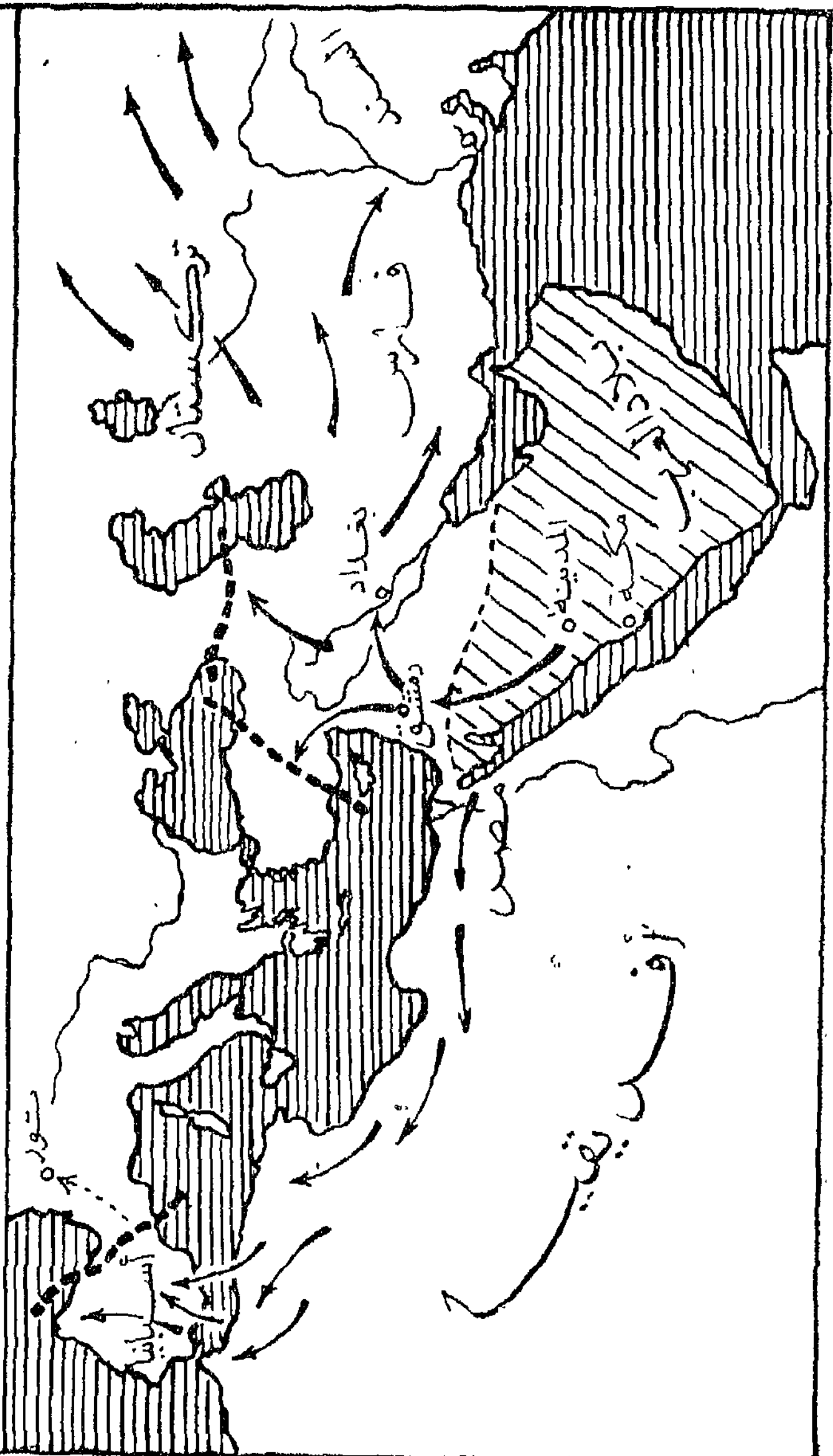
انجلترا وفرنسا كحجر الطاحون ، والذي لاتستطيعان دفعه وأداءه ،
قد تراكم عليهما في أيام الحرب .

فلو لم تظهر هذه الأموال الأمريكية وتخف لنجدة انجلترا
وفرنسا ابان الحرب ، لكان من المحقق أن تنهار مالية هاتين الدولتين
انهيارا تاما . ومن يدري فلعل أمريكا وقتئذ كانت لم تدخل الحرب ،
ولم تنضم الى الحلفاء .

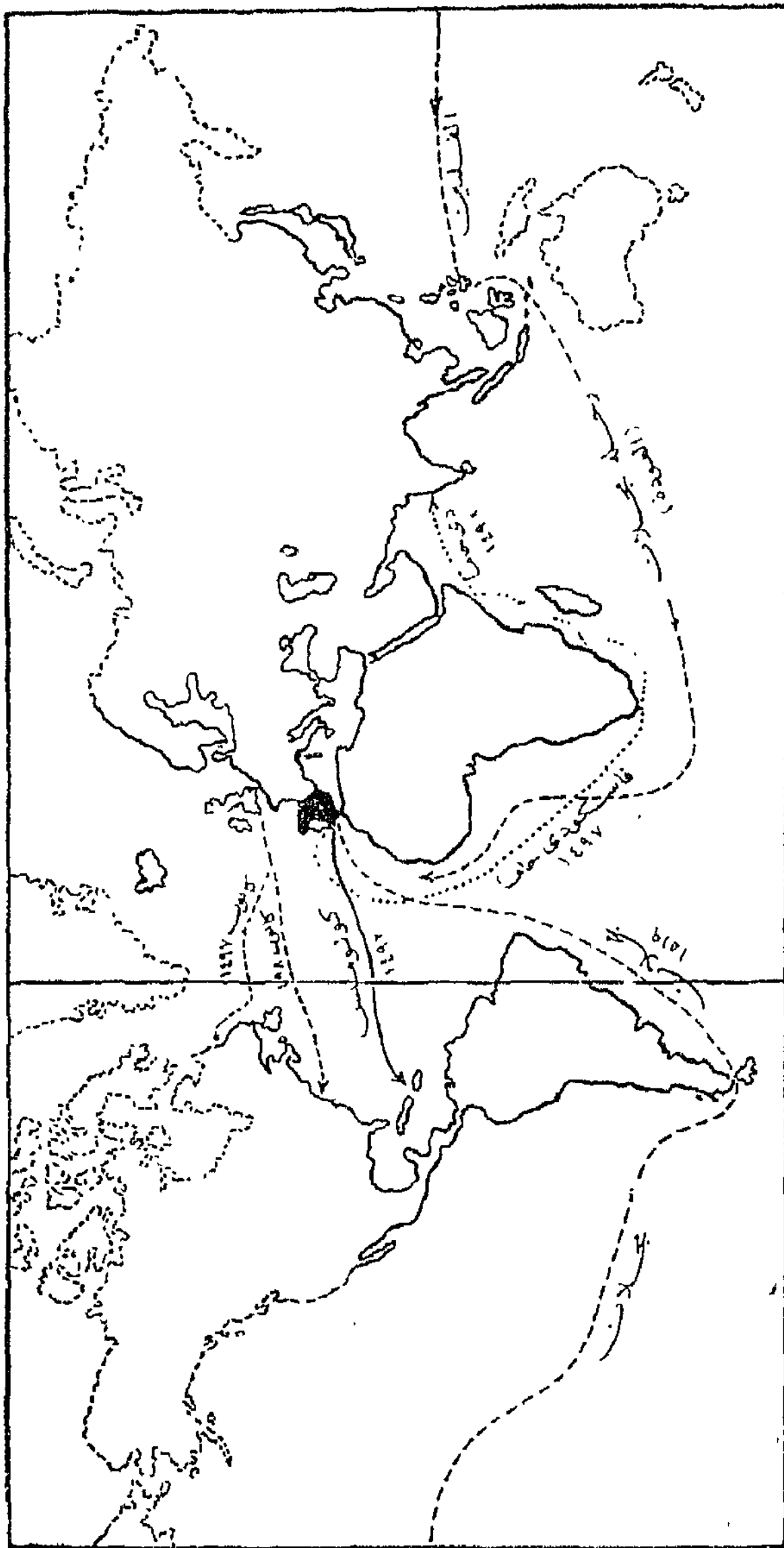
استباحتها



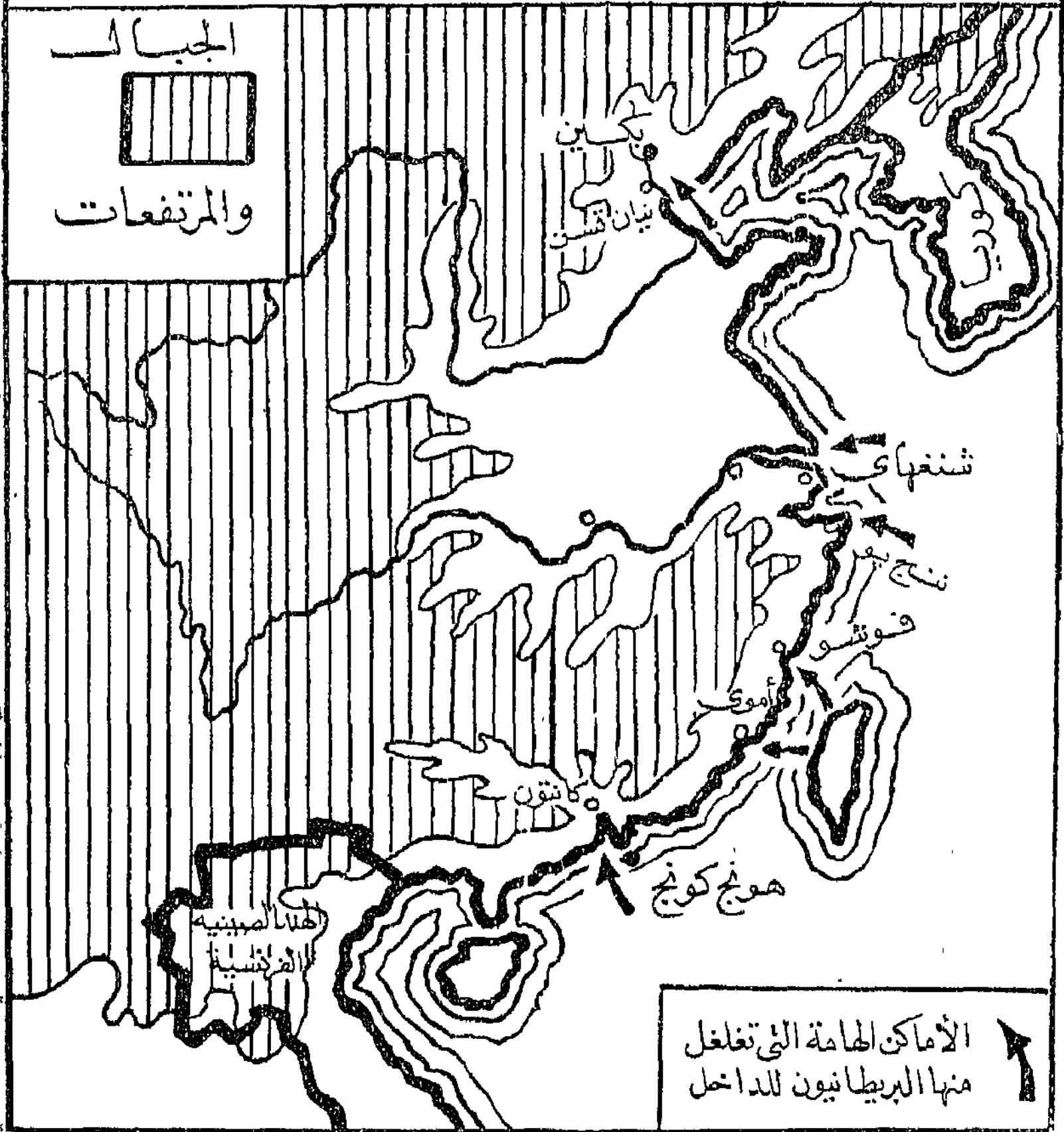
فوق العاصم



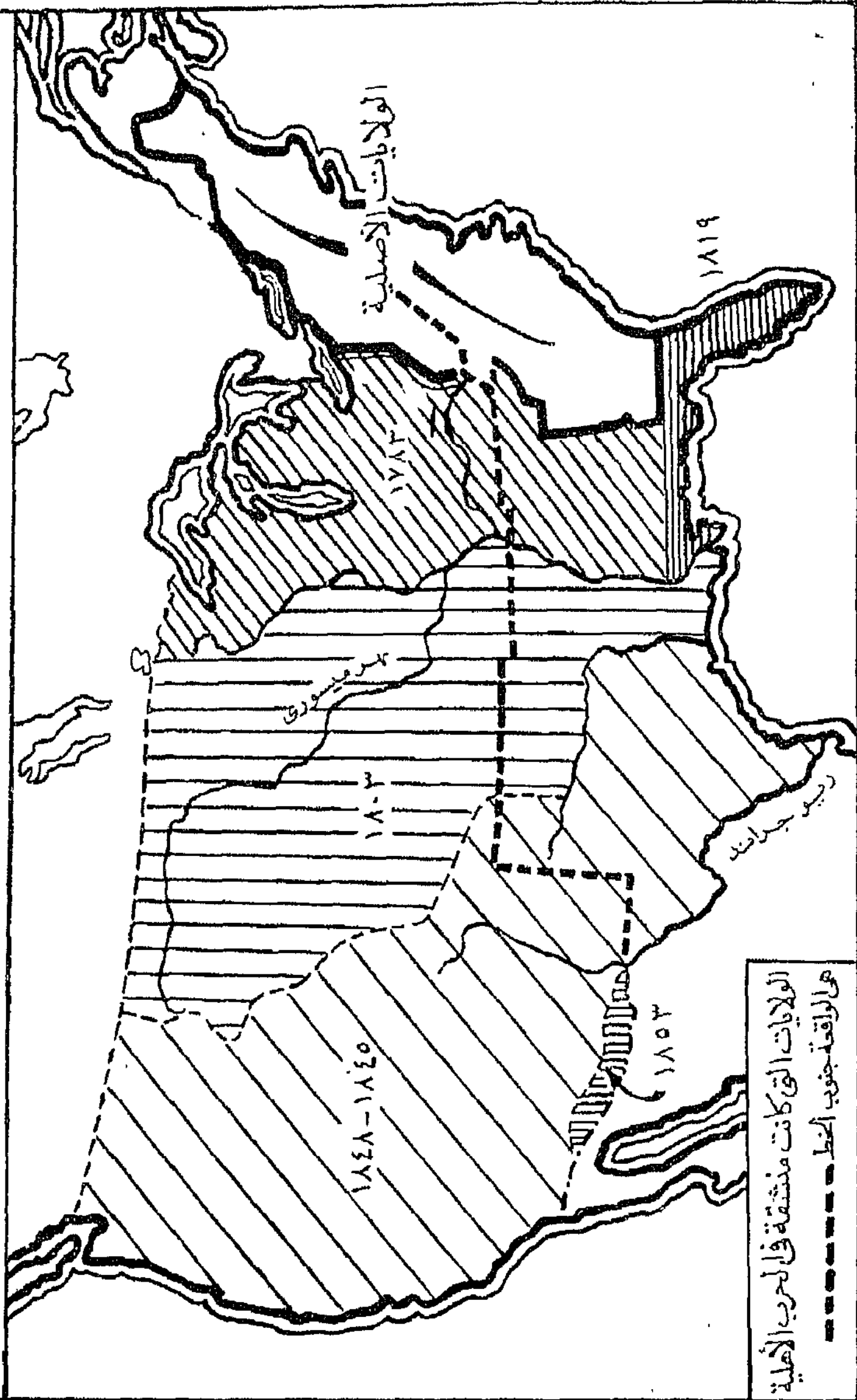
الاستكشافات الجغرافية



بريطانيا والصين



انقسام وقعة الولايات المتحدة الأمريكية



فهرس

صفحة

الموضوع

تصدير

مقدمة المؤلف

مقدمة المترجم

١	٤	الرسالة رقم
٥	٨	»
١١	١٧	»
١٧	٢٧	»
٢٤	٣٩	»
٢٨	٤٠	»
٣٨	٤٩	»
٤٦	٥٣	»
٥٤	٧٢	»
٦٤	٧٣	»
٧٤	٨٧	»
٨٦	١١٢	»
١٠١	١١٤	»
١١٤	١٣١	»
١٢٦	١٣٢	»
١٣٧	١٣٧	»
١٥١	١٣٨	»
١٦١	١٤٥	»
١٧٢	١٤٦	»
١٨٩	١٤٨	»

مكتبة الثقافة الشعبية

مجموعة جديدة تقدمها دار المعارف إلى العالم العربي متوخية فيها تحقيق الأهداف الآتية :

١ - أن تجعل القارئ العربي متصلاً بجميع الحضارات على اختلاف مذاهبها ومناهجها فيقف عليها ويستوعبها بما تضعه هذه المجموعة بين يديه من ترجمات دقيقة أمينة .

٢ - أن تساعد محبي الاطلاع والتوسع على تنمية ثقافتهم العامة فتزودهم بموضوعات جليلة الشأن ولكنها سهلة المأخذ تقتطفها لهم من مختلف حداثق الفكر .

٣ - أن توفر للراغب في التخصص موضوعات تكون له بمثابة المدخل إلى كتب التخصص .

مكتبة الثقافة الشعبية

لايستغنى عنها القراء على مختلف درجات ثقافتهم

ظهر منها :

١ - لمحات من تاريخ العالم بقلم جواهر لال نهرو
ترجمة الدكتور عبد العزيز عتيق

تحت الطبع

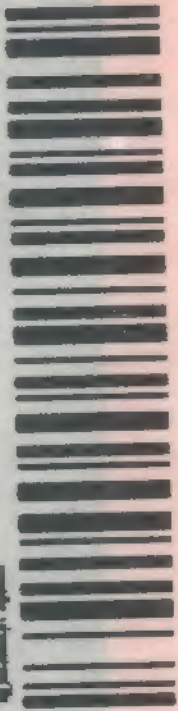
بقلم جورج صول
ترجمة الأستاذ ماهر نسيم

٢ - الأجور والعمال

دارالمعارف بمطرو

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة

Bibliotheca Alexandrina



0399011